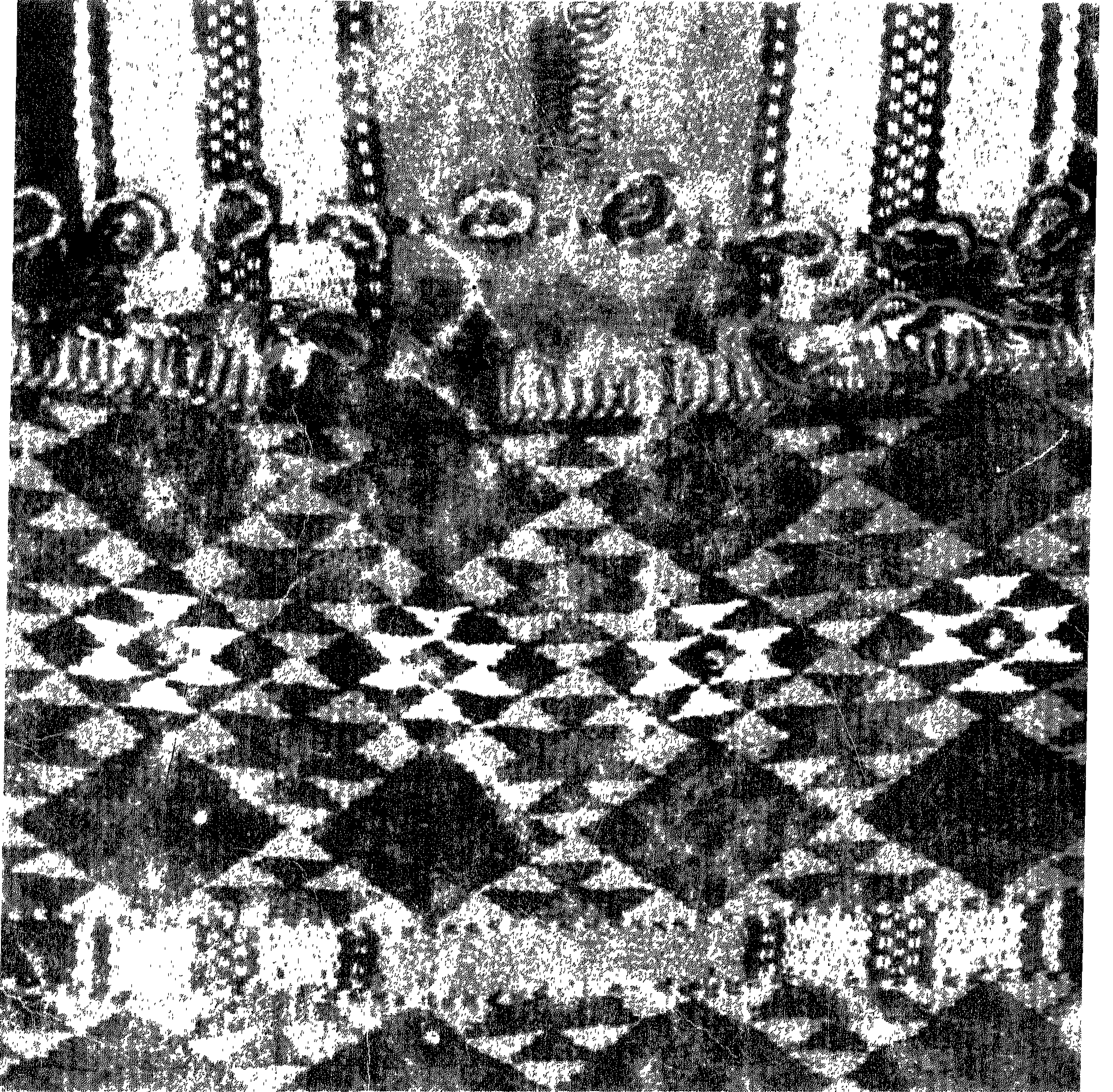
التراث الشعبي المصري
في المكتبة الأوربية



الدكتورة علياء شكري

ءات ٢٠٠٤

لى محمود اسلام الفار
'سكندرية

سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب الرابع والعشرون

التراث الشعبي المصري
في
المكتبة الأوربية

الدكتورة علياء شكري
استاذة علم الاجتماع المساعدة
بكلية البنات ـ جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٩٧٩

دار الجيل للطباعة
جمهورية مصر العربية

١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون : ٩٠٥٢٩٦

إهداء

الى صغيرتى ... « أميرة »

التى آمل أن يتحقق على يديهـا

خير كبير لعلم الفولكلور المصرى

علياء شكرى

محتويات الكتاب

مقـــدمة

يحاول هذا الكتاب أن يعرف القــــارىء العربى يعض المؤلفات الفولكلورية التى كتبت باللغات الأوربية ، والتى أعتقد أنها ســتكون حافزا لكثير من الباحثين المصريين والعرب لخوض غمار هــذا الميدان الهام من ميادين الدراسة العلمية ، وهو التراث الشعبى .

ولقد راعيت فى اختيارى لتلك المؤلفات عددا من الاعتبارات المتنوعة، أولها وأهمها المكانة المتميزة للكتاب الذى أعرض له كمعلم من معــالم دراسة التراث الشعبى المصرى . ويمكن القول بأن كل كتــــاب يمثل بالنسبة لموضوعه ولعصره علما بارزا واسهاما علميا متميزا . كما أخذت فى الاعتبار أيضا ألا يكون المؤلف المعروض قد انتشر أو عرف على نطاق واسع للقارىء العربى ، اما بسبب اللغة المكتوب بها ، أو لغير ذلك من أسباب . وهــذا هو الاعتبــار الذى دفعنى الى اغفال كتاب وليام لين « المصريون المحدثون » الذى عرفه القارىء العربى فى ترجمة عدلى نور منذ ثلاثين سنة تقريبا .

وقد راعيت فى مناقشتى للمؤلف الذى أتناوله التركيز قدر الامكان على الجــوانب المنهجية وعلى الخبرات العلمية التى خرج بها المؤلف من دراسة المجتمع المصرى . هذا دون أن أغفل بالطبع القاء ضوء كاف على محتويات الكتاب ، حتى أن بعض الفصول الواردة فى كتاب هذا يمكن أن تغنى عن قراءة المؤلف الأصلى الذى تعرض له .

كما أنوه أن مناقشتى للعمل الذى أعرضه كانت تتجاوز فى كثير من الأحيان حدود الكتاب أو الدراسة التى أتناولها لتقدم اطارا عاما أو خطة عامة لمعالجة الموضوع نفسه . اذ يحاول النقد أن يخرج من حدود العمل

الواحد الذى نعرض له ، لتعلم بأطراف الموضوع وتقـدم معـالم الاطار الذى تتصوره المؤلفة مناسبا للمعالجة الأصولية للموضوع الذى يغطيه هذا الكتاب أو الدراسة التى تناولها .

وهذا فى رأيى يعطى الكتاب وزنا أكبر من كونه مجرد محـاولة للتعريف ببعض المؤلفات أو التنبيه الى أهميتها (وان كانت تلك بالطبع مهمة بديهية من مهام هذا الكتاب الذى بين يدى القـارىء) ، بحيث يساهم فى تطوير أسلوب ملائم لمعالجة الموضوعات التى تصدت لها تلك الكتب والدراسات التى نتناولها بين دفتى هذا الكتاب .

علياء شكرى

الدراسة الأولى

دراسة للعادات والتقاليد الشعبية

فى كتاب وصف مصر

أولا ـ مقدمة

ثانيا ـ مؤلف الكتاب

ثالثا ـ تبويب الكتاب

١ ـ الفصل الأول

٢ ـ الفصل الثانى

٣ ـ الفصل الثالث

٤ ـ الفصل الرابع

٥ ـ الفصل الخامس

٦ ـ الفصل السادس

رابعا ـ شابرول والدين الاسلامى

خامسا ـ شابرول والمصريون

سادسا ـ الدين والتراث الشعبى

سابعا ـ التحليل الاجتماعى عند شابرول

ثامنا ـ ملاحظات عامة حول الكتاب

اولا ــ مقدمة

هناك بعض الأعمال العلمية القليلة التى تحظى باعتراف كافة العلماء والمتخصصين على امتداد التاريخ ، وتحتل مكانة متميزة بين التراث العلمى العالمى لا يمكن أن تتزحزح عنه بسهولة ، مهما تكاثرت عليها مكتشفات العلم الحديث . وبعض تلك الأعمال يستمد عظمته من كونه يمثل تسجيلا فريدا أمينا ودقيقا لحياة مجتمع فى لحظة معينة من لحظات تاريخه . ويكون هذا التسجيل من التميز والأصالة بحيث يبقى فى ضمير هذا الشعب وفى عقل أهل الفكر محتفظا بمكانته .

من تلك الأعمال الخالدة فى تاريخ العلم موسوعة « وصف مصر » التى وضعها علماء الحملة الفرنسية على مصر ، وصدرت طبعتها الأولى فى مطلع القرن التاسع عشر[1] .

وقد ظل هذا العمل العملاق فى دائرة الظل رغم اعتراف الجميع بأهميته وتقديرهم لخطورته ، ولم يكن يتاح الاطلاع عليه الا لمن يجيد

---

(١) طبعت هذه الموسوعة الضخمة مرتين ، الأولى واستغرق العمل فيها من ١٨٠٩ حتى ١٨٢٢ . أما الطبعة الثانية فقد بدأ العمل فيها عام ١٨٢١ وانتهى فى عام ١٨٢٩ . ويشتمل الكتاب على دراسات عن مختلف نواحى الحياة فى مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها . وبعض هذه الدراسات طويلة ، بحيث يمكن نشرها مستقلة فى كتاب ، وبعضها متوسط الطول ، وبعضها مجرد ملاحظات لا تستغرق أربع أو خمس صفحات .

انظر ، وصف مصر . الدولة الحديثة . الترجمة الكاملة (١) : دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، تأليف ج. . دى شابرول وترجمة زهير الشايب ، الناشر غير مبين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٦ ، من مقدمة المترجم ، صفحة حـ ، د .

الفرنسية ، فلم ينتشر فى أوساط المثقفين والجماهير الشعبية الأوسع • الى أن تصدى لترجمة هذا السفر الضخم ــ بدءا بالدولة الحديثة ــ باحث مصرى مخلص لعلمه وبلده ، أخذ يعمل فى صمت العلماء المخلصين متحليا بجلد فريد ، مكنه أن يصدر حتى اليوم أربع مجلدات من ترجمة هــذا العمل الكبير •

والكتاب الذى نعرض له اليوم بالتحليل والنقد هو أول تلك الكتب، وهو فى نفس الوقت دراسة من دراسات المجلد الثانى من مجلدات الدولة الحديثة الثلاث •

ولقد دفعنى الى الاهتمام به ومعالجته هذه المعالجة النقدية المسهبة أنه يمثــل الى جانب كتب وليم لين ، ومس بلاكمان ، وفينكلر ، والأب عيروط وغيرهم واحدا من أبرز وأهم مصادر المعلومات الأنثروبولوجية عن مرحلة هامة من مراحل تطور المجتمع المصرى • وقد حرصت وقد وقفت جهدى العلمى كله لدراسة العادات والتقاليد الشعبية ــ على المستويين المصرى والعربى ــ أن أبصر الباحثين والقراء المتخصصين بالجوانب التى يمكن أن يفيد منها الباحث الأنثروبولوجى من هذا الكتاب الهام •

ومن الواضح أن تقييم وتحليل عمل كهذا لابد وأن يستند الى المام كامل بتطور العلم الأنثروبولوجى على المستوى العالمى ، بحيث تضــع صاحبه فى اطار عصره وفى حدود مرحلة التطور التى قطعها العلم عــلى أيامه • ومن هنا ما أبديناه من تسامح جم معه ، حيث كان موقفه مع ذلك ايجابيا جدا بالقياس الى الاتجاهات والأفكار التى كانت سائدة فى عصره•

ولقد حرصت كل الحرص على أن تكون معالجتى لهذا الكتاب بحثا فى المنهج ، تقيم كل صغيرة وكبيرة فى ضــــوء اطار نظرى متكامل لعلم

الفولكلور ، يضع فى اعتباره أبواب الدراسة فى هذا العلم وأدوات البحث الملائمة فيه • ولذلك فاذا كنت أستعرض فصول الكتاب فصلا فصلا فلم يكن ذلك لمجرد الرغبة فى احاطة القارىء بمحتويات الكتاب • فتلك مهمة يسيرة بالنسبة لكتاب صادر باللغة العربية وفى متناول كل قارىء • ولكننى كنت أحاول فى الحقيقة أن أقيس بمقياس دقيق وأمين اسهام كل فصل من فصول الكتاب فى القاء الضوء على هذا الباب أو ذلك من أبواب الدراسة الأنثروبولوجية ، وأن ألمس بشكل مباشر اللياقة المنهجية للأساليب التى اتبعها المؤلف فى تحليل مادته التى توصل الى جمعها وعرضها •

وقد رأيت أن من الأوفق بعد المقدمات (عن الكتاب والمؤلف) أن أقدم عرضا مفصلا لمادة الكتاب من وجهة نظر علم الفولكلور الحديث ، يزن كما قلت اسهام المؤلف فى اطار تصور معين الى موضوع ومنهج هذا العلم(٢) •وذلك العرض هو فى اعتقادى حجر الزاوية فى هذه الدراسة •وقد رأيت أن أتبعه ببعض الملاحظات الموضوعية الخاصة ، كالفقرات رابعا وخامسا وسادسا عن شابرول والدين الاسلامى ، وشابرول والمصريين ، والدين والتراث الشعبى • وقد بدا لى من الصواب أن أخصص فقرة مستقلة لمناقشة خطة شابرول فى تحليل المادة التى عرض لها • وذلك فى ضوء منهج التحليل المتكامل فى علم الفولكلور ، الذى يأخذ فى اعتباره

---

(٢) انظر دراستى للدكتوراه من الثبات والتغير فى عادات الموت (بالألمانية) ، وكذلك دراستى عن عادات الطعام فى الوطن العربى (تحت الطبع) ، وبعض الدراسات الميدانية عن التراث الشعبى فى مجتمع الجزيرة العربية ، الناشر دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ . وانظر كذلك محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٨ •

الأبعاد التاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية . وذلك كله بهدف أن تكون مطالعة دراسة كهذه ربطا بين مادة أصبحت اليوم ملكا للتاريخ وواقع علمى متجدد . واجتهدت أن أبين للباحثين المحدثين امكانيات الاستفادة العلمية المتقدمة من مادة غنية بهذا القدر ، لا يعوقنا عن ذلك قدم عهدها أو تباعد الزمن بيننا وبينها .

ويراودنى فضلا عن هذا أمل كبير فى أن تثرى مادة هذا الكتاب التحليلات التاريخية للتراث الشعبى فى مصر وفى سائر أنحاء الوطن العربى . اذ يندر أن تتوفر عن أى منطقة فى العالم تراث تاريخى بمثل ثراء التراث الموجود عن منطقتنا العربية . وتلك نقطة قوة لباحثينا يجب أن يفيدوا منها فى اجراء التحليلات التاريخية لتراثنا .

ثانيا ـ مؤلف الكتاب

مؤلف هذا الكتاب هو الفرنسى جلبير جوزيف جاسبار كونت دى شـــابرول Gilbert Goseph Gaspard Comte de Chabrol وقد وقفت على ترجمة مختصرة له فى المقدمة التى عقدها المترجم للكتاب. جاء فيها انه ولد فى ريوم Riom سنة ١٧٧٣ ومات سنة ١٨٤٣ ، مما يعنى أنه عندما قدم الى مصر كان فى الخامسة والعشرين من عمره . أما عن ثقافته فليس فى تاريخه مايشير الى اشتغاله بدراسة انسانية على مستوى أكاديمى . وان كان هذا لاينفى شغفه الواضح بدراسة التاريخ المصرى القديم ، الذى يكشف عن نفسه بوضوح فى ثنايا الكتاب . ذلك أن مهنته التى كان يعمل فيها قبل حضوره مع الحملة الفرنسية هى مهنـــدس طرق وكبارى . وليست لدينا معلومات مباشرة ولا غير مباشرة (من ســياق الكتاب) عن طبيعة العمل الذى كان يؤديه أثناء تواجده فى مصر برفقة الحملة .

ولكنا نعرف ـــ من مقدمة المترجم ـــ أنه « قد عين بعد عــودته من مصر مأمورا لمدينة موتتينوف Montenotte سنة ١٨٠٦ ، وأنشأ بها طريق الكورنيش . وفى عام ١٨١٢ قابله نابليون بشـــكل عابر ، وكان شابرول يقضى أجازته فى باريس ، ودار بينهما حديث فأعجب به نابليون وعينه مأمورا للســين . فأدار باريس كما ينبغى أن تدار مدينـــة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى . وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيرا حتى ان لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه فى وظيفته الحساسة ، على الرغم من أنه قد عين من قبل نابليون »[٣] .

---

(٣) دى شابرول ، سكان مصر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، مقدمة المترجم ، ص هـ .

ولا شك أن هذه المعلومات لا تكفى لالقاء الضوء الكافى على شخصية شابرول وفكره ، الا أننا نستطيع أن نسد كثيرا من الثغرات من مطالعة الكتاب نفسه ، وقراءة مابين السطور • فمن كتابته نعرف مدى الحماس الذى كان يجيش به صدره لدراسة عادات وتقاليد المصريين ، ومدى اطلاعه على تاريخ الفراعنة ، والمامه بالمراجع الكلاسيكية عن مصر وخاصة مؤلفات هيرودوت ، وديودور الصقلى وغيرهما) • كذلك يتضح من صفحات الكتاب أن شابرول قد أحاط بشكل جيد بأبرز كتب الرحلات التى صدرت حتى عصره عن المنطقة بأجمعها • نذكر من تلك الكتب مؤلفى فولنى Volney : الأول عن « الحالة السياسية فى سوريا » (بلاد الشام) ، والثانى عن « رحلة الى مصر وسوريا » ، وكتاب سايارى Sayary المعنون « رسائل عن مصر » • ومن نافلة القول أن نؤكد أنه قد اضطلع وناقش فى بعض التفاصيل أعمال زملائه من علماء الحملة الفرنسية على مصر • نذكر منها على سبيل المثال : دراسة جومار Jomard التى عقد فيها بعض المقارنات بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى ، ودراسة اميديه جوبير Amedée Jaubert التى قدم فيها احصاء أجراه بنفسه عن سكان مصر ، ودراسة فيلوتو Villoteau عن موسيقى المصريين المحدثين (وصف مصر ، الدولة الحديثة ، المجلد الأول) ، ودراسة كوستاز Costaz عن وصف مدينة طيبة ، ودراسة جولوا عن مدينة رشيد ، ودراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة أرض مصر ••• الخ •

وواضح أن اطلاعه على هذه الأعمال وغيرها لا يعنى أنه اتخذها مصادر لمادته ، لأن مادته فى صلبها هى مشاهدات واقعية وملاحظة ميدانية عايشها بنفسه أو سمع عنها من مصادرها الأصيلة • ولكننى أشرت الى أنها انما تسجل عمق اهتمامه بالموضوع وسعة احاطته بأطرافه ، ومدى اقباله على الدراسة •

ولعل هذه الاعتبارات جميعا هى التى دفعت مترجم الكتاب — ومعه الحق كل الحق — الى أن يبدى اعجابه الفائق « بقدرة هذا المؤلف الشاب على الرصد والتأمل والفهم والاحاطة فى مجال أبسط ما يقال فيه انه ليس مجال تخصصه (ص « و » من مقدمة المترجم) • ثم أننا نتفق بعد ذلك مع المترجم فى أن هذه الظروف نفسها هى التى تدعونا الى « التمـاس العذر له فى بعض الأمور التى التبس عليه فهمها ، بل وفى بعض الأخطاء التى وقع فيها ، وبخاصة فى مجال المعتقدات والشرائع » • وسوف تتناول فى الفقرات التالية هذه الأخطاء بالتفصيل • ولذلك ليس ما يدعو الى الدخول فى تفاصيلها هنا •

ثالثا ـ تبويب الكتاب

يشتمل الكتاب على ست فصول وثلاثة ملاحق • وتقع الترجمة العربية فى نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير • والترجمة العربية غير مزودة بأى صور أو رسوم أو خرائط ، وان كانت مزودة بعدد من الجداول الهامة الطويلة والدقيقة والمفصلة تتناول « تفاصيل البضائع المستوردة من لندن ، مارسيليا •• الخ الى القاهرة للاستهلاك السنوى بمصر عام ١٧٧٥ » ، ص ص ٢٦١ ــ ٢٦٦ • وجدول البضائع التى تصدرها مصر الى لندن ومارسيليا •• الخ » ص ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ • وسوف أستعرض فيما يلى محتويات فصول الكتاب الستة ، متناولا كل فصل منهـا على حـدة •

الفصل الأول :

خصص الفصل الأول لمقدمة عامة عن الطقس والسكان ، وبدأ من الفصل الثانى بتتبع تطور الانسان المصرى من نشأته وفى تطوره • فعقد الفصل الثانى للحديث عن الانسان المصرى فى سنوات عمره الأولى والطفولة والتربية ••) • والفصل الثالث للكلام عن الانسان المصرى فى طور الرجولة ، والفصل الرابع عن الانسان المصرى فى طور الشيخوخة • أما الفصلان الخامس والسادس فيتناولان أمورا ذات طبيعة عامة : الخامس عن النظم الاجتماعية والسادس عن التجارة والصناعة والزراعة • هذا عدا الملاحق التى سنفصل فيها القول فيما يلى :

وقد عنون المؤلف الفصل الأول كما يلى « لمحة عامة عن الطقس وعن السكان وعن تقاليد وعادات المصريين » ص ص ١ ــ ٤٤ • وفيما يتعلق بهذا العنوان فلا يفوتنا أن نلاحظ أن المؤلف لم يكن شديد الحرص دائما فى اختيار عناوين فصوله ، وبالتالى تصنيف مادته من ملاحظات وبيانات•

ذلك أن عنوان هذا الفصل الذى نحن بصدده يمكن أن يغطى موضوعات من فصول أخرى كما سيتضح من استعراض محتويات تلك الفصــول . كما أننا لا ننسى أن الكتاب كله عن سكان مصر وعن عادات وتقــاليد المصريين . ولكن لندع جانبا هذه النقطة الشكلية . فهذا الفصــل يقدم عرضا موجزا ــ غير أكاديمى ــ لمناخ مصر (فى الفقرة ــ ١) واستعراضا سريعا للجماعات السكانية البارزة فيتكلم عن الأقبــاط (الفقرة ــ ٤) والعــربان (الفقــرة ــ ٥) والمماليك والأجانب المســتوطنين فى مصر (الفقرة ــ ٦) . وهو فى تلك الفقرات يعطى فكرة عن أعــداد كل فئة وتوزيعها وقوتها وأبرز سماتها والملامح التى تحددت أمامه . وسنلاحظ فى كل فصول الكتاب ولعه بتقديم التحليلات ، منطلقا فيهــا من منظور اجتماعى ناضج الى حد كبير . وسوف نستعرض أبرز تلك التحليلات فى فقرة مستقلة من مقالنا هذا .

أما الفقرة السابعة من الفصل الأول فيقدم فيها شابرول شيئا لايمكن أن يقدمه الا هو ، لأنه فى جوهره عبارة عن طائفة من الانطباعات والملاحظات العامة . فهو يسجل فيها ملاحظة لفتت نظره أشــد من غيرها وهى جمود ملامح الوجه ويحاول أن يفسره ، كما يصف أبناء مصر فى ذلك العصر بالخمول ويجتهد هنا أيضا فى القاء الضوء على عوامل هذا الخمول . وقدم عبارات طافحة بالحماس والبســـاطة ، حيث يقول : (« ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمرا بالغ التناقض مع تقاليدنا حتى لنظنهم فى البــداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبســط حــركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشى بعدم اكتراث مذهل ، فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم حسب درجة ثرائهم حتى تظن أن ليس ثمة فى هذه الدنيا ما يشغلهم الا أن يملأوا ويفرغوا على التوالى الى أرجيلتهم الطويلة ، وتبدو مخيلتهم وكأنما قد تمددت مثــل

أجسامهم لحد تخال معه — وهم فى حالة التنويم الروحى تلك — أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم . وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب.وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية : فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس — وحيث يمكنهم بذلك تركيزها — أكثر حدة ، كما أنها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الاتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلا عن ذلك فان الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة .. ان ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر تذهب الى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين فى بلادة مطلقة » . (ص ص ٣٠ — ٣١) . ثم ينتقل الى الكلام عن الطبقات الكادحة فى الريف والمدينة ، أولئك الذين يعملون ولا يعرفون سوى العمل ، وليس على محياهم أى امارات للخمول أو البلادة أو الكسل ، وتنطق عباراته التالية بالانصاف لأبناء تلك الطبقة ، حيث يقول عن فقراء المدن (« وبرغم ذلك ، فان للطبقات الشعبية تقاليد أقل تخنثا ، فذلك الرجل البائس الذى يتوقف بقاؤه على قيد الحياة على عمله اليومى الدءوب ، نشيط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه التعب . ويتحمل الفلاح النيران التى تصبها عليه السماء الملتهبة لكى يبذر الأرض التى تمده بضرورات أسرته ، وسوف يدهش الأوربى الذى سبق له أن رأى الأثرياء المصريين ممددين على أرائكهم فى رخاوة ، بل يمكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو أنهم أتوا باشارة الى خدمهم ، سوف يدهش عندما يرى السايس أو خادم الأسطبل ، أثناء تدريبات المماليك العسكرية وهو يجرى أمام حصان سيده ويتابع كل حركاته لساعات طوال دون أن تبدو عليه أقل امارات التبرم أو الضجر فى الوقت الذى تلقى الشمس الملتهبة على جسمه العلوى

شواظى من رصاص ، ويؤخذ هؤلاء الخدم (السايس) من طبقة الفلاحين عادة » . (ص ٣٣) .

ثم يتحدث عن الفلاحين حديثا فيه اعجاب وتقدير لجهدهم مع رقة حالتهم وسوء حظهم فى الحياة ، فيقول : (« ويتمتع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، وملامحهم بشوشة ، بحيث تتناقض مع ذلك الهوان الذى قدر عليهم على الدوام أن يقاسوا منه . وهم عجاف أشداء ، وهم يستطيعون تحمل كافة المتاعب ، فتراهم نائمين وقت الظهيرة فوق أرض ملتهبة وينامون على هذا النحو ساعات متوالية ، متعرضين للهب الشمس ، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربى ، لكن تلك هى قوة الاعتياد الذى يتوافق الفلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون يحسون بالعرق اذ لا تمتلك هذه الطبقة الا قوتها الجسدية ، ولعلها وفيما عدا هذه الميزة ، أتعس طبقات مصر » . (ص ٣٤) .

والى جانب هذه الملاحظات أو الانطباعات العامة تحوى هـــذه الفقرات ملاحظات عن مستوى الصحة العـــامة ، واحترام كبار السن ، واحترام كبار السن ، والواجبات الدينية والمساجد ، والأولياء ... الخ . ولكنه يقع فى محظور كبير فى بعض المواضع اذ يكيل الســـباب والقدح للعناصر الثقافية التى تعرض له ولا يستطيع أن يفهمها أو يتذوقها . ولاشك أنه ليس من الانصاف ولا من المنطقى أن نطالب كل من يدرس عاداتنـــا بأن يصير واحدا منا ، فهذا فوق أنه مطلب غير عادل ، فهو مستحيل ، اذا كنا نحن دارسى الثقافة نؤمن أن الانسان هو أولا وأخيرا ابن ثقافته .

أقول هذا بمناسبة حديثه عن الموسيقى فى مصر ، الذى يطفح بعدم التقدير النابع من عدم الفهم ، وهو كما قلت محظور كان ينبغى أن يتجنب الوقوع فيه . لأنه اذا كانت الموسيقى تجعل احدى النساء « يغمى عليها

من فرط الانتشاء » ، فهذا دليل على أن تلك الموسيقى توافق مزاجها وتخاطب أحاسيسها ، أما كونها هابطة أو أن الأغانى المصاحبة ذات نغمة جنسية واضحة ، فهذا لا يبرر اداتتها جملة بالشكل الذى نجده عند شابرول • ولعلنا نقرأ معا جانبا من حديثه عن الموسيقى حيث يقول : (« واذا كان صحيحا أن مصر القديمة هى التى أوحت للشاعر أروفيوس بالأفكار الأولى لهارمونيته الموسيقية ، فان مصر الحديثة قد فشلت فى هـذا المجـال كمـا فشلت فى أمور أخـرى • فالموسـيقى فى هذا البلد ليست سوى نوع من الأنغام الغليظة والرفيعة تفرغ ضوضاءها المنفرة والمنافية للذوق السليم فى الآذان فتكاد تجرحها • ومع ذلك فان لهذه الموسـيقى المليئة بالعيوب •• كما نرى ــ قدرة عجيبة على ادخال السعادة الى الجنس اللطيف فى مصر ، الذى يحتقر فى نفس الوقت وبشكل كبير موسيقانا الأوربية • وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء وهى تستمع لصوت أجش لأحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الأجانب نعده صوتا عاجزا يبعث على التقزز وهم يصحبون أغانيهم بآلة موسيقية أو آلتين حادتين ليس بينهما تناسق • ومغنيات مصر المفضلات هن العـوالم (عالمة) • وهن يشـكلن واحدة من مباهج وملذات المصريين • ومع ذلك فان صوت هؤلاء العوالم منفر وغير مقبول وينبغى أن تكون مصريا حتى تجد فى صوتهن بعض الطرب•وتنتسب هؤلاء السيدات عادة الى الطبقات الشعبية • وهن مشهورات بكونهن شاعرات مرتجلات « • (ص ٣٨) •

أما آخر فقرات هذا الفصل فيضـمنها بعض ملاحظات عن الأمور الصحية وعنوانها « عن الأمراض الرئيسية » ، (ص ص ٤٠ ــ ٤٤) • ويتوسع نسبيا فى حديثه عن الطاعون ، والدوسنتاريا ، وأمراض العيون ، والجدرى ••• الخ •

الفصل الثانى :

يبدأ المؤلف فى هذا الفصل استعراض دورة حياة الانسان المصرى ، بمراحلها الثلاثة : الطفولة ـــ والرجولة ـــ والشيخوخة • وهذا الفصل عن « الانسان المصرى فى سنوات عمره الأولى • الطفولة والتربية ـــ الفنون والعلوم والآداب » ، ص ص ٤٧ ـــ ٧٣ • وينقسم الفصل الى خمس فقرات رئيسية يتحدث فى الأولى عن خصوبة المرأة المصرية ، وفى الثانية عن الختان ، وفى الثالثة عن التعليم الأولى ، ثم فى الرابعة عن العلوم والفنون ، وفى الأخيرة عن الآداب والشعر •

وقد قدم لموضوع عن خصوبة المرأة بمقدمة عامة صور فيها الملامح العامة لحياة المرأة المنزلية ومكانتها فى المجتمع • وهو لم يبد فى هذه الفقرة تحاملا على تحديد الرجل الشرقى لوضع المرأة فى المجتمع ، ولا عن كبتها أو قهرها • ولا يجرى فى وضعها أى مشكلة سوى أنها محرومة من كل أنواع التعليم ، وليس أمامها من سبيل لتزجية أوقات الفراغ وتسلية نفسها وصاحباتها سوى الاستغراق فى الرخاوة والملذات الجسمية (بالنسبة لنساء الطبقات العليا) ، أو الانهماك فى العمل ثم العمل ولا شىء غير العمل بالنسبة لنساء الطبقات الكادحة • ولا شك أن هذا الحس الاجتماعى الناضج عند شابرول هو الذى يمده بقدرة تصنيفية بارعة تتجاوز حدود التصنيفات التقليدية ، فليست هناك امرأة هكذا على الاطلاق ، وانما هناك امرأة غنية رخوة وأخرى كادحة عاملة • وهذه بنت طبقتها وتلك بنت طبقتها ، ولا يجمع بينهما سوى انغلاق مسالك العلم أمام كل منهما • ولنطالع معا طرفا من حديثه عن المرأة المصرية : « وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التى تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح فى مجال التربية التى يتلقينها فى طفولتهن ، وهى تكاد تكون معدومة بالنسبة

لجنسهن كله ، بقدر ما تتضح فى مجال العادات التى تنتشر فى أوساطهن كنساء وفيما تخاطبه السيدات من علية القوم من احتفال وامتياز • ومن هذه الناحية ، يمكن لنا القول بأنه لا توجد فى مصر الا طبقتـــان من السيدات : طبقة ترفل فى الثراء ، ويؤدى الغنى الى رخاوة نسائها فيقضين حياتهن بأكملها داخل مباهج ومسرات الحريم ، وطبقة أخرى قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل • ولكى يتضح لك الفرق ، فما عليك الا تنظر الى واحدة من زوجات البكوات ، وأن تدرس أذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كفيل بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات ، ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ الى ما تحت سقف واحد من الحرفيين أو الى داخل كوخ أحد الفلاحين وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التى تحياها كل هؤلاء النسوة هى التى تحدد لهن ملابسهن •• وهكذا يمكنك أن ترى كل مباهج الرخاوة وترفها فى جانب، وفى جانب آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته » (ص ص ٤٧ ــ ٤٨) •

بعد ذلك ينتقل الى تدوين بعض الملاحظات عن أزياء المرأة وزينتها ، وعلاقتها بالرجال • ونصادف فى هذا الصدد ملاحظة بارعة حيث يصـــور مدى تعقيد الاجراءات التى تتم حينما تلتقى زوجة أحد البكوات بأحـــد الرجال الأجانب ، وكيف يتم ذلك بواســـطة طواشـــيها ومن وراء حجب ••• الخ ، ثم يصور من ناحية أخرى بساطة حياة المرأة الكادحة التى لا يتيسر لها تكاليف التقاليد ــ ان شئنا أن نقبل هذا التعريف • فهى سافرة الوجه ، وأنى لها أن تغطى وجهها وهى لا تستر كل جســمها الا بالكاد •

ويلى ذلك فى نهاية هذه الفقرة الحديث فى موضوعها الأساسى عن خصوبة المرأة المصرية ، بدءا من سن الخصوبة ، والفترة التى تبقاها المرأة

خصبة ، والولادة ، ورعاية الأطفال • ويأسره الى أقصى حد مدى العطف الذى توليه المرأة المصرية لطفلها ، ومدى الجهد والاخلاص الذى تبذله فى رعايتها له ، وما يترتب على ذلك من وشائج التماسك العائلى التى يبدى بأسف افتقار مجتمعه اليها بسبب مانعرفه من ظروف تطور وضع المرأة فى المجتمع • ويختتم تلك الملاحظات بعبـارة تعد نموذجية لطريقة تفكيره وأسلوب تعبيره ، يقول فيها : « وهكذا يبدو أن العناية الالهية تقيم نوعا من التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا أو نفس ميزاتنا الجسـدية أو الروحية التى تبعده عن أسرته يعرف أكثر منا معنى العواطف الطبيعية ، فأطفاله هم كل شىء فى حياته • وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثر تبلدا وأقل تنوعا لكنها أكثر نفاذا وأكثر حقيقة : وهـو يدين بذلك الى براءة عاداته وكذا الى بساطة تقاليده • لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والنـدم العائلى ما يسمم مباهجه » • (ص ٥٤) •

ثم يلى ذلك حديثه (فى الفقرة الثانية من هذا الفصل) عن الختان وليس فى حديثه جديد ، وان كانت به بعض الأخطاء والمبالغات التى لا شأن لها •

أما حديثه عن التعليم ، خاصة عن الكتاب (يسميها مدرسة عامة) فمعبر وحى ، ولكنه يقف دون غيره من الأوصاف التى نعرفها عن بعض الأجانب لوليم لين ، أو العرب كطه حسين • كذلك الفقرة التالية عن العلوم والفنون كلها تصوير لنظام التعليم والترقى فى الجامع الأزهر ، باعتباره على حد تعبيره « الجامعة الوحيدة فى مصر » • (ص ص ٦٣ ــ ٦٧) • أما حديثه عن الأدب والشعر فحديث متواضع ، ولا نستطيع أن نطلب من شخص لا يحسن العربية أن يكتب أكثر من هذا •

الفصل الثالث :

في هذا الفصل يواصل المؤلف رحلته مع الانسان المصرى فى أطوار حياته المختلفة ، ومن هذا العنوان الذى اختاره له : « عن الانسان المصرى فى طور الرجولة . العادات المدنية الأسرية » فى ص ٧٧ ـ ١٥٧ . ويتضح لنا من حجم هذا الفصل بالقياس الى بقية فصول الكتاب ، وكذلك من طبيعة الموضوعات التى يخوض فيها ، أنه بمثابة صلب الكتاب . وهو فى الحقيقة أهما جميعا فى نظرى سواء من حيث ثراء المادة أو من حيث حيويتها أو أهميتها المطلقة : وهو يضم اثنى عشرة فقرة ، نعرض لأبرز محتوياتها فيما يلى .

يبدأ الفقرة الأولى بالكلام عن الزواج ، من حيث طبيعة العقد فى الاسلام ، والمهر ، وطبقات المحارم ، والزواج من غير المسلمات ، وسن الزواج ، والاختيار للزواج ، وتعدد الزوجات ، وحمام العرس ، وزفة العروس ، وحفلات الزواج .. ويتضح من استعراض موضوعات هذه الفقرة أنه قد غطى الموضوع بشكل مرض ، وان كان قد خانه التوفيق فى بعض الاستنتاجات أو وضع بعض التعميمات . ويبدو ذلك واضحا على سبيل المثال فى حديثه عن تعدد الزوجات . اذ أنه يقرر فى البداية ـ وبحق ـ أن المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على ألا يفيدوا من رخصة الزواج بأربعة التى أباحتها الشريعة الا باعتدال بالغ . ولكنه يوضح بعد ذلك أن كبار الشخصيات ليست لهم فى العادة سوى زوجة شرعية واحدة . ويستطرد فى تحقق أسباب ذلك . ولكنه ينتقل بعد ذلك الى وضع التعدد لدى الصفات الأخرى فيقول : « وتعدد الزوجات أكثر شيوعا بين الطبقات الشعبية . وهم يسيئون كذلك استغلال سهولة ايقاع الطلاق بزوجاتهم حيث أن الأمر لن يكلفهم الا مهرا بالغ الضآلة . وحيث أنهم ـ بسبب تلك الغلظة فى طباعهم ـ ينظرون للمرأة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام » (ص ٨٠ من الترجمة العربية) .

ولا شك أن هذا الحكم ينطوى على عدد من الأخطاء . فقد بات من الحقائق المعروفة للمشتغلين بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية اليوم أن نمط الأسرة الزواجية Conjugal أو النووية (التى تتكون من زوج وزوجته وأولادهما المباشرين ، هى النمط الأكثر شيوعا من أنماط الأسرة ، وهى الشكل الأساسى للأسرة فى الماضى وفى الحاضر والمستقبل أيضا ، وخاصة لدى الطبقات الدنيا ، حيث لا يتيسر للغير أن يجمع بين أكثر من زوجة . ثم ان صاحبنا شابرول قد خلط بين سهولة لطلاق وبين التعدد . فهذا ليست له علاقة عصرية بذلك ، لأن هذا طريق وذاك طريق كما هو واضح . هذا علاوة على أنه قد تصور أن يمين طلاق يلفظه الفلاح الفقير أو العامل الفقير هو بالفعل . فنحن نعرف أن أحدهم يمكن أن يحلف بالطلاق على زميل أو جار أو صاحب ليشرب عنده كوبا من الشاى (والله ان ما فعلت تكون مراتى طالقة) . فهذه الأيمان بالطلاق لغو ، لا يحاسبهم الله عليها ، وهم بدورهم لا يحاسبون أنفسهم عليها . ولكن بيت القصيد فى كل هذا أن الرجل الغنى ذا المركز المرموق ليس فى حاجة الى تعدد الزوجات لأن لديه أعدادا لا نهائية ـ نظريا ـ من الاماء . وقد نبه المؤلف نفسه الى أن بعض الزوجات يتخيرن لأزواجهن اماء جميلات يهديهن اليه ، ضمانا لسيطرتهن عليه وعلى أساس أنه سوف يعمل ان فعلت أو لم تفعل على اشباع شهواته بأى طريقة . أما اتهام الكادحين بغلظة الطباع فلن أعلق عليها ، ويكفى البؤس والهموم التى يعيشون فيها والتى صورها المؤلف نفسه أبلغ تصوير ، وامتدح فيهم فى أكثر من موضع أدبهم ودماثة خلقهم ورقة حالهم .

هناك نقطة أخرى فى هذه الفقرة تثبت لنا مدى براعة شابرول وذكائه فى ملاحظاته ، حيث يتبين على عجل وضع المرأة فى الأسرة ، ولم ينساق وراء الدعايات التى تصور المرأة بأنها كائن مهضوم وعاجز مسلوب

الارادة . حقيقة ان ذلك هو الوضع المعلن ، ولكن ميزان القوة الحقيقية داخل الأسرة شيء آخر . ولنقرأ معا تعليق شابرول على تلك الظاهرة :
ـ « ويحسن بنا هنا أن نلاحظ بأننا سوف نكون قد أخطأنا على نحــو كبير اذا ما اعتقدنا أن المسلمات ـ برغم خضــوعهن لنفوذ أزواجهن ـ يمكن أن يعاملن باستبداد وطغيان من قبل أزواجهن . فان وضعهن على العكس من ذلك طيب لحد كبــير ، كما أنهن فى نفس الوقت الذى تقضى فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتقــوقع الدائم ـ يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على عقول أزواجهن . كما أن هؤلاء لا يستطيعون مطلقا أن يسيئوا معاملتهن بل ولا حتى أن ينهروهن بحدة اذ للزوجة فى هذه الحالة أو تلك أن تطلب الانفصـــــال وتعود الى بيت أبيها » . (ص ٨٤) .

أما الفقرة الثانية من هذا الفصل فتمثل مناقشة لموضوع الانفصال والطلاق ، فيلفت نظره ـ لمــا هو متوقع ـ ســهولة وقوع الطلاق فى مصر . ثم يستعرض أحكام الطلاق فى الشريعة الاسلامية ، ومايترتب عليه من حقوق والتزامات للطرفين ، وتحديد وضع الأطفال .

وقد ختم شابرول هذه الفقرة بحديث عن وضع المرأة فى المجتمــع المصرى بصفة عامة : وصفه بالطبع بالانحطاط والتدهور ونسب ذلك الى الشريعة الاسلامية ، وهو ظلم صارخ للشريعـــــة . ولكن المهم أنه قص بتفصيل شديد حكاية كان هو نفسه طرفا فيها مؤداها أن رجلا فلاحا فى احدى قرى البحيرة جذب امرأة ـ لخلاف على الأرض ـ حتى أســال دمها . واستدعى الحاكم الفرنسى أعيان القرية وشــيوخها ليستفتيهم فى عقاب هذا الرجل ، فأفتوا بأن القصاص هو القاعدة (عصــا فى مقــابل عصا) ، ولكن ذلك بالنسبة للرجل ، أما المرأة فلا تساءل الرجل حتى لو قتلهــا ، وقد استكثروا عليه بأن يأمر بضرب الرجــل ٢٥ عصــا وكان

موقفهم ، ٢٥ عصا ، (صاحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة ، ليس هذا عدلا ، فهذا أقصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو أنه قتلها » (ص ص ٩٠ ــ ٩٢) ٠

ويخلص المؤلف من هذه الحكاية الى أنها « تصور لنا ــ دون حاجة الى تعليق ــ تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب وتعطى فكرة دقيقة عن رأى أبنائها فى النساء فى مصر ويكاد الأمر يكون على هذا النحو فى كل بلدان الشرق » ٠ وأترك للقارىء الحكم على مدى المبالغة أو سوء الفهم الذى تحويه هذه الحكاية ، حيث يرتب الرحالة أو الزائر العابر حكما عاما خطيرا كهذا على موقف فردى عابر ، ولا ندرى لعل الرجال أرادوا أن يعفوا الرجل من العقوبة على يد أولئك الأجانب ، فتطوعوا باعطاء الضابط الفرنسى معلومات خاطئة لا أساس لها عن أحكام القصاص أو عن وضع المرأة بصفة عامة ٠ فهم لا يضعون فى اعتبارهم ــ ولا يمكن أن نتوقع منهم ذلك ــ امكان استخدام ذلك الكلام العابر فى اصدار حكم كبير على حضارتهم وحضارة بنى وطنهم جميعا ٠ كما أن المعايشة الطويلة والخبرة المتنوعة كانت كفيلة لأن يتوصل المؤلف بنفسه الى تمحيص كل ما يقال له ، وعدم أخذ الكلام على عواهنه ٠

أما الفقرة الثالثة الخاصة بالطعام فيقدم فيها شابرول معلومات مفيدة عن أنواع المأكولات (خضروات وحبوب وفواكه ٠٠ الخ) التى يشيع تناولها فى الطبقات المختلفة ٠ ويبدى بعض الملاحظات الثاقبة حول شراهة أبناء الطبقات العليا (خاصة المماليك) فى الطعام ورقة حال وضآلة الطعام التى يقنع بها أبناء الطبقات الدنيا ٠ وتلك كلها ــ ان جاز القول ــ ملاحظات من الخارج ٠ اذ يتضح من قراءة الموضوع أن المؤلف لم يتناول الطعام على موائد كثير من الأسر ، وان حدث فلم يلق بالا الى الأطعمة ــ أى الأصناف ــ التى تقدم ٠ وبالطبع فقد أسقط كل ذلك الموضوع ،

وتبعه أننا لم نعرف ماذا يأكل المصرى — الفقير والغنى — فى الصباح وفى الظهر وفى المساء ، وهل هو أصلا يتنـــاول وجبتـــين أم ثلاثة .. الخ . والموضوع المرتبط بهذا ولم يكن له حظ المعالجة بقلم شـــابرول أيضـــا عادات الطعام وآداب المـــائدة ، — الدعـــوة الى الأكل — الاســـتعداد للطعام — طريقة الأكل — ترتيب الأصناف — الشرب عـــلى الأكل — اصناف الحلو — انهاء الطعام .. الخ . كل ذلك لم يلفت نظر شابرول ، ولعله اعتبره من الموضوعات غير الجديرة بالبحث ، رغم أهميته بالنسبة لدارسى الفولكلور والثقافة بوجه عام .

أما الفقرة الرابعة عن الملبس فتحوى معلومات قيمة على جانب كبير من التفصيل والدقة ، اذ يقدم بيانا مفصلا بمختلف قطع الملابس (مقسما الكلام عن الرجال أولا ، ثم عن النساء) . ولا ينسى شـــابرول أن يختم حديثه عن أزياء الرجال بالملاحظة الهامة التالية : « .. ومن نافلة القول أن نلفت انتباه القارىء الى أن الزى الكامل الذى بينا تفاصـــيل كل أجزائه انما هو زى الكبار والأثرياء . أما الطبقات الشـــعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء (لأنها بالطبع لا تملك أسبابه — هذه الملاحظة من عندى) . فخزينة ملابسهم لا تحتوى على أكثر من ثلاث أو أربع قطـــع من الملابس لا تتغير الا عندما تصبح مهلهلة الأطراف . فالفلاحون رجالا ونساء يذهبون الى حقولهم شبه عارين . أما عمـــال الطبقـــات الدنيـــا وكذلك جمهـــرة ســـكان المدن فيســـترون أجســـامهم بالكاد ببعض الهلاهيل » . (ص ص ١٠٠ — ١٠١) .

ثم ننتقل الى الفقرة الخامسة التى اختار لها عنوانا غير محدد لأنه — كما ندرك — هو موضوع كل الكتاب ، هذا العنوان هو : « التقاليد والعادات المختلفة » (ص ص ١٠١ — ١٠٨) . ويتناول تحت هذا العنوان موضوعات متنوعة : — مقدمة عن الطبيعة العامة لعادات هذا المجتمع ،

وتدخين التبغ ، والحشيش ، ومسن الحريم ، وأنواع الاماء ووظائفهن ، وخروج النساء من المنزل ، ونساء الطبقات الشعبية ، والحمام ، واحترام الأولاد لأمهم ، واحتفال السبوع ، والعلاقة بين الرجل والمرأة ، ومكان النوم وظروفه داخل البيت ، ونظام المواقيت (العربى) عند المصريين • ومستوى المادة المقدمة متنوع تنوعا كبيرا ، بعضها على جانب كبير من الطرافة والحيوية ، وقليل منها سريع وواضح أنه توصل اليه من مصادر ثانوية • ومدخله الى الموضوع كله قضية نظرية عن طبيعة التقاليد وديناميات نشأتها وتغيرها ، وهى فوق كونها خاطئة فانها غامضة وغير دقيقة • ويبدؤها بقوله : « ترتبط تقاليد المصريين بأنظمتهم ، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد انما هى وليدة هذه النظم • ومما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالطقس ، وأنها تبدو متمثلة تماما لطبائع الناس ، وكذلك للسوقع الجغرافى للبلاد» (ص‌ص١٠١ــ١٠٧) وبعد أن يهاجم الدين الاسلامى لأن صاحبه قد « أعلى من شأن أتباعه فى نظر أنفسهم بفعل ديانة أسسها بشكل ماهر واستطاع أن يتوصل الى أن يبرهن على عظمتها لأناس جهلاء سذج » (ص ١٠٧) (أنظر نص هذه الجملة فى سياقها العام فى الفقرة التى سأعقدها فن « شابرول والدين الاسلامى » • ولكنه بعد ذلك التفسير الجغرافى الميتافيزيقى الساذج لدراسة التقاليد ، ينتقل الى القول بأن المجتمع المصرى خاضع للتقاليد ولسطوة النظام الدينى ولا يعرف التقاليد الى درجة يقول فيها : « •• فكل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن العرب ما زال على حاله حتى اليوم ، ولو أنهم عادوا الى الحياة اليوم ليخوضوا فى نفس الأمر لوجدوا أنه لا ينبغى عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما قالوه فى ذلك الماضى البعيد » • (ص‌ص١٠٧ــ١٠٨) • وهى قضايا فى نظرنا خاطئة ، تجاوزها العلم فى تقدمه ، ولا يتطلب منا الوقوف عنده ومناقشته •

أما الفقرة السادسة فيعرض فيها بعض السمات والمواقف النفسية العامة عند المصريين كالاحساس بالهوان والذل ، مما يدفع كلا منهم الى اتخاذ موقف الاستجداء على طول الخط مهما كان وضعه ومهما كان الموضوع الذى يساوم عليه ، مالا أم غير ذلك كما يشير الى سمات الكسل التى لاحظها عليهم ، و « سلوك الحذر . والاحتراس الذى يسيطر على أبناء البلاد » ، والأمانة ، والقناعة . ثم تحوى الفقرة السابعة من هذا الفصل بعض المعلومات والانطباعات عن « الماشية والخيول وكافة دواب الحمل » (ص ص ١٢٢ ــ ١٢٦) . وقد تناول فى هذه الفقرة الجمال ، والحمار ، والبغال ، والخيول .

ولكنه تناول فى الفقرة الثامنة « تقاليد عربان البحيرة » فيقدم عنهم معلومات مفصلة غزيرة (ص ص ١٢٦ ــ ١٤٠) فيستعرض أبرز القبائل وأزياءهم ، وخيامهم ، ووضع المرأة ، قوانين الثأر عندهم ما اشتهر عنهم من العنف والشراسة والعدوان والانتهازية . وهو فى عرضه هذا لا يسترسل فى الهجوم على العربان دون حدود والى ما لا نهاية ، ولكنه يجتهد أن يرى الخصال الطيبة النبيلة الى جانب الصفات الذميمة (كالعنف ، والغدر.. الخ) . ويختم ملاحظاته تلك بالعبارة التالية : « ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا هنا فى أوربا سوف نكون مجحفين تجاه العرب لو أننا نظرنا اليهم كأناس همج ليس لديهم شفقة ولا رحمة ، فلقد ترددنا عليهم كثيرا وكنا شهودا على مودتهم وفطرتهم البسيطة وفضائلهم الرعوية ، واذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع أن نعمم هذا اللوم دون أن نحكم على أنفسنا بالجور وعدم الانصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نتناولها بالحديث هنا لأنها ليست بأقل جدارة بأن تتخذ نموذجا يحتذى من تقاليد أية أمة متحضرة » (ص ١٣١) . والملاحظ على تلك الفقرة بصفة عامة أن القصص والحكايات الواقعية التى

يستشهد بها أقرب الى الحقيقة ، وتقدم دلالات عميقة فى الكشف عن تفكير البدو وقيمهم المحركة •

أما فقرة «الحمام» التى تلى ذلك فنلمس فيها الوصف الحى الأصيل المرتكز على خبرة مباشرة ، وملاحظة دقيقة ، هى على أى حال سمة مميزة لحديث شابرول على طول الكتاب • ونحن نعرف أن الأوربى كانت تثيره دائما متعة الحمام الشرقى وملذاته ، ومباهجه ، واجتهاد الشرقيين فى الاستمتاع به الى أبعد حد ممكن •

بنفس الدرجة من الدقة والتفصيل والأصولية يعالج شابرول موضوع المقاهى العامة فى مصر الى حد أنه يستعرض أدق التفاصيل عن تأثيث المقهى وادارته وتكاليف ذلك كله • كما يقدم معلومات عن حجم الرواد ، ونوع المشروبات والمواد التى تدخن خاصة (الأفيون) • ويشير باقتضاب شديد الى جلسات المنشدين الذين يتخذون من المقاهى منتدى لهم لانشاد الملاحم والسير الشعبية ، والملفت للنظر أنه لا يولى هذا الموضوع القسط الواجب من الاهتمام ، ولعل له العذر فى ذلك وهو عدم تمكنه من اللغة • وهى سمة عامة على طول الكتاب اهماله الكبير لكل عناصر الأدب الشعبى •

أما الفقرتين الأخيرتين من هذا الفصل (ص ص ١٤٨ — ١٥٧) فيتكلمان عن « الرياضة والألعاب » و « الأعياد العامة وضروب اللهو والاحتفالات » • ومن ألعاب التسلية التى عرض لها : الطاولة والضامنة والشطرنج • ووجه العجب فى حديثه أنه يتكلم عن لعبة الشطرنج على أنها لعبة شعبية ، يعشقها الأغنياء والفقراء ، والكل شديد الولع بها • وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يقضيان فى الدور الواحد أياما بأكملها » • وهذه قضية فى حاجة الى تحقيق من مصادر أخرى ، حيث لم

يلفت نظرنا فى أى من المراجع التى نعرفها عن المجتمع المصرى الحديث اشارة مماثلة الى مثل هذا الانتشار الشعبى الواسع للعبة الشطرنج .

كما يقدم المؤلف وصفا دقيقا للعبة شعبية أخرى ، من ألعاب المهارة اسمها المنقلة (ص ص ١٤٩ ــ ١٥٠) . وأشار كذلك الى رياضة ركوب الخيل التى يفضلها العثمانيون وكبار الأتراك (المصريون والمسلمون !) والألعاب التى تمارس أثناء تلك الرياضة .

أما الأعياد العامة فيتحدث فيها عن الأعياد الدينية الممتدة على طول السنة الهجرية . ويفصل الكلام بعد ذلك عن احتفال عيد الخليج (وفاء النيل) فقط . ويتجاهل بقية الأعياد المصرية الموسمية ، كشم النسيم وليلة النقطة .. الخ . ويختم هذه الفقرة بالكلام عن القراقوز (الأراجوز) دون أن يذكره بالاسم ، وألعاب الحواة ، والقرداتية ، وترقيص الثعابين ، واشارة متيسرة الى بعض فرق التمثيل .

وقد جاء حديثه عن فرق التمثيل عاجزا دون ما يبرر لذلك ، علاوة على الانتقادات الحادة التى لا مسوغ لها . ولنقرأ معا بعض سطور من حديثه عن فرق التمثيل ، « ولا بد فى النهاية من كلمة عن الممثلين الهزلين وعن بعض العروض التمثيلية فى مصر ، ونحن لا يخالجنا الشك فى وجود ممثلين حقيقيين فى مصر مع وجود تمثيليات تتبع كافة قواعد التمثيليات . وقد شاهدنا فرقة من الممثلين الهزليين فى القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين . ويدل مظهرهم أنهم لا يصادفون حظهم فى هذه البلاد ، وهم يستخدمون فناء بيتهم لمسرح وثمة ساتر يحجب خلفه ملابسهم . ويذهب لمشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوربيين الذين أقاموا فى مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا أية عروض مسرحية كما تستدعى هذه الفرقة الى بيوت التجار الايطاليين وتقدم عرضها فى حجرة أعدت لهذا الغرض ،

ومع ذلك فلم نجد فى هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ولا أداء الممثلين ، بالاضافة الى أننا لا نعرف من العربية ما يكفى لكى نفهمهم جيدا ، كما أننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء أن يترجم لنا معنى التمثيلية ، فقد كان كل شىء رديئا وعاريا من الذوق كما كان الأداء متكلفا ، وكان الأمر يدور حول امرأة عربية تستدرج المسافرين الى خيمتها لتسرقهم وتسىء معاملتهم ثم تطلق سراحهم ، وعندما كانت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتهيأت لتفعل الشىء نفسه مع آخرين .. عبر أحد التجار ، من النظارة بصوت عال عن القرف الذى يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون أقل رهافة حس منه فقد سارعوا بايقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد الى نصف التمثيلية » (ص ص ١٥٦ — ١٥٧) .

الفصل الرابع :

وتصل رحلتنا مع الانسان المصرى الى نهايتها « الانسان المصرى فى طور الشيخوخة ، الموت والجنازات » ، (ص ص ١٦١ — ١٨٠) . وقد لفت انتباه شابرول احترام الشيخوخة والمكانة الرفيعة التى يحظى بها كبار السن فى المجتمع المصري ، على خلاف المصير الذى يلاقيه كبار السن فى المجتمعات الغربية . وفى هذا الحديث ترك المؤلف العنان لقلمه يغمر العواطف التى جاش بها صدره . والتى سيتناولها بالتفصيل فى موضع لاحق من هذا المقال . (ص ص ، ١٦١ — ١٦٢) . وفى موضع آخر يواصل شابرول حديثه عن تلك المكانة التى يحظى بها كبار السن فيقول : « وفى واقع الأمر فان الأوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة واعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس والذى توليه الأمم الاسلامية لكبار السن ، فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب ، المتوحشون والبرابرة ، يقدمون لنا فى هذا

الخصوص مثالا يجدر بالاحتذاء ، على أجمل الفضـائل فى حين أنها أقل أن تنال اهتمامنا مع أنها تستحق كل اجلال • أما هنا فى مصر فكم يعرفه الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم • (ص ١٦٣) •

أما فى الفقرة الثانية من هذا الفصل عن الجنازات (ص ص ١٦٥ ــ ١٧٢) فنجد مادة قيمة مصنفة تصنيفا جيدا عن عادات الموت ، وليس عن الجنازات فقط لما يدل على ذلك عنوان الفقرة • ومن تلك العـادات والموضوعات المتعلقة بالموت أشاد المؤلف الى العناصر التالية : احتـرام الموت عند المصريين ، والندابات ، وسلوك المحيطين بالميت ، وسرعة الدفن وعملية الغسل ، ووصف الكفن والجنازة ، وصلاة الجنازة ، وعمليـة الدفن ، والقبر ووصفه ، وظاهرة المدافن المسيحية داخل البيوت ومظاهر الحزن عند الأقباط ، وأخيرا قواعد الميراث المعمول بها • وقـد تعرضت علياء شكرى بالتقييم للمادة التى قدمها شـابرول عن عادات الموت فى رسالتها حول عادات الموت (٤) •

ومع أن الفقرة السابقة قد غطت أغلب عادات الموت عامة ، الا أنه خصص فقرات أخرى من هذا الفصل حول نقاط معينة من هذا الموضوع الكبير • فخصص الفقرة الثالثة للكلام تفصيلا عن المقابر (ص ص ١٧٢ ــ ١٧٧) ، والفقرة الرابعة للكلام عن الحداد والندابات (ص ص ١٧٧ ــ ١٨٠) • وفيما يتعلق بتقييم المـادة المقدمة فى هذا الفصل جميعا أحيل الى المرجع السابق ، الذى يقدم صورة شاملة ودقيقة لموقف الدراسة فى هـذا الميدان •

---

(٤) انظر : علياء شكرى ، الثبات والتعبير فى عادات الموت فى مصر منذ العصر المملوكى حتى العصر الحاضر (بالالمانية) •

Aliaa Shoukry, Wandlung und Konservierung des Totenbrauches in Agypten von der Mamlukenzeir bis zur Gegenwart, Bonn, 1968.

الفصل الخامس :

أنهى شابرول رحلته مع الانسان المصرى فى دورة حياته على مدى الفصول الثلاثة السابقة . وبدأ مع الفصل الخامس (ص‌ص١٨٣–٢٤٩) يتناول بالدراسة موضوعات ذات طبيعة عامة لا تخدم موضوعات التراث الشعبى التفصيلية بقـــدر ما تدخل تحت بند القاء الضوء على الملامح العامة للمجتمع المصرى فى أول القرن التاسع عشر . وليس معنى كلامى هذا أن هذا الحديث بعيد الصلة عن موضوعات علم الفولكلور ، ولكنه العكس يقدم مدخلا أساسيا لدراسة التراث الشعبى فى أى مجتمع . وهو لذلك مدخل مشترك لدارس علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والفولكلور وعلم النفس أيضا (فيما يتصل بالأنثروبولوجيا النفســية أو دراسات الثقافة والشخصية) .

وقد كشف شابرول فى هذا الفصل بالذات عن حس اجتمــاعى وفولكلورى فائق وقدير ، بحيث استطاع أن يغـــوص الى كثــير من التفاصيل الهامة ذات الدلالة البعيدة ، ويقدم عددا لايحصى من الملاحظات الذكية . بحيث أنك اذا وجدته يتكلم عن القضاء فى مصر ، فانه يبــرز بأسلوب دافىء يملؤه الحماس واقع العدالة المرير الذى يقاسى منه شعب مصر . وذلك بسبب استبداد الحكم العثمانى والمملوكى بارسال قضــاة لكل ولايات مصر من العثمانيين الذين يحكمون بين الناس ولا يعــرفون حرفا واحدا من العربية ، والابتزاز الذى يمارسه التراجمة الذين يمثلون شق الرحى الثانى الذى يطحن الفلاح البائس ، وأخيرا وليس آخر بيــع الوظائف الذى كان يتم مقابل مبالغ معينة ، ربما عدة مرات . ودلالة ذلك فى أن كل هذه الأرباح الناجمة عن بيع تلك الوظيفة (المفــروض أنهــا جليلة) سوف تستنزف كلها من دماء الفلاح المسكين ـــ وهكذا على طول فقرات هذا الفصل الهام .

وقد قسم شابرول فصله هذا المعنون « النظم والمؤسســـات » الى عشر فقرات على النحو التالى :

الفقرة الأولى عن رجال الشريعة والقضاء • وقــد عالج المؤلف فى هذه الفقرة (ص ص ١٨٣ ــ ١٨٩) خليطا من الموضــوعات المتنوعة ، فتكلم عن القضاة وطبقة الأشراف ، وطبقات العلماء ، وفئة الدراويش • ويختتم هذه الفقرة بملاحظات عابرة عن تقديس الأولياء فى مصر •

ولقد أشرت تفصيلا الى محتويات هذه الفقرة كى أؤكد على أحــد السمات العامة التى تميز مؤلف شــابرول بصفة عامة ، وتعطيــه الطابع الانطباعى المسترسل أكثر منه دراسة أكاديمية ذات تبويب صارم ، وهو أمر لا نتوقعه بالطبع من المؤلف • ولكنه مع ذلك شىء يجب أن نأخــذه فى الاعتبار عند تقديم الكتاب للقارىء العام والمتخصص على السواء •

فاذا طبقنا ذلك على الفقرة التى بين أيدينا لوجدناها أولا لا تقتصر على الكلام عن رجال الشريعة والقضاة فقط ، ولكنهــا تتجاوز ذلك الى موضوعات أخرى كما أشرنا • ليس هذا فحسب ، بل ان المؤلف قد لمس بعض موضوعات هذه الفقرة فى فقرات وفصول أخرى من هذا الكتاب• فالقضــاء خصص له فقرة مستقلة فى هذا الفصل وهى الفقرة الرابعة ، كما سجل عنه بعض الملاحظات فى فصول أخرى من هــذا الكتاب • أما موضوع الأولياء فقد جاءت اشارات عنه فى أماكن أخرى متفرقة وهكذا• وهذه ملاحظة لا تقلل بحال من الأحوال من عظمة العمل الذى بين أيدينا، ولا من قيمة الجهد الذى بذله شخص أجنبى ليس دارســا متخصصا عن حياة وتراث شعب غريب عنه •

وقد اختار شابرول للفقرة الثانية من هذا الفصل عنــوانا غريبا ، اذ سماها « الأعياد الدينية ، المبادىء الرئيسية للعقيدة الاسلامية » • اذ أن الصلة بين الميدانين فى هذا السياق تبدو غريبة ، فهل تتجسد المبادىء الرئيسية للعقيدة الاســلامية فى الأعياد الدينية ، أم العكس ، أم ماذا ؟ على أى حال لا يهمنا أن نتوقف عند قضايا ومشكلات نظرية لم تشغل بال شابرول ، ولعله لم يقصد من ورائها اثبات أى مواقف علمية معينة •

ولكن أهم ما يجب أن يستوقفنا فى هذه الفقرة ، وفى بعض الفقرات الأخرى أيضا ، تلك التحليلات المتسرعة التى تقع فى أخطاء فى فهم الدين الاسلامى ، أو تتصور أوضاعا انسانية عامة مجرد ظواهر مصرية بحتة ينفرد بها المصريون عن سائر شعوب الأرض ، أو عن ســائر الشــعوب الاسلامية لتقديس الأولياء • وسنعود الى تفصيل ملاحظاتنا هذه فى فقرة لاحقة من مقالنا هذا •

أما الفقرة الثالثة والمعنونة « الحكومة » (ص ص ٢٠١ ــ ٢٠٩) فتضم بعض الملاحظات عن الوظائف الحكومية الرئيسية واختصاصتها وكيفية شغلها •• الخ • وفى سياق حديثه عن أمير الحج ، يقدم شابرول تفصيلات كثيرة عن المحمل أو موكب الحجاج الى مكة •

وانى أعتبر الفقرة الرابعة التى عقدها شابرول للكلام عن القضاء فى مصر (ص ص ٢٠٩ ــ ٢١٩) من أخصب وأفيد موضوعات هذا الكتاب على الاطلاق • فمن خلال حــديثه عن طبيعة الأشخاص المؤهلين لشــغل مناصب القضــاء ، وعدد هــذه المناصب ، واختصاصاتها ، وانهاء خدمة القضاة العاملين ، وبيع هــذه الوظائف ، ووظائف مســـاعدى هؤلاء القضاة •• الخ • ذلك أن حديثه هذا يكشف كثيرا من السمات النفسية الاجتماعية لشخصية الفلاح المصرى ، ويمثل خلفية غنية لفهم عديد من

أنواع الأدب الشعبى من فكاهات ، وأغان ، وأمثال شعبية ، وحكايات، ونوادر •• الخ • كما تلقى الضوء على اتجاهات ومواقف الفلاح المصرى من الحكومة وموظفيها ، وثقته المزعزعة فى أن يلقى الانصاف يوما من العدالة وممثليها ، وتأكده من أنه سيكون الخاسر فى كل مواجهة « رسمية » بينه وبين ممثلى النظام الحاكم •• الخ •

ولنأخذ فكرة عن نظام القضاء نقرأ معا السطور التالية من هذه الفقرة : « سبق أن قلنا ان قاضى العسكر يشترى وظيفته من القسطنطينية ويدفع التزامها الى رئيس قضاة الأناضول والى شيخ الاسلام • ولم نستطع أن نستدل على مقدار ما يدفعه للأول ، لكن الثانى كان يتلقى منه ١٠ آلاف مدينى فى العام • ولتعويض كل ذلك كان قاضى العسكر يفرض على ممثليه اتاوة لا تتجاوز فى بعض الأحيان ٩٠٠ مدينى فى الشهر ، ويستطيع هؤلاء القضاة المرؤوسون أن يحصلوا فى مقابل ذلك ثروة طيبة فى وقت قصير • وثمة كثيرون منهم يفصلون فى قضايا كثيرة للغاية ، لكنهم لا يدفعون أكثر مما هو مقرر ، ومن الصحيح أنه لا يسمح لهم بالفصل فى كل هذه القضايا • لكنهم يرفعون رسوم التقاضى الى ٨ — ١٠٪ ، لذا يسهل عليهم على الدوام أن يكونوا ثروات ضخمة فى وقت قصير • » (ص ٢١٥) • وفى الفقرة التالية تتابع معا كذلك نظام القضاء اذ نجده يقول : « واذا تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة إختيار رجال القضاء ، فاننا سنجد فى هذه الوقائع نفسها منبع المساوىء التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة ، وفى الواقع ، فان رجال القضاء الغرباء ، بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا اليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها ، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التى تفرض نزاهة القضاء • كما أن اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التى لها على الدوام تأثير كبير على القلوب لم يكن لها على الاطلاق وجود عندهم ، وحيث أنهم

قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا أمر محكمة ما ، فمن الطبيعى ألا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون فى يدهم سوء أداة للاثراء ، فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى أنفقوها ، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة ، ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض ، غرض تكديس الأموال ، لذلك فانهم لم يدعوا أية فرصة تفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم ، أما أولئك الذين يخفف حب العدل والانسانية عندهم من جموح ذلك التعطش الى المال ، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة ، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين الا الخوف من تدهور سمعتهم ، وفضلا عن ذلك فان العادة التى سادت فى مصر ، عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر ، هى واحدة من تلك المساوىء الشيطانية التى لا يمكن لأية حكومة عاقلة أن تتساهل فيها ، اذ هى نوع من الحث أو الخيانة لا يسمح بقيامها الا البرابرة . » (ص ٢١٧) .

وقد خصص المؤلف الفقرات التالية من هذا الفصل لتناول بعض القضايا والمشكلات ذات الصيغة الدينية ، أى التى اتخذ التشريع الاسلامى منها موقفا معينا ، ولكنها تتميز فى نفس الوقت بحساسية اجتماعية خاصة بسبب ما ترتبه من حقوق وواجبات . فتناول فى الفقرة الخامسة : نظام الملكية (ص ص ٢٢٠ ــ ٢٢٥) ، وفى الفقرة السادسة : نظام الرق والعتق (ص ص ٢٢٦ ــ ٢٣١) ، وفى الفقرة السابعة : نظام الوصاية والتركة .. الخ (ص ص ٢٣١ ــ ٢٣٥) ، وفى الفقرة الثامنة : نظام معاملة الديون والاقتراض بالربا (ص ص ٢٣٥ ــ ٢٣٩) ، وفى الفقرة التاسعة : الزنا والاغتصاب (ص ص ٢٣٩ ــ ٢٤١) ، وفى الفقرة العاشرة والأخيرة : السرقة والقتل والقصاص (ص ص ٢٤٢ ــ ٢٤٩) .

وواضح من استعراضنا لتلك العناوين أن موضوعات كثير من تلك الفقرات تقدم مادة مفيدة لفهم الملامح العامة للمجتمع المصرى فى ذلك

الوقت • وسوف نمسك عن مناقشة كل موضوع منها مناقشة مفصلة : أولا لأنه يشير الى رأى الدين فى كل قضية يعرضها (وهذا أمر معروف لنا ، أو يمكن أن يكون معروفا من مصادره الصحيحة) ، ثم هو يشير الى الممارسة الفعلية له فى المجتمع أى يحاول أن يلقى الضوء على حجم المشكلة من خلال بعض الملاحظات والانطباعات والحوادث التى يرويها• ومن الواضح أن مناقشتها جميعا سوف يخرج بمقالنا هذا عن موضوعه ، كما أنه سيزيد حجمه بشكل غير عملى •

الفصل السادس :

يعالج المؤلف فى هذا الفصل « التجارة والصناعة والزراعة » ، ص ص ٢٥٣ ــ ٢٩٤ ، فى أربع فقرات ، تناول فى أولاها لمحة تاريخية عن تجارة مصر منذ العصور القديمة وحتى اليوم • ولم يكتف فى هذا باستعراض بعض الحقائق التاريخية ، ولكنه ذيل هذه الفقرة بمعلومات وبيانات احصائية ووصفية دقيقة ومفصلة وذلك على حد تعبيره « لكى نعطى للقارىء فكرة موضوعية عن تجارة مصر ، نضع تحت يده جداول مختلفة نوضح فيها بالتفصيل كل موارد الاستيراد والتصدير التى تغذى هذه التجارة ، وتعود هذه الأرقام الى عام ١٧٧٥ » • (ص ٢٦٠) •

فقدم بعد هذا جدولا « بتفاصيل البضائع المستوردة من لندن ومارسيليا وليفورنيو والبندقية وتريستا والقسطنطينية وأزمير ومدن تركية أخرى الى القاهرة للاستهلاك السنوى بمصر عام ١٧٧٥ » (ص ص ٢٦١ ــ ٢٦٦) • وكان يقدم بجانب اسم كل نوع من أنواع البضائع المستوردة وحدة الوزن ، والكمية السنوية ، ونوع النقود المدفوعة فيها ، وسعرها ووزنها ومقياسها حسب الأحوال •

ثم قدم بعد هذا بيانا بمجوهرات القسطنطينية : أنواعها وأسعارها، وبيانا بموازين البضائع المختلفة بشكل عام فى القاهرة ، والنقودالمستخدمة فى عمليات الشراء ، وبيانا بقيمة العملات الأجنبية التى تصل القاهرة عن طريق التجارة . ثم يلى ذلك بيان بالبضائع التى تصدرها مصر يحوى نفس البيانات السابقة (ص ص ٢٧١ ـــ ٢٧٢) .

أما الفقرة الثانية عن الصناعة فيوضح فيها العوامل الاجتماعية (الاقتصادية والسياسية وغير ذلك) وراء تخلف الصناعة فى مصر . ثم استعرض شهرة المدن والمناطق المختلفة ببعض الصناعات التقليدية : كالمنسوجات المصنوعة من القطن والكتان والحرير ، والفخار ، وصناعة الجبس ، ومطاحن القمح ، وصناعة البيطرة ، وصناعة الجلود ، والصباغة ... الخ .

أما الفقرة الثالثة عن الزراعة والفلاحين فيشير فيها الى تدهور حال الزراعة المصرية بعد عصور الازدهار الطويلة التى عرفتها ، كما يشير الى بؤس الفلاح المصرى . ويتناول بالملاحظة بعض ملامح حياته وثقافته.

ويقدم المؤلف فى الفقرة الرابعة « عن الحرف » (ص ص ٢٨٨ ـــ ٢٩٤) بعض الملاحظات المفيدة عن حال العمال الحرفيين سوف نشير الى أبرزها فى الفقرة الخاصة بالتحليل الاجتماعى عند شابرول فى مقالنا هذا .



رابعا ــ شابرول والدين الاسلامى

اتخذ شابرول موقفا سلبيا من الدين الاسلامى انطوى على تصديق كثير من المغـالطات والأكاذيب التى كانت شـائعة فى أيامه عن الدين الاسلامى . وهى أخطاء كانت راجعة الى قصور فى فهم الدين الاسلامى ومعرفة تاريخه وحضارته واسهامه الانسانى فى التراث العـالمى . وقد صحح الفكر الأوربى والغربى عموما هذا الموقف السلبى فى كثـير من جوانبه من خلال اطلاعه الأوسع على حقائق الدين الاسلامى والتعـرف على ذخائره الانسانية ومثله العليا .

وهكذا كان شابرول ابن عصره فيما كتبه من كلام خاطىء عن الدين الاسلامى ، حيث نجد فى فقرة من بين فقرات أخرى ملخصا لموقفه السيىء من الاسلام ونظرته الى الدين الاسلامى كمذهب ابتدعه محمـد ، ليس هدفه تحقيق الخير للمسلمين على مدى الأجيال ، وانمـا التمكين لملكه ، والضحك على ذقون أتباعه ، كأنما كان يريد أن يخلق ملكيـة وراثية فى أولاده . فيقول فى هذا الموضع : « ويمكن القـول كذلك بأن المشرع العربى قد حسب مدى وسرعة ونجاح انتشار مذهبه السـياسى والدينى الجديد وذلك بقياسه لعقـول وأذواق مواطنيـه فتجنب تلك المعـركة ــ الخطرة على الدوام ــ التى يدخلها المجددون ضد ــعواطف وأهواء أولئك الذين يريدون اصلاحهم ، لذا فقد أعلى من شأن أتباعه فى نظـر أنفسهم بفعل ديانة أسسها بشكل ماهر واستطاع أن يتوصـل الى أن يبرهن على عظمتها لأناس جهلاء سذج ، فلقد احترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسامحا مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء أن يقدم مكافأة لأولئك الذين يتمثلون مبادئه السهلة ، تملق عواطفهم الجمـوح حين

بوعدهم بأنهم سيكونون خير أمم الأرض . وعندما رأى نفسه واثقا من أن مذهبه يتدعم بشرهم بمباهج سماوية مثالية . ولقد توج النجاح آماله، وحصل محمد على نفس النجاح الذى حازه ليكورج دون أن يؤسس أنظمته الفكرية على قوة من الأخلاق أو على انارة السبيل أمام أمته ، ولسوف تظل عقيدته هذه فى أوج فعاليتها فى الشرق طالما ظلت شعوب هذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة . وفضلا عن ذلك فانه ليبدو أن طبيعة عقلية الشرقيين تؤمن لمثل هذه العقيدة طول البقاء » . (أنظر الكتاب ص ١٠٧) .

أما اذا أمعنا النظر فى الناحية الفولكلورية فنجد أن تلك النظرة العامة ستقوده حتما الى بعض الأحكام والتصورات الخاطئة . حيث يرى فى موضع على صفحة ١٩٠ من الكتاب أن الأعياد الدينية التى قررها محمد لا تشبه فى شيء أعياد المسيحيين . وواضح أن تلك النظرة تنطوى على قصور فى فهم طبيعة الأعياد الشعبية (وعلى رأسها الأعياد الدينية). لأن تلك الأعياد هى نتاج ثقافة معينة ، ولا يصح أن تقارن جزئيةمن ثقافة معينة بجزئية من ثقافة مغايرة لها . فمن قال ان الأعياد الاسلامية ينبغى أن تشبه الأعياد المسيحية ، ومن توقع هذا ؟ تلك أخطاء فى الفهم يمكن التجاوز عنها اذا ما راعينا تطور العلوم الاجتماعية (والأنثروبولوجية الثقافية بالذات) على عهد المؤلف .

ومن ذلك أيضا تصور خاطىء راجع الى نفس السبب وهو اعتقاده أن تقديس الأولياء عادة خاصة بالمصريين لا تشاركها فيه بقية الشعوب الاسلامية (أنظر صفحة ١٩١ من الكتاب) فذلك قصور راجع الى قلة احاطته بالثقافة الشعبية لبقية الشعوب الاسلامية ، ونقص فى الاطلاع على التراث الثقافى على المستوى العالمى . وهذه كلها أمور واضحة فى ظل

تطور العلوم الانسانية على عهده . وقــد تكفــل البحث الفولكلورى، (والأنثروبولوجى عموما) بتصحيحها والقاء الضوء عليها (ه) .

(ه) انظر على سبيل المثال :

- Richard Kriss und Kriss-Heinrich, Volksglaube im Bereich des Islam, 2 Vols., 1960, 1962.
- Horten, M., Die religiose Gedankenwelt des Volkes im heutigen Islam. 2 Bde, 1917, 1918.
- Winkler, H., Agyptische Volkskande, Stuttgart, 1936.
- Mac Pherson, the Moulids of Egypt, Cairo, 1925.

خامسا ـ شابرول والمصريون

اتخــذ شابرول فى معظم أجزاء الكتاب موقفا منصفا من المصريين كشعب ، بحيث لم يكن يتوانى عن الاعتراف بتفوقهم على الأوربيين اذا ما كان ذلك صحيحا فعلا . من هذا مثلا حديثه (عــلى صفحة ٢٧٧ من الكتاب) فى سياق كلامه عن حرفة صناعة الجبس ، « اننا فى بلاد نصف بربرية كهذه ، كنا نتوقع أن يكون الناس فى هذا المجال شــأنهم فى ذلك مثل شأنهم فى بقية المجالات أكثر تخلفا وأقل حذقا فى الوســـائل التى يستخدمونها لسحق هذا المعدن عما نحن عليه . فالانسان عندنا فى أوربا هو الذى يتحمل عبء هذا العمل الشاق ، برغم أنه من المؤكد أن سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به . لكن المصريين اســتطاعوا تفادى هذا الخطر . اذ يقومون بسحق المحروق بواسطة طاحونة يحركها حصان . وهذه الأداة بالغة البساطة لكنها فعالة ، وهى مخروطية الشكل ذات ثقل هائل » .

والحقيقة أن المؤلف لم يدخر وسعا فى التماس مواطن القـــوة فى الثقافة المصرية . من هذا مثلا الاهتمام الذى أبرزه لاحتــــرام المصريين الشيخوخة وكيف أنه يعد نموذجا يجب أن تحتذيه الأمم المتحضرة التى تتنكر لكبـــار السن فيها . وفى هذا يقول شابرول : ــ « ان الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الانسان وسط عائلته فترة أقل، لا تلقى من الاحترام نفس ما تلقاه فى مصر ، بل انها تكاد تكون فى معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغى على الملتحى ذى الشـــعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفــل حتى يمكن تحمله فى داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الانسان عندنا بأن ســنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج حياته تتضاءل ، حتى يرى نفسه

وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون بوجودهم له • وعندما يصبح فى حاجة الى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه القلوب ، عندئذ تزحف الى جسمه برودة قاتلة وترتجف من برودة الوحدة روحه دون أن يجد من حب زوجته وحنانها ما يبعث الدفء اليه ، فى مثل هذه الأمم يموت العجوز ــ وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا ــ قبل وقت طويل من نزوله الى ظلمات القبر • فلنخلع اذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ، فتلك المشاهد المؤثرة التى كنت أراها كل يوم فى هذا البلد (مصر) قد اضطرتنى أن أقدم لكم هذا النقيض المقابل ، فهنا (فى مصر) ، يبتسم العجوز الذى تلامس لحيته صدره وهو يلقى الاحترام ، يبتسم ــ برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة ــ لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع اليه لتقدم اليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون • فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره • وفى واقع الأمر فان الأوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة واعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس والذى توليه الأمم الاسلامية لكبار السن ، فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون والبرابرة ، يقدمون لنا فى هذا الخصوص مثالا يجدر بالاحتذاء ، على أجمل الفضائل فى حين أنها قل أن تنال اهتمامنا مع أنها تستحق كل اجلال • أما هنا فى مصر فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم » • (أنظر الكتاب ص ١٦٢/١٦٣) •

ومن الواضح أن التقدير الذى يخلعه المؤلف على المصريين فى هذا الحديث لا يشمل أبناء هذا الشعب وحدهم ، ولكنه ينسحب على الشعوب العربية والاسلامية جميعا •

كذلك أشاد شابرول بجانب نبيل فى المصريين (احترامهم للبيت) الذى يتجلى فى عنايتهم غير العادية بأماكن الدفن عموما ، والمقابر بصفة خاصة (أنظر الكتاب صفحتى ١٧٢ — ١٧٣) •

وعلى الرغم من أنه قد انتقد نظام الرمد فى مصر انتقادا عنيفا ، الا أنه يراه خفيف الوطأة بالقياس الى نظام الرمد فى أمريكا • وهذا دليل جديد على موضوعية المؤلف ورؤيته للجوانب الايجابية فى كل موضوع حسب قدرته • (أنظر الكتاب صفحة ٢٣٦) •

ونراه علاوة على هذا يشيد بأخلاق البدو رغم كل ما يقال عنهم فى أيامه ، وفى الكتب المتواترة فى عهده • ونجد فى ثنايا حديثه عن النظم الاجتماعية والثقافية عن البدو دعوة للاوربيين الى تصحيح نظريتهم الى هؤلاء الناس ، فيقول « ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا هنا فى أوربا سوف نكون مجحفين تجاه العرب لو أننا نظرنا اليهم كأناس همج ليس لديهم شفقة ولا رحمة ، فلقد ترددنا عليهم كثيرا وكنا شهودا على مودتهم وفطرتهم البسيطة وفضائلهم الرعوية ، واذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع أن نعمم هذا اللوم دون أن نحكم على أنفسنا بالجور وعدم الانصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نتناولها بالحديث هنا ليست بأقل جدارة بأن تتخذ نموذجا يحتذى وتقاليد أية أمة متحضرة » • (الكتاب صفحة ١٣١) •

ومن مزايا هذا الكتاب الهامة أنه رغم تحامله أحيانا على المصريين ، فانك تحس أنه تحامل من منطلق الحب والتقدير • ذلك أنه يؤكد فى عشرات المواضع على طول الكتاب أن هذا الشعب يمكن اذا وجد من يأخذ بيده (وهو فى رأيه من خلال الحضارة الأوربية) فسوف يبلغ شأنا

عظيما ، ويعود الى حظيرة الحضارة ــ على حد قوله ــ لأن معدنه ثمين.
ونضرب المثال على ذلك بالقطعة التالية : ــ « ذات يوم قام أحد الدلالين الأتراك لنا بعملية تجارية عادت عليه بربح قدره ٨٠ فرنكا . وبعــد فترة من الوقت ذهبنا لنحدثه فى أمر صـــفقة أخرى لا تقل عن الأولى عطاء بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى يدخن أرجيلته بعظمة ، وبصـعوبة شديدة أصاخ السمع للعروض التى قدمت له ، ولأننـا ألححنا فى الطلب فقد رد : لست أحتاج لشيء ، اذهبوا الى فلان فهو بائس فقير وسـيفعل لكم ما تطلبونه منه ومثلى تماما .. لقد ذكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لكى نقدم مثالا على ذلك التناقض الذى يسيطر دائما والذى يقــوم بين الطباع وبين السلوك . ومع ذلك فليس ثمة ما هو أكثر كرما ولا أكثــر عظمة من ذلك بل ولا أكثر حكمة مما يتضح فى هذا السلوك . ألست على حق اذن حين آمل بأنه سيكون فى الامكان أن ندخل عند أمثـال هؤلاء القوم أفكارا أكثر عدالة اذا ما أشعت عليهم أضواء الحضارة الأوربية . ولست آمل على الاطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لا جـدال فى صحتها » . (الكتاب ص ١٢١) .



سادسا ـ الدين والتراث الشعبى

سوف أتعرض فى هـــذه الفقرة لبعض مظاهر الخلط الواردة فى الكتاب بين سلوك الشعب وموقف الدين • فنجده أحيانا يعتقد ـ خطأ ـ أن هذا السلوك الشعبى منصوص عليه فى الدين ، وفى أحيـــان أخرى يستعين بايضاح موقف الدين الاسلامى من العادات والمعتقـــدات التى يتناولها • وليس لديه وضوح كاف غالبا عن الحدود بين الممارسة الشعبية والمعتقد الدينى • الى أن تأتى بعض المواضع التى تختلف فيها الممارسة عن موقف الدين ، كمسألة عدم توريث البنات ، فيعتبرها هى القـــانون السائد أو القائم ، ومن ثم يصفه بأنه قانون جائر • فيظلم بذلك الشريعة فى نقطة هى منها بريئة كل البراءة • (أنظر فى ١٧١ من الكتاب) •

ومن مظاهر الخلط الأخرى بين السلوك الشعبى اليـومى وموقف الدين ذلك التصور الخاطىء الذى نجده عند شابرول حيث يعتقـد أن هذا السلوك الشعبى منصوص عليه فى الدين • من هذا مثـــلا حديثه (أنظر ص ١٩١ من الكتاب) عن المتناقضات التى يفعلها الناس فى رمضان من صيام وتعبد ولهو وفسق • فيقول : « ومع ذلك فشهر رمضـــان هو أهم الأوقات التى ينغمس فيهـــا المصريون فى المسرات ومختلف ضروب اللهو • فهو فى مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات • وقد يبـــدو من الغريب أن يختاروا مثل هذا الوقت للقيام بممارسات متناقضة : التـــوبة وتطهير النفس من ناحية ، والملذات من الناحية الأخـــرى • ولكن فلعل المشرع قد أراد بذلك أن يخفف من وطأة تلك التوبة المهلكة فعمل عـــلى أن تصحبها أوقات تخصص للمسرات • اذ يستطيع الناس بشكل أفضل أن يتحملوا من ضروب الحرمان تلك التى تعقبها المسرات والملذات » •

فنحن هنا ــ ولكي نكون واضحين ومنصفين ــ لا نعيب عليه سوء فهمه للدين أو تجنيه على المشرع ، فهذه كلها أمور حسمناها وانتهينا الى موقف واضح فيها منصف له وللدين • ولكن المشكلة التي تهمنا هنا مشكلة منهجية بالدرجة الأولى ، تلك هي الخلط بين ما هو شائع من عادات ومعتقدات وموقف الدين الاسلامي • فليس كل شائع موضع اقرار الدين وقبوله • وليس كل أمر يقرره الدين يستطيع أن يشيع بين الناس ويصبح جزءا من تراثهم •

ولعل هذه النقطة تدعونا الى القاء مزيد من الضوء على العلاقة بين الدين والتراث الشعبي • فنجد أنفسنا مضطرين الى تصنيف تلك العلاقة تصنيفا فينومينولوجيا ، يشتمل على الأنواع التالية : ــ

١ ــ علاقة التطابق ، أن تكون الممارسة الشعبية تطبيقا دقيقا ، أو قريبا قدر الامكان من الأصل ، للقاعدة الدينية المقررة في هذا الصدد • ويحدث هذا اذا كانت القاعدة الدينية في أصلها تقر أمرا واقعا كان له وجوده بين الشعب ، ومن ثم فان الاقتراب أو التعديل لم يحدث من جانب الممارسات الشعبية ، وانما لأن الصياغة الدينية جاءت اقرارا للصور التقليدية لهذه العادة • واما لأن القاعدة الدينية تقرر أمرا له خطورته على مستقبل الانسان ، مما يدخل في نطاق مجهول ، بحيث تجد الممارسة الشعبية نفسها ملزمة الزاما بقبول القاعدة الدينية والالتزام بحذافيرها بكل دقة وأمانة ، خوفا من العواقب التي لا يمكن التكهن بها • وهو ما يعرف على سبيل المثال في تطبيق القواعد الدينية (سواء نصوص قرآنية أو أحاديث أو تراث ديني للسلف) في مجال عادات الموت والدين •• الخ •

٢ ــ علاقة تعارض كامل ، وذلك أن يقر الدين سلوكا معينا فى مجال من مجالات الحياة ، الا أن الممارسة الشعبية لا تبدى مع ذلك أى قــدر من الامتثال للتعاليم الدينية ، فيكون الدين فى واد وســلوك الشعب أو قطاع منه فى هذه النقطة فى واد آخر ، ولن نحاول هنا أن نتعقب أسباب ذلك لكى لا نخرج عن موضوعنا الأساسى . فبعض ســلوك الدراويش (المتصوفة .. الخ) ، وبعض مظاهر تقديس الأوليـــاء ، وبعض أنواع الممارسات السحرية ، وبعض طقوس الاخصاب ، وبعض بقايا تقــديس الأشجار والحجارة .. الخ . كل ذلك مما يدخل فى تعارض أســاسى مع العقيدة الدينية ، ولكنه يحظى بانتشار يقل أو يكثر بين بعض القطــاعات الشــعبية .

٣ ــ علاقة انسجام فى الخط الأساسى واختلاف فى بعض التفاصيل الخطيرة ، مما يوحى بتوصل الشعب الى حل وسط للتوفيق بين احتياجاته ومتطلباته وتراثه وبين المثـــل الدينى الأعلى . من ذلك بعض أحــكام المواريث التى تعد قانونا دينيا ملزما محدد التفاصيل ، ومع ذلك نجد فى الممارسة الشعبية تعديات صارخة عليه ، مثل عــدم توريث البنـــات . ونماذج أخرى من ميدان الزواج .. الخ .

فالدين فى كثير من الحالات وظيفته تقديم المثل الأعلى للحضــارة التى يزدهر ويعيش فيها ، وقد ينجح هذا المثل الأعلى فى تشكيل السلوك اليومى كما رأينا ــ وهى حالات قليلة ــ وقد يســتطيع تحقيــق حلول وسطى ، وقد يتعذر عليه تماما النفاذ الى قلوب النـــاس ، وذلك حينما يتخذون موقفا مناوئا كلية للتعاليم الدينية ، ليس صادرا بالطبع عن عناد أو عداء ، بقدر ما هو صادر عن تجاهل للقاعدة الدينية فى هذا الموقف ، لأن رواسب التراث فى نفوس أفراده تضرب بجذور أعمق من رأى الدين وتعـــاليمه .

سابعا ــ التحليل الاجتماعى عند شابرول

من الواضح أن دى شابرول لم يقتصر على مجرد وصف ما كان يقع تحت بصره أو يلفت نظره من عادات وتقاليد الشعب المصرى . والمعروف لنا من كتابات العديد من الرحالة أو الزوار الأجانب (سواء كانوا ضباطا فى حملات حربية ، أو تجار أو رجال دين .. الخ) أن جهدهم كان يتركز بالدرجة الأولى على وصف ما يلاحظونه من عناصر التراث الشعبى للبلد الذى يكتبون عنه . ومن الطبيعى أن تتفاوت جودة الوصف الذى يقدمونه ودقته تبعا لقدرة كل كاتب على الوصف والملاحظة من ناحية ثم على التعبير والشرح من ناحية أخرى . ونادرا ما كان أولئك المؤلفون يضيفون نوعا من التحليل الى المادة التى يقدمونها ، وتظل تلك المادة أقرب الى المادة الخام التى تنتظر قلم الباحث العلمى المنهجى ليحللها ويربط بين أجزائها ويستخرج منها اتجاهات أو قواعد عامة ، ويرتب عليها النتائج .. الخ .

والمعروف اليوم أن منهج التحليل الفولكلورى يتشعب الى شعب أربعة أو يعرف أربع اتجاهات رئيسية فى الدراسة هى على وجه الاجمال : الاتجاه الجغرافى ، والاتجاه التاريخى ، والاتجاه السوسيولوجى ، والسيكولوجى . ويساعد كل من هذه الاتجاهات ــ من ناحية معينة ــ على خدمة الهدف المشترك بينها جميعا ، ألا وهو تفسير العلاقات القائمة بين الشعب والثقافة الشعبية . ولا يمكننا أن نكتفى بالاعتماد على واحد فقط من هذه السبل المنهجية الأربعة . ومن ثم يمكننا القول فى الواقع أنها تكون مجتمعة « المنهج الفولكلورى » أو «منهج الدراسة الفولكلورية » بمفهومه المعاصر . ولكننا نلاحظ هنا أن المنهجين التاريخى والجغرافى يركزان ــ فى المقام الأول ــ على الثقافة الشعبية نفسها . بينما

تتجه أنظار المنهجين الآخرين ــ وأعنى السوسيولوجى والسيكولوجى ـ مباشرة الى حاملى هذه الثقافة الشعبية(٦) .

وقد قدم شابرول فى هذا الصدد بعض الاجتهادات المفيدة لعرض المادة التى يراها فى اطارها الاجتماعى الكبير . أى أنه كان أحيانا يلتمس تفسير الظواهر التى يراها فى واقع الظروف الاجتماعية للمجتمع الكبير . ولا يتسرع بتفسيرها تفسيرا ظاهريا مبتسرا . فاذا تأكد مثلا من تخلف الفنون والحرف الصناعية فى المجتمع كله فى تلك الفترة ، فانه لا يكيل للمصريين التهم بالتخلف والجمود وما الى ذلك . ولعل من العوامل التى ساعدته على النجاة من الوقوع فى مثل هذه الأخطاء ذلك الحس التاريخى الذى توفر لديه عن الواقع المصرى . فهو يعرف تمام المعرفة أنه بصدد حضارة تضرب بجذورها الى آلاف مضت من السنين . وهى فى ماضيها الطويل هذا كانت قادرة على تقديم مستوى رفيع من الابداع الفنى والصناعى ، وتشهد بذلك الاتقان آثار الحضارات الغابرة التى يراها بعينيه .

اذن ما السبب فى ظاهرة خطيرة كهذه . انه يرجعها الى المناخ السياسى العام الذى يسيطر على المجتمع المصرى فى ذلك الوقت ومنذ حكم المماليك . ثم الى انعكاسات هذا الواقع السياسى المرير على الحياة الاجتماعية وعلى طموح الفرد وأمنه فى يومه واستقراره فى محل عمله . ويصيغ شابرول ملاحظاته تلك فى عبارات رشيقة آخاذة ، زاد من جمالها روعة الأسلوب الذى ترجمها به . يقول شابرول ، ــ « لا يمكن للملكات شعب من الشعوب ــ ذهنية كانت أم روحية ــ أن تنمو ، وأن يجنى هو

---

(٦) استعراض محمد الجوهرى هذه المناهج الأربعة تفصيلا فى : علم الفولكلور ، مرجع سابق ، الباب الثالث ، ص ص ١٧١ ــ ٣٥٢ .

بالتالى ثمرات ذلك ، الا فى ظل أنظمة ترعاها • وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة ، والا فانها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن ، وهكذا ، فان الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تشى بحضارة لا تزال فى طور الطفولة ، أو تشى بالأخرى بتقاعس العمال وأصحاب الأعمال ، فليس ثمة شىء دقيق ، أو معتنى به يخرج من المصانع المصرية اذا ما استثنينا التطريز ، فالمنسوجات القطنية والصوفية وبقية الأشياء ذات الاستعمال الطويل • تظهر بشكل خشن وغير رقيق ، لحد سوف يذهلنا اذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى أنتجها ، فلقد ظل المصريون المحدثون ــ برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار ــ متخلفين ، لأن سطوة الطغيان قد حصرت عقولهم ، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير ، وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة ، بل اننا نرى للأسف الشديد ، فى كل مكان من الشرق ، نفس التدهور ونفس الجمود ، ونفس النتائج » • (أنظر الكتاب ص ٢٧٥) •

ومن الطبيعى أن نلمس فى حديثه عن الفلاح المصرى ذلك الحرص الواضح على تفسير السمات البارزة لحياته والظواهر الأساسية فى واقعه اليومى • فهو يلاحظ ظاهرة تاريخية عميقة الجذور لفتت أنظار الرحالة والمؤرخين والكتاب على اختلافهم ، تلك هى الحقيقة التى يتسم به سلوك الفلاح المصرى • ويحاول أن يتعمق تلك الظاهرة الخارجية ويرجعها الى عواملها الحقيقية ، فيقول : « والفلاح المصرى هو أكثر الناس حياء ، وطبيعته الخوافة هى بلا جدال نتيجة طبيعية لحالة القهر التى حصره فى داخلها سيدان لا سبيل الى قهرهما ، اذ أن متاعبه من ملاحقة البكوات والضباط لا تنتهى الا لتبدأ مع العربان ، وعندما يحصل هؤلاء على

كفـايتهم ، يتعرض الفـلاح لانتهابات وابتزازات جـديدة من جانب البكوات والكشاف ، تأتى لتسلية ما قد يكون قد تبقى له . وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا أى دعم أو سند ، فريسة لنزوات كل هؤلاء النـاس من راكبى الخيل ، والمسلحين على الدوام بسلاح الحـرب ولو كانوا فى نزهة صغيرة . ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الأبقار والخراف ومكاييل الحبوب التى يجنيها ، ثم يذهب ليعول ويئن من وطأة الجوع مع زوجتـه وأولاده » . (أنظر الكتاب صفحة ٢٨٥) .

ولا شك أن ذلك الواقع الذى كان يعيشه الفلاح المصرى فى ذلك الوقت يدفعه بطبيعة الحال الى الظهور بمظهر الفقير الذليـل الضعيف . وقد لا يكون ذلك المظهر هو التعبير الحقيقى عن حاله فى كل الأحوال ، ولكنه وسيلة لدرء خطر المستغلين عنه . وفى هـذا يقـول شابرول : ــ « وهكذا فسوف نقع فى خطأ بين اذا ما حكمنا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا الى مظهره الخارجى ، فهو لا يلجأ لهذا التسـول المظهرى الا ليخدع مضطهديه ، فمن المهم بالنسبة له أن يظنه النـاس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش ، ذلك أنه يرتجف على الدوام خوفا من أن يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذى يملكه ، لهذا فانه يشهد العالم كله على فقره وعوزه ، ويرتدى من الملابس ما ينسجم مع الانطبـاع الذى يريد أن يحدثه فى مشاهده ، فهو داخل قميصه هذا عار كما ولدته أمه ، ويقبـل بنهم على أى طعام يقدم له ، ويجمع قطع المدينى التى يحصل عليها بعناية فائقة فى طرف منديله ، ويقاسى الأمرين حتى لا ينفق قطعة واحـدة من نقوده الا عند الضرورة الملحة ، وباختصار فانه لا يفـوته شىء مطلقـا يمكن أن يساهم فى اقناع الناس ببؤسه الشديد » . (أنظـر الكتـاب صفحة ٢٨٧) .

ومن هذا يبدو جليا أن المؤلف لا يقتصر على تسجيل الظواهر التى تبدو له على السطح ، ولكنه يجتهد فى تعمق الأسباب والعوامل الفعالة المؤثرة تحت هذا السطح .

وفيما عدا هذا قدم شابرول تحليلات رائعة لواقع حياة العمال الحرفيين . حيث نطالع عنده وصفا دقيقا لعمال اليومية وهو فى صدر حديثه عن الحرفيين فى القاهرة . والملاحظ أنه لم يطلق القول عن العمال الحرفيين ، لأن فى ذلك مجافاة لواقع الحال . ولكنه حرص على أن يخصص كلامه عن التقسيمات الداخلية داخل هذه الكتلة الكبيرة من العمال ، مقسما اياها الى ثلاثة فئات حسب مستوى المهارة الفنية (ومن ثم المستوى الحرفى داخل العمل) ، والمستوى الاقتصادى ، وأسلوب المعيشة . فيقول : ــ « وفى الفصل الأول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ ألفا فى مدينة القاهرة . ويمكن تقسيم هذه الكتلة والناس الى ثلاث طبقات : الأولى : وهى أكثرهم بؤسا وتضم ١٠ آلاف شخص ، وهؤلاء يستخدمون فى أعمال ثانوية ولا يحصلون الا على أجر بالغ التواضع يفى بالكاد لمعيشتهم ، وهم يرتدون قميصا بسيطا أزرق اللون، من الصوف ويحزم بحبل عند وسط الجسم وتغطى رؤوسهم بلبدة بيضاء ، أما مسكنهم فعبارة عن كوخ يكلفهم ايجاره الشهرى ١٠ بارات، وكل أثاثهم عبارة عن مزقة من الحصير ينامون عليها مع زوجاتهم وأولادهم ويمكن للعامل من هذه الطبقة أن يكسب حوالى ١٥ بارة فى اليوم وتشتغل زوجته (اذ ليست له الا زوجة واحدة) بأعمال أخرى أقل كسبا ، تدر عليها على الأكثر ٤ ــ ٥ بارات ، ولا يأكل هؤلاء البؤساء اللحم على الاطلاق ، وهم يشترون الخبز وشيئا من الحبوب المطبوخة والبيض . وينفق الرجل بعض نقوده فى المقهى ويدخن تبغا بالغ الرداءة ، ويخدر نفسه بأكل القنب الأخضر المعد ، فقد أصبح الحذر بالنسبة له

شبه ضرورى • وترتدى المرأة كذلك قميصـــا أزرق اللون ، ويســير الأطفال عراة أو تغطيهم بعض الهلاهيل • وتضم الطبقــة الثانية حــوالى ٣ آلاف عامل يوميـــة ، ظروفهم ليست أقل من ظــروف الأولين مدعاة للشكوى ، برغم أنهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس • « وأجرهم ليس أكبر من أجر الأولين مع أنهم يعتبرون نوعا من وكلاء الأعمــال ، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصل عليها الأولون • ومسكنهم أكثر راحة وأحســن تأثيثا ، ويتــكون رداؤهم الطــويل من قميصين أو ثلاثة يرتدونها فى بعض الأحيان فوق القميص • وبخلاف ذلك فان طريقتهم فى الحياة هى نفس طريقة الأولين • ويمكننــا أن نضــع فى صفوف الطبقة الثالثة ٢٫٠٠٠ من العمال ، وهم فى حالة أكثــر يسرا من الأولين بقليل ، ويعمل هؤلاء كرؤساء ورش ، ويسكنون فى مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدى الى مساكنهم ، وهذه المبانى تشــبه الأديرة ، ويقطن كل عامل فى حجرة ، ويعد طعامه فى مسكنه ، وزوجته هى التى تقوم بهذا العمل ، ويدفع ٣٠ مدينى كايجار شهرى ، ويمتلك حصيرة وخشــنة من ألياف الكتان ، وبعض المخدات التى لها غطاء ردىء ، بالاضافة الى اناء للطبخ أو اناءين ، مع آنية أخرى رخيصة الثمن • لكن ما يميزهم عــلى وجه الخصوص أنهم يرتدون ملابس أكثر وأفخم : شـــال من الموسلين أو الصوف حول طربوش ليشكل عمامة ، وملابسهم الداخلية من التيل • ويمتلك الواحد منهم دفية زيادة عــلى الجلبــاب الطويل ، وهذه الدفية عبارة عن معطف من الصوف الأسود ، كما يرتدى ملاية وهى قطعة طويلة من قماش قطنى بها مربعات بيضاء وزرقاء ، وكل هذه الأشياء التى يعنى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العامل من ٩ ـــ ٢٠ بطاقة (خردة) • ومع ذلك فأجر هؤلاء العمال ليس أكبر بكثير من أجــر الأولين ، لـــكن ما يجعلهم يعيشون فى بحبوحة أكثر ، هــو أنهم يعملون طيلة العـــام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية • وترتدى زوجاتهم قميصا أسود للزينة

وقميصين أو ثلاثة لبقية الأيام • وهن يعملون فى غزل ونسج القطن ويعود عليهن هذا العمل بأجر متواضع » (أنظر الكتاب صفحات ٢٨٩ــ٢٩١) •

ولعل القارىء يلاحظ بكل وضوح الدقة الفائقة التى يتحلى بها المؤلف ، والحس الاجتماعى المرهف الذى يمس به موضوعه • فهو يتكلم عن مستواه الفنى داخل الحرفة • كما يعرض لملبسه ، ومسكنه ، وغذائه، لهوه ، ولكنه مع كل هذه التفاصيل الدقيقة الحية ، التى جاءت رغم ايجازها قوية التعبير عن حال أولئك الناس ، أقول مع كل هذا لم ينس الكلام عن زوجته وأولاده ، وعن عملهم وزيهم هم أيضا •• الخ • ولهذا أشرت من قبل الى أن دى شابرول قد بلغ حدا يدعو الى الاعجاب فى تحليلاته الاجتماعية للمادة التى لاحظها وقام بتدوينها • ونحن لا ننكر عليه تحيزه الاجتماعى الواضح • ولكنه تحيز محمود : ضد المماليك والعثمانيين على طول الخط ، ومع الفلاحين والعمال المهضومين على طول الخط •

كذلك قدم لنا شابرول ملاحظات عميقة وأوصافا دقيقة لأحوال القضاء فى مصر على أيامه ، والفقرة التالية على اختصارها تقدم لنا مدى احساس المؤلف بوطأة الظلم الذى كان يعيش فيه المصريون فى ذلك الوقت • وهو يقدم تحليلا ناقدا لأزمة ، أو الأصح لكارثة ، النظام القضائى فى مصر وقتها • وهى كلها مساوىء مرتبطة بالنظام الاستعمارى الذى يبيع الوظائف لأجانب يمارسون أعمالا هى من صميم أعمال المواطن داخل وطنه وفى مهنة عمادها الأمانة والذمة وفهم عادات أهل البلد وتقاليدهم • ولكن قاضى تلك الأيام كان يفتقر الى تلك المقومات جميعا ، بل كان يفتقر الى فهم لغة الأشخاص الذين يتقاضون أمامه • وفى هذا يقول المؤلف : « واذا ما تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء ، فاننا سنجد فى هذه الوقائع نفسها منبع المساوىء التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة • وفى

الواقع ، فان رجال القضاء الغرباء ، بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا اليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها ، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التى تفرض نزاهة القضاء • كما أن اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التى لها على الدوام تأثير كبير على القلوب لم يكن لها على الاطلاق وجود عندهم ، وحيث أنهم قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا أمر محكمة ما ، فمن الطبيعى ألا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون فى يدهم سوى أداة للاثراء ، فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى أنفقوها ، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة • ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض ، غرض تكديس الأموال ، لذلك فانهم لم يدعوا أية فرصة تفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم ، أما أولئك الذين يخفف حب العدل والانسانية عندهم من جموح ذلك التعطش الى المال ، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة ، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين الا الخوف من تدهور سمعتهم ، وفضلا عن ذلك فان العادة التى سادت فى مصر ، عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر ، هى واحدة من تلك المساوىء الشيطانية التى لا يمكن لأية حكومة عاقلة أن تتساهل فيها ، اذ هى نوع من الحث أو الخيانة لا يسمح بقيامها الا البرابرة » •

(أنظر الكتاب صفحة ٢١٧)[٧] •

---

(٧) كذلك نلاحظ انه عندما تكلم عن طائفة الخدم لم يتناولهم كوحدة واحدة ، وانما قسمهم الى مجموعات كبيرة تبعا لنوع العمل أو الخدمة التى يؤدونها للأسرة :

- السباسى (جمع سايس) ويقوم على رعاية الخيول •
- الفراشون ويقومون بأعمال نظافة المنزل والاضاءة •
- القواسون ، يسيرون أمام السادة لافساح الطريق لهم والواحد منهم كذلك بلطجى سيده •

ويحلل بعد ذلك نوع عمل كل فئة وأسلوب حياة أفرادها بدقة ، كما سبق فى الكلام عن العمال الحرفيين •

ثامنا ــ ملاحظات عامة حول الكتاب

سوف أجمل فى هذه الفقرة بعض الملاحظات العـامة المتفرقة التى تمس كل واحدة منها موضوعا بأكمله يحتـاج الى أن أخصص له فقرة مستقلة ، ولكننى أرى أن المقام يضيق عن ذلك • وحسبى تلك الموضوعات المتخصصة التى تناولتها بشىء من التفصيل فى الجزء السابق من هـذا المقـال •

تنصب الملاحظة الأولى فى هذه الفقرة على التحليل التاريخى عنـد شابرول • حيث يتضح لنا على طول الكتاب أن تركيز شابرول كان على الحاضر أكثر منه على الماضى ، ولذلك أولى التحليل الاجتماعى اهتمـامه الأول ، على حين لم يتوقف بشكل متعمق عند التحليل التاريخى للظواهر التى رآها • ولعل تفسير ذلك أن الاهتمامات العلمية والتطبيقيـة لعمله وعمل زملائه من مؤلفى « وصف مصر » هو الذى جعل القضـيـة الاجتماعية بما تتطلبه من تحليـلات أكثر الحاحا على المؤلف • فالتحليل التاريخى قد يستأثر أكثر باهتمام الباحث الأكاديمى أو الملاحظ الهاوى ، على حين أن الرجل العملى المشتغل بالمسائل العـامة يجد نفسه غارقا فى التحليلات الاجتماعية •

ومع ذلك فقد قدم شابرول بعض الاشارات السريعة التى تنطوى على ادراك واضح منه للعمق التاريخى لبعض الظواهر التى كان يراها فى الواقع • من هذا قوله : « فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجدناه مرسوما فى الكهوف ، أو على الأقل ثمة تشـابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم • وهو بالغ البساطة ، حيث أن الأرض فى كل مكان لا تبدى الا مقاومة ضعيفة • ويلاحظ أيضـا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمة والطرق الحديثة فى درس القمح • ومع

ذلك فانهم يستخدمون اليوم عددا أقل من الأبقار فى درس القمح » .
(أنظر الكتاب صفحة ٢٨٤) .

أما الملاحظة الثانية فهى عن بعض التحليلات النفسية التى اجتهد شابرول فى عملها وتضمينها كتابه . وهى تحليلات تندرج تحت ما نسميه اليوم الأنثروبولوجيا النفسية أو دراسة الطابع القومى . وقد خصص شابرول فقرة كاملة (هى الفقرة السادسة من الفصل الثالث) لاستعراض بعض السمات النفسية العامة عند المصريين ، وقد اختار لها عنوانا معبرا هو : « الطباع » ، (على صفحات ١١٩ — ١٢٢) . ومن البديهى أن المؤلف لم يضمن تلك الفقرة أكثر من بعض الأحكام والملاحظات الانطباعية الذاتية ، ولكننا نحمد له مع ذلك حرصه ومقدرته على ادراك أهمية هذا البحث الهام من المباحث الأنثروبولوجية . ولا يمكن أن نطالبه أو نتوقع منه بالطبع أن يعتمد فى تلك الملاحظات والأحكام على الأساليب الحديثة التى نعرفها عند دارسى الطابع القومى . ولكننا نسجل له السبق فى تناول الموضوع .

وتشير ملاحظتى الثالثة فى هذه الفقرة الى موضوع على جانب كبير من الأهمية أكتفى باثارته ، والتنبيه الى ضرورة دراسته دراسة متعمقة فى اطار آخر أكثر توسعا وتخصصا من اطار هذه الملاحظات العامة . ذلك أننى قد لمست على طول الكتاب خلط شابرول بين الجماعات السلالية أو العرقية المختلفة التى تعيش على أرض مصر ، بل لمست فى أحيان غير قليلة خلطا بين الجماعات الاجتماعية المختلفة . وأسوق فيما يلى بعض الأمثلة السريعة على ذلك .

يخلط شابرول بين المسلمين والأتراك ، فيستخدم أحدهما مرادفا للآخر ، وواضح بطبيعة الحال أن أحد شقى القضية صواب ، وشقها

الآخر خاطىء وغير دقيق ، فكل الأتراك مســـلمون ، ولكن ليس كل المسلمين أتراكا • (أنظر نصا فى الكتاب على صفحة ٢٣٤) ولكن الباحث المنصف يتساءل فى مثل هذا الموضع حتما عما اذا كان هذا الخلط قصورا من المؤلف ، أو هو تسجيل منه لاستعمال شائع خاطىء كان موجودا على أيامه • ومن الممكن تحقيق تلك القضية فى اطار دراسة أوسع للجماعات السلالية فى مصر والعالم العربى والاسلامى فى ذلك الوقت •

كذلك نجده فى موضع آخر (صفحة ٢٠٣ من الكتاب) يطلق على المصريين اسم « العرب » ، وذلك على مايبدو تمييزا لهم عن الأتراك • ولكن الشىء اللافت للنظر أنه لايستخدم تلك التسمية على طول الكتاب، وانما فى مواضع متفرقة ، مما لا يمكننـــا معه أن تتبين حقيقـــة معلوماته واتجاهاته حول هذا الموضوع • ولكن الشىء الثابت أن فكرة وجـــود شعب عربى واحد أو كيان عربى كبير (ما نسميه اليوم القوميـــة العربية بمصطلح حديث) لم تكن واردة بالنسبة له ، ولا تعنى له شيئا واضـــحا متميزا[٨] •

ولو تتبعنا تلك النقطة عنده قليلا فسوف نكتشف فيها أشياء عجيبة وأخطاء صارخة جديرة بالتسجيل والملاحظة • اذ نجده فى بعض المواضع يكشف عن تصور مؤداه أن أسلاف المصريين كانوا شعبا من البدو الذين

---

(٨) « . وفى البداية لم يشأ سليم (السلطان العثمانى) الذى قسم وظائف الدولة على هذا النحو وحدد كذلك اختصاصاتها ، أن يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المماليك أو الســـناجق ولا من أبناء البلاد (المصريين) لأسباب أكبر . اذ كان العثمانلى (العثمانيون) على الدوام يكنون نوعا من الاحتقار للعرب ، وكان هؤلاء بدورهم برغم ريائهم للعثمانلى وخداعهم لهم يكنون لهم نفس الاحتقار » (ص ٢٠٣ من الكتاب) .

يسكنون الخيام . وفى رأيى أن ذلك الخلط مرتبط بعدم وضوح مفهوم العرب عنده . ومن الطبيعي أن تقوده تلك التصورات الخاطئة الى بعض الاستنتاجات الخاطئة حيث يقول : « .. ففى هذه المنطقة من العـــالم تستمر التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى أننا مازلنا نجدهم يعيشـــون بكل بساطتهم التى كانت لهم وهم يعيشون تحت الخيـــام » (الكتـــاب صفحتى ١٦٤ ــ ١٦٥) .

ومن الحلقات الأخرى الهامة فى سلسلة الأخطاء هذه والتى ترجع كما قلنا الى قصور فى فهم حدود وخصائص الجماعات السلالية والاجتماعية التى كانت تعيش فى ذلك الوقت على أرض مصر ، من تلك الحلقات أنه يدرج ضمن المصريين كل الأجانب الذين يعيشون فى مصر . (أنظر الكتاب صفحة ١٢١ فى ثنايا حديثه عن الطباع) . وقد يكون هــذا مقبولا اذا كانوا متجانسين فى الملبس والوضع الاجتمـاعى وفى المهن وغير ذلك . ولكنه يعمم ذلك عند كلامه عن الخصائص والطباع . وهذا بالطبع لايجوز، ثم أنه خطأ بين .

وأخيرا فانه تصدق على كتاب شابرول الملاحظـــة التى يمكن أن نلاحظهـــا على أعمـــال الباحث كريس أوفينكلر ، من مواجهتـــه بعض الصعاب ــ بسبب كونه أجنبيا ــ فى دراسة بعض عنـــاصر المعتقدات الشعبية خاصة القبور ودخولها . فالملاحظ من وصف شابرول للجبـــانة وشواهد القبور أنه قد أفاض فى وصفها وفى اعجابه بها ، ولكنه لم يذكر بكلمة واحدة هندسة القبر الداخلية ــ ولا طريقة وضع الميت أو صف الموتى ... الخ كما لم يشر بكلمة واحدة الى عدم استطاعته هذا . رغم أنه قد أشار فى حديثه عن الألعاب الشعبية والرقصات الشعبية الى أنه قد قصر فى تدوين المادة التى شاهدها فى هذا المجال (أنظر صفحة ١٧٢ وما بعدها من الكتاب) .

ومن الواضح أن شابرول لم يكن يتقن العربية . وتلك نقطة ضعف خطيرة لدارس المجتمع والثقافة ، فهى العامل المسئول فى رأينا عن كثير من الأخطاء ومظاهر عدم الدقة البادية فى الكتاب فى أكثر من موضع . وقد اعترف هو نفسه بذلك على صفحة ١٥٧ من الكتاب . ولكن الانصاف يقتضينا أن نقول انه اذا كان شابرول قد استطاع رغم عدم المامه الكامل باللغة العربية أن يقدم لنا هذه الذخيرة النافعة القيمة من المعلومات ، فان ذلك دليل مقدرة وعظمة واجتهاد يستحق أن نذكره له ما عاش فى مصر مفكر علمى منصف .

* * *

الدراسة الثانية

دراسة أنثروبولوجية حديثة لفلاحى الصعيد

أولا ــ مقدمة

ثانيا ــ أهداف الدراسة

ثالثا ــ منهج الدراسة

رابعا ــ محتويات الكتاب

خامسا ــ العادات والتقاليد الشعبية

سادسا ــ النساء والأطفال

سابعا ــ الميلاد والطفولة

ثامنا ــ الزواج

تاسعا ــ طقوس الخصوبة

عاشرا ــ عادات الموت

الحادى عشر ــ الأعياد الدورية

اولا ـ مقدمة

سوف أتناول بالعرض فى هذا الفصل كتاب « فلاحو الصعيد » الذى ألفته الأنثروبولوجيا البريطانية الآنسة وينفريد بلاكمان ، ويحمل عنوانا فرعيا هو : « حياتهم الدينية والاجتماعية والصناعية المعاصرة ، مع اشارة خاصة الى رواسب العصور القديمة »(١) . وقد صدر الكتاب عام ١٩٢٧ ، وقدم له الأنثروبولوجى البريطانى الكبير ماريت بمقدمة قرظ فيها موضوع الكتاب ، ومؤلفته ، ومنهجها فى تأليفه . أما الكتاب نفسه فيحوى ـ عدا مقدمة المؤلفة ـ ثمانية عشر فصلا تغطى الحياة التقليدية لفلاحى الصعيد ، بجوانبها المختلفة ، تشغل نحو ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير ، علاوة على بعض الفهارس الهامة المفيدة(٢) .

والآنسة بلاكمان دارسة متخصصة للأنثروبولوجيا فى جامعة أوكسفورد ، وكانت تحضر الى مصر برفقة شقيق لها كان يجرى بعض الحفريات والبحوث الأثرية عن التاريخ المصرى القديم . وقد امتدت الفترة التى جمعت فيها مادة كتابها ست سنوات من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦،

---

(١) Winfried S. Blackman The Fellahin of Upper Egypt, Their Religious Social and Industrial Life To-Day with Special Reference to Survivals from Ancient Times," George G. HARRAP and Company Ltd. Londonon, 1927.

(٢) وهذه الفهارس هى :
(أ) قائمة الكلمات العربية المستخدمة فى متن الكتاب .
(ب) كشاف الأعلام
(جـ) كشاف جغرافى
(د) كشاف عام
وهى تبدأ من صفحة ٣١٧ وتنتهى على صفحة ٣٣١ من الكتاب .

أى حتى قبل عام واحد من ظهور كتابها . ولذلك يبدو لنا من الواضح أن مؤلفة الكتاب لم تكن تكتب انطباعات رحالة فى مجتمع غريب ، ولم تكن تدون فى هذا الكتاب مذكرات رحلة لها بين فلاحى الصعيد ، ولكنها كانت باحثة انثروبولوجية محترفة تملك ناصية فن البحث الأنثروبولوجى ، وتحافظ على صلتها الدائمة بجامعتها وأساتذتها وزملائها فى أوكسفورد وفى المجتمع العلمى البريطانى آنذاك بشكل عام وليس أدل على ذلك من أن نشاطها البحثى هذا كان يتم بتمويل من بعض الهيئات العلمية البريطانية التى ذكرتها وقدمت لها الشكر فى مقدمة كتابها .

فنحن اذن لسنا بصدد عمل من أعمال الهواة أو الرواد ، ولكننا بصدد تقرير بحث علمى كتبه باحث محترف . وعلى هذا الأساس ستكون نظرتنا الى مادة الكتاب . فأول مزايا هذا الوضع أن العمل الذى بين أيدينا يدور فى اطار محدد غاية التحديد . فهو ليس عن الفلاحين المصريين، ولكنه عن فلاحى الصعيد . وهو كذلك تحديد لجانب معين من جوانب حياتهم التقليدية . ثم هو ليس استعراضا تاريخيا شاملا ، ولكنه عرض لحياتهم المعاصرة فقط ، وقد أكدت المؤلفة ذلك فى عنوان كتابها ، وفى مقدمته ، وفى كل فصل من فصوله . أما الاشارات الى أوجه الشبه بين الحياة المعاصرة والواقع التاريخى القديم فقد ضمنتها فصلا مستقلا فى نهاية الكتاب .

ومع ذلك فاننا لا نعفى بلاكمان من الاتهام الرومانسى الذى لابد أن تنفق عليه فى البداية ، وهى أنها شرعت تجرى بحثها وفى رأسها فكرة طاغية عن استمرار الثقافة المصرية منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث. ولعل هذه الفكرة وسيطرتها الواضحة هى التى دفعتها لتعمق حياة هؤلاء الفلاحين الذين عايشتهم ، لكى تتمكن من التدليل عليها بشكل علمى .

ولكننا نقر فى نفس الوقت ، وبنفس الوضـــــوح ، أن بلاكمان لم تقع ضحية هذا الوهم ، أى أنه لم يؤثر على سلامة وضعها ولا أمانته • ولا على تحليلاتها ، ولا على اختيارها لموضوعات الدراسة •

ومن الواضح أن حصيلة هذه السنوات الست لا يمكن أن تقتصر على مادة هذا الكتاب ، رغم ضخامته وأهميته ، فلابد أن حصيلة الباحثة كانت تزخر بمزيد من التفاصيل والمعلومات • وهـــذا هو الذى قررته بالفعل فى أول سطر من سطور الكتاب ، حيث قالت :

« ان هذا الكتاب لا يمثل سوى شريحة صــغيرة من العمل الذى اشتغلت به فى مصر طوال الســنوات الست الماضية • فقد أنفقت ــ فى المتوسط ــ ست شهور كل عام فى هذا البلد ، قضـيتها كلها تقريبا بين الفلاحين ••• واننى أود أن أؤكد أنه على الرغم من أن محتويات هــذا الكتاب لا تمثل سوى جانب ضئيل من المعلومات التى جمعتها بالفعل ، الا أننى أشعر مع ذلك أننى مازلت فى بداية الطريق • ومازالت أمامى سنوات عديدة يجب أن أنفقها فى البحث ، فاننى مازلت أبعد ما أكون عن استنفاد كل مصادر المعلومات الممكنة • وعندما أزداد اقترابا من نهـاية عملى ، فاننى أنوى اصدار مؤلف أكبر حجما وأكثر التزاما بالصراحة العلميــة أتناول فيه معتقدات وممارسات المصريين المحدثين وحياتهم الاجتماعيــة والصناعية »[٣] •

---

(٣) انظر بلاكمان ، فلاحو الصعيد ، صفحة ٩ (مقدمة المؤلفة) . وأرجو أن يلاحظ القارىء أن كلمة « صناعية » التى تســتخدمها هنا ، واستخدمتها فى العنوان الفرعى ، تعنى الصناعات التقليدية أو الشعبية ، ولا تنصرف الى الصناعة بمفهومها الحديث . وسنشير الى ذلك تفصــيلا فيما بعد .

أما عن التزام الدقة فى جمع المعلومات وفى عرضها فهى أمور تتوقعها من باحث متخصص ، ومع ذلك فقد أكدتها المؤلفة فى مقدمتها بوضـوح لا لبس فيه ، حيث قالت :

« لقد بذلت أقصى الجهد كى ألتزم الدقة الكاملة فى كل ما قررته فى هذا الكتاب . فقد اعتنيت بالسؤال عن كل عادة أو معتقد تناولتها فى هذا الكتاب واستوثقت منها قبل أن أدونها على الورق » . (صفحة ٩ من الكتاب) . ولكنها تطلب مع ذلك من أصدقائها المصريين أن يراجعوا كل ما كتبته ، وأن يصححوا لها كل ما قد تكون أساءت فهمه ، ويكتبوا لها بذلك دون تردد . حيث أشارت بحق الى أن الباحث الميدانى الأنثروبولوجى مهما كانت درجة خبرته ومهما كان ثراء تجاربه فى البحث من الممكن أن يتعثر فى فهم ظاهرة أو تحليل جزئية من جزئيات ثقـافة المجتمع الذى يدرسه . ففى حياة كل شعب بعض الجوانب أو المناطق التى يمكن أن تظل مغلقة على أى باحث ، خاصة ولو كان أجنبيا عن ذلك المجتمع . ولا شك أن ذلك تواضع من المؤلفة ، ليس بمستغرب على العالم المدرب الخبير .



ثانيا — أهداف الدراسة :

ذلك هو الاطار العام الذى حددته الباحثة لنفسها ، فما هى يا ترى الأهداف التى وضعتها نصب عينيها ؟ لقد أشرنا فى الفقرة السابقة الى أن بلاكمان قد اعتبرت هذا التقرير (الكتاب الذى نعرض له هنا) بمثابة نواة لدراسة أشمل وأكمل من عادات ومعتقدات المصريين المحدثين . وبذلك حددت أول أهدافها بأنه اخراج سفر متكامل عن الثقافة التقليدية للمصريين المعاصرين .

وهى واعية كل الوعى بأن دراستها الحالية قد اقتصرت على فلاحى الصعيد ، وذكرت أنها أغفلت المناطق الأساسية الأخرى فى مصر ، وخاصة : فلاحى الوجه البحرى (أو الدلتا) ، والنوبيين ، وسكان الواحات المصرية . ولا شك أن اكمال الدراسة وكمالها يستوجب الاحاطة بهذه الأقسام الرئيسية للشعب المصرى ، وهو ما أرجأته الى مناسبة تالية .

كما انتبهت بلاكمان بهذه المناسبة الى حقيقة أخرى هامة وهى أنها لم تهتم فى هذا المجلد بتوضيح الفروق المحلية الدقيقة بين مناطق الصعيد وبعضها . وأنها ترجىء ذلك أيضا الى حين اكمال دراساتها ، التى تتوقع لها أن تستغرق سنوات طويلة ، لم تتحقق مع الأسف الشديد . ولكن الذى يهمنا هنا أن بلاكمان كانت واعية بأهمية تلك الفروق الإقليمية والمحلية ، ومدركة أنها أمور تستحق التسجيل ، لأن لها دلالة عظيمة فى التحليل . وتلك أيضا نقطة منهجية جديرة بالاشارة ، وليست بمستغربة من باحثة أكاديمية مدربة[٤] .

---

(٤) كما أشارت بلاكمان على صفحة ١٠ من مقدمة كتابها الى أن حديثها عن المشايخ والأولياء والقديسيين المسيحيين قد أثار اهتمامها وشدها أكثر من أى موضوع آخر . ولكن معالجتها لهذا الموضوع فى الكتاب الذى بين ايدينا جاءت مختصرة غير وافية لأنها تعتزم أن تصدر فى وقت قريب كتابا مستقلا يتناول المعتقدات والطقوس والأساطير المتعلقة بهؤلاء الأولياء والقديسين . وهو أمر لم يتحقق مع الأسف ، حيث لم نسمع عن دراسة أخرجتها بلاكمان عن هذا الموضوع . ولا ندرى سببا لذلك .

كما نبهت بلاكمان فى مقدمتها الى أن حديثها على طول الكتـــاب ينصب على الفلاحين دون سواهم ، وهم بمعنى آخر « الراق الأدنى »(٥) من الشعب المصرى آنذاك . لأنها أدركت (على صفحة ٩ من الكتاب) أن العادات والمعتقدات التى تتناولها فى هـــذا الكتـــاب والتى شاهدتها وعايشتها عند الفلاحين قد اختفت من حياة أبناء الطبقات العليا .

وهذا هو الأمر الذى يفسر لنا الهدف الرئيسى الثانى للمؤلفة من وراء كتابها هذا . لقد أرادت ـــ علاوة على دراسة وتسجيل حياة المصريين المعاصرين ـــ أن تنبه المثقفين من أبناء هذا الشعب الى حقيقة هامة : أن ذلك التراث الذى كان منتشرا فى الماضى بين كل فئات الشـــعب ، بدأ يختفى تدريجيا ، وذلك بدءا من الطبقـــات العليا ، وأنه فى طريقـــه الى الاختفاء كلية تحت وطأة التغير الاجتمـــاعى السريع . وأن على هؤلاء المصريين أن يتحملوا هم أنفسهم عبء المسارعة الى تسجيل هـــذا التراث الحى قبل أن يذبل ويموت ، ولن يستطيع تحقيق هـــذا الهدف الصعب باحث واحد ، أو عدة أفراد قلائل ، ولكنه جهد ضخم شاق يحتاج أن يتم

(٥) الراق الادنى Lower Stratum هو عامة الشعب أو الطبقات الدنيا البدائية فى مجتمع معقد . ويتميز هؤلاء الناس ـــ كما يرى أصـــحاب هذا المصطلح أصلا ـــ بعقلية بدائية ، وقصـــــور القدرة الخلاقة . فهم لا يبتكرون ، وانما هم ينسخون . وهم من هذه النواحى على عكس الراق الأعلى . وقد قدم هابرلاندت Haberlandt مصطلح الراق الأدنى عام ١٨٩٥ فى المقدمة التى كتبها للعدد الأول من الدورية النمساوية « فولكسكندى » Volkskunde ثم كثرة تناول هذا المصطلح وازدادت معالمه اتضاحا فى كتابات كبار علماء الفولكلور (الفولكسكنده) الألمان بعد ذلك . انظر مزيدا من التفاصيل فى : أيكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الأثنولوجيـــا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشـــامى ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ص ٢٠٦ ـــ ٢١٠ ، وكذلك مادة « الراق الأعلى » فى نفس القاموس ، ص ص ٢١٠ ـــ ٢١١ ، والمراجع الواردة هناك .

فى اطار مؤسسة عامة تحظى بالتشجيع الحكومى • تتميز بالتنظيم العلمى الحديث

وهكذا كتبت بلاكمان فى مقدمة كتابها تقول : « اننى أتوق الى اليوم الذى يدرك فيه المثقفون المصريون أهمية الدراسة الأنثروبولوجية والفولكلورية لبلدهم • وغاية أملى أن يقتنع بعضهم بالاضطلاع بعبء هذه الدراسة بأنفسهم • ومن المؤكد أنهم — اذا ما نالوا التدريب السليم — سيكونون أقدر من يستطيع الاضطلاع بالدراسة الأنثروبولوجية لأبناء شعبهم • وانى لآمل أن يتم فى القريب تأسيس معهد أنثروبولوجى مزدهر فى القاهرة ، يكون مركزا لاجراء مثل هذه البحوث ، ليس فى مصر وحدها ، وانما فى البلاد المجاورة أيضا ••• اذ من يدرى الى أى مدى امتد تأثير الثقافة المصرية القديمة ؟ » (صفحة ١٠ من الكتاب) •

أما الهدف الرئيسى الثالث والأخير فى هذا الاستعراض السريع فهو رغبة بلاكمان أن ترى الثقافة المصرية المعاصرة فى سياقها التاريخى العام ، أى أن تضعها فى الاطار التاريخى الخاص بها • فهى تدرك كما أشرت أن هناك بعض عناصر الاستمرار فى الثقافة المصرية التى تبدو للملاحظ الخارجى بشكل يثير الاهتمام • وربما يخلق هذا الاحساس الانطباع لدى هذا الملاحظ الخارجى بأن الثقافة المصرية قد « اختزنت »[٦] نفسها أو استطاعت الحفاظ على نفسها عبر تلك الآلاف من السنين ، خاصة وأن الحياة فى وادى النيل قد حباها الله بعض الموانع الطبيعية (البحار والصحراوات الشاسعة) التى أبعدتها عن الانصهار فى الثقافات الأخرى ،

---

(٦) نسبة الى « الثقافة المخزونة » Stored (or Magazined) Culture
انظر توضيحا كاملا لهذا المفهوم عند هولتكرانس ، المرجع السابق ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ •

ولذلك ظلت الثقافة المصرية على نقائها • ولهذا السبب فهي تطمع في تحقيق مكسب علمى آخر هام ، ألا وهو أن يؤدى فهم الثقافة المصرية المعاصرة الى القاء الضوء على بعض غوامض التاريخ المصرى القديم ، أى أن يلجأ علماء الآثار المصرية الى تفسير بعض ماعثروا عليه ولم يفهموه من واقع فهم الممارسات الحالية والمعتقدات الحالية للمصريين • وهكـذا كتبت تقول :

« ••• ان عادات ومعتقدات المصريين المحدثين ذات أهمية كبرى فى حد ذاتها ، الا أن كون أغلبها يتميز بأنه قديم أشـــد القدم ، يجعل من الأمور الملحة الاسراع بدراستها وتسجيلها • ولقد أفادت بعض بحوثى بالفعل فى القاء الضوء على بعض الموضوعات التى كانت غامضة حتى الآن واستعصى على دارسى مصر القديمة فهمها • ولذلك آمل ألا يكون كتابى هذا مجرد اضافة تثرى المعرفة الأنثروبولوجية ، وانما أن يكون فى الوقت نفسه اسهاما فى علم المصريات (علم الآثار والحضارة المصرية القديمة) »• (صفحة ٩ من الكتاب) •

ثالثا ـ منهج الدراسة

قد يدهش القارىء اذ أخصص فقرة مستقلة لتناول منهج دراسة أعدته دارسة متخصصة ، هل معنى ذلك أننا سنفصل القول فى كل قواعد البحث الميدانى التى التزمت بها الباحثة ؟ أم أننا نعنى بالمنهج هنا شيئا آخر ؟ الحقيقة أن تأكيدنا على الاتقان المنهجى عند بلاكمان لهو هدف فى ذاته ، فكثير من الدراسات التى سبقتها وبعض الدراسات التى جاءت بعدها قد قصرت فى الالتزام بقواعد المنهج العلمى تقصيرا واضحا . ومع أن تاريخ فترة اجراء الدراسة تفصلنا عنه نحو ستون عاما ، الا أننا ندرك مع ذلك الحبكة المنهجية والالتزام الواضح بأصول البحث الأنثروبولوجى .

لقد استخدمت بلاكمان المنهج الأنثروبولوجى فى البحث استخداما سليما يمكن أن نعده مضرب الأمثال (طبعا مع وضع الحدود الزمنية فى الاعتبار) . فقد قضت فى مصر فترة طويلة ، ست سنوات ، قضت فى كل عام منها نحو نصفه بين الفلاحين . ومع طول المدة لم تعتبر أنها قد عرفت كل شىء ، أو أمسكت بكل الخيوط ، ولكنها قدرت أن أمامها سنوات طوال يجب أن تنفقها بين الفلاحين قبل أن تكتب دراستها العلمية التى ستلتزم فيها المنهج العلمى التزاما صارما . ولو كنا نملك شيئا من تواضعها ، لكان حالنا أفضل كثيرا مما هو عليه الآن .

ويمكننا أن ندرك أن بلاكمان كانت فى موقع قوى فعلا وهى تبدأ دراستها ، فالمرأة هى أمهر جامع للمعلومات الأنثروبولوجية ، بشهادة التاريخ والعلم . وقد أشار البروفسور ماريت الى تلك الملاحظة فى تقديمه للكتاب ، حيث قال :

« وأختتم كلامى بالاشارة الى فائدة المرأة كباحثة أنثروبولوجية . انها قادرة بطبيعتها على التعاطف مع الآخرين ، وهى ليست موضع شك

من النواحى السياسية • وهى قادرة على الاتصال بالنساء اللائى يمارسن — بوصفهن مربيات الجيل الجديد — تأثيرا هائلا على تكوين السمات النفسية • لذلك أقول باختصار ان الدراسة الأنثروبولوجية عمل يمكن أن تنجزه النساء كما ينجزه الرجال تماما • وما على كل سيدة ترغب أن تكون نافعة فى هذا الاتجاه الا أن تتبع خطوات الآنسة بلاكمان ، بأن تحصل على تأهيل علمى مناسب قبل نزولها الى الميدان » • (ص ٧ من الكتاب) •

والواقع أننى لا أشارك البروفسور رأيه فى أن المرأة كباحثة أنثروبولوجية يمكن أن تكون كالرجل تماما ، أى أن تؤدى نفس العمل الذى يؤديه ، ولكنى أذهب الى أبعد من ذلك اذ أعتقد أنها يمكن اذا حصلت على نفس التأهيل العلمى أن تتفوق على الرجل تفوقا واضحا فى جمع المادة الميدانية على الأقل • واذا كانت الشواهد لا تسعفنا بكثرة للتدليل على ذلك ، الا أن هذا يرجع الى أن العمل الميدانى (خاصة اذا كان فى مجتمعات غريبة) عمل شاق ومرهق أشد الارهاق ، ولم يجتذب الى اليوم أعدادا كافية من السيدات • ولو أتيحت فرص مثل هذا أمامهن ، وحصلن على التشجيع المطلوب ، فمن المؤكد أن الواقع سيؤيد رأيى هذا بكل جلاء •

ولما كانت بلاكمان باحثة متخصصة ، فقد اهتمت بتحديد المجال البشرى والزمنى لبحثها تحديدا واضحا دقيقا ، فهى تقتصر فى هذا الكتاب على فلاحى الصعيد ، وعلى مفهوم محدد للفلاحين لا يشمل الطبقات العليا فى المجتمع الريفى • وهى تتناول حياة هؤلاء الفلاحين فى العصر الحاضر فقط ، ولم تعمد الى سؤالهم عن أى واقع تاريخى أبعد مما تراه بعينيها ماثلا أمامها •

وأولت الباحثة اهتمامها على طول الكتاب لمراعاة الأبعاد الاجتماعية، فكانت تنبه فى كل موضوع الى الفروق بين سلوك النساء والرجال ، وبين ممارسات المسلمين والأقباط ، وعادات الطبقات الوسطى والعليا (من ذلك مثلا اشارتها الى العزلة التى تعيش فيها سيدات الطبقة العليـــا ، والحرية النسبية التى تتمتع بها سيدات الطبقة الدنيا) .. الخ . وان كنا ننبه الى أن تحديدها للطبقات فى المجتمع المصرى يمكن أن يكون مثـار جدل وخلاف ، ولكن تلك النقطة هى على أى حال مصدر قوة للعمل الذى بين أيدينا لا يصح أن نتجاهلها .

لقد أشارت المؤلفة فى أكثر من موضع الى اخبارييها والمرشدين الذين انتفعت بهم فى جمع المعلومات وتيسير اتصالها بالناس . وأشادت فى هذا الصدد اشادة كبيرة بمن ســاعدوها من الموظفين الحكوميين والمتعلمين وشيوخ القرى ... الخ . ولكنهــــا لم تحدد لنا مع ذلك تحديدا أوفى أوضاع أو ظروف أولئك الاخباريين[٧] . وتلك قضية حيوية لأنها تساهم فى القاء الضوء على خلفية العمل الذى بين أيدينا وتحديد وزنه العلمى .

---

(٧) وقد اشارت مع ذلك فى مقدمتهــــا الى انها امسكت عن ذكر الأشخاص بأسمائهم وذكر بعض الأماكن أو الوقائع باسمها ، لانها قدرت أن ذكر تلك الأسماء قد يكون أمرا غير مرغوب كما أنه قد يكون غير اخلاقى ، خاصة فى كتاب واسع الانتشار كهذا الكتاب . ولكنى لا أعنى هنا مجرد الأسماء ، وانما اقصد الخلفيات الخاصة بالاخباريين من حيث التعليم ، والحالة الاجتماعية ، والخبرات السابقة فى الرحلات والسفر ، والاختلاط بالناس ، والنشاط الاقتصادى ، والمستوى العام ... الخ . وقد عمدت فى دراستى لبعض المجتمعـات المحلية الســـعودية الى ذكر كافة بيانات الاخباريين دون ذكر أســمائهم . انظر علياء شكرى ، بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى . دارسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .

ومن مواطن القوة فى الكتاب ذلك العدد الكبير من الرســـــوم والأشكال الذى وصل ١٨٦ شكلا على امتداد الكتاب • وتقديرنا للصور الواردة فى الكتاب قائم على مراعاة لتاريخ نشر الكتاب • لأن الصـــور تفتقر الى الدقة والوضوح والى كثير من المواصفات المفروض توافرها فى الصورة الأنثروبولوجية العلمية • ونشير فى هذا الصدد الى أن الصـــور التى نشرها فينكلر بعد ذلك التـــاريخ بتسع ســـنوات فقط فى كتابه « الفولكلور المصرى » (أنظر الفصل التالى فى هذا الكتاب الذى يتضمن عرضا لكتاب فينكلر) ، تلك الصـــور تتميز بقدر أكبر بكثير من الدقة والوضوح • على حين أن الصور التى نشرها كريس فى كتابه « المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى » (أنظر الفصل السادس من كتابنا هذا) تمثل مستوى الذروة فى الاتقان والوضوح ، وتتفوق تفوقا بعيدا على كل الصور التى سبق نشرها فى أى كتب أنثروبولوجيـــة عن مصر • ولذلك نقول اننا نقدر للآنسة بلاكمان جهدها فى التصـــوير فى اطار ظروف نشر الكتاب وتكنولوجيا الوقت الذى كتب فيه •

وأختتم هذه الفقرة بالاشارة الى موقف عجيب من الآنسة بلاكمان لم يكن متوقعا أبدا من باحثـــة أنثروبولوجية حصلت قدرا من الدراسة الأكاديمية • ففى كل موضع ومناسبة وبدون مناسبة تجدها تبدى رأيها الشخصى وتعطى انطباعتها وتقييمها الخاص للأحوال التى تراها غيرسليمة أو واجبة الاصلاح • ومن الطبيعى أن باحثة انجليزية تدرس الصـــعيد المصرى ، وتركز اهتمامها على الطبقات الدنيا من الفلاحين أن تقع عيناها على عشرات ، بل مئات الظواهر غير السليمة أو الممارسات التى تتصف بالقذارة أو عدم مراعاة قواعد الصحة والعلم •

وقد وصلت المؤلفة فى هذا الصدد الى مدى بعيد لايمكن أن يكون مقبولا ، فهى تتحدث عن البيت الريفى فى الصـــعيد وعن قذارته وعن مستواه الصحى المتخلف سواء من حيث الأدوات أو الأطفال أو العمليات المنزلية ، وتشير الى أن المرأة الصعيدية فى هــذا الصدد لا تتمتع بمــا تتمتع به أفقر سيدة فى انجلترا !(٨) هذه مقارنة عجيبة لا داعى لها ، فوق أنها مخالفة لأبسط قواعد الحياد العلمى ، فمن من القراء يمكن أن يتبادر الى ذهنه مثل هذه المقارنة ، ومن الذى تصور أن المرأة الصعيدية فى أوائل العشرينات تتمتع بأى شيء أحسن مما كانت تتمتع به المرأة الانجليزية فى ذلك الوقت .

وتنطبق نفس الملاحظات على مكانة المرأة أو العناية المنعدمة التى يتمتع بها الأطفال فى أسر الفلاحين ... الخ وهى كلها أمور كان المفروض أن توفرها المؤلفة على نفسها وعلى قرائها . حقيقة أنها فى كل ملاحظاتها وانتقاداتها تنطلق من منطلق الحب والتقدير والرغبة فى بلوغ الأفضــل وتحقيق ما فيه حياة أحسن لهؤلاء الفلاحين . ولكن هل هــذا هو المكان المناسب للتعبير عن تلك الأمانى ؟

ومع ذلك فان تلك الملاحظة لا تنتقص من قدر الكتاب أو من قيمته العلمية ، وهى بلا شك تتضاءل الى جانب مافيه من اسهام جليل فى دراسة ثقافة فلاحى الصعيد . وهو أمر سنظل نذكره لها بالعرفان .

---

(٨) انظر بلاكمان ، فلاحو الصعيد ، صفحة ٤٠ ، ومواضــع اخرى متفرقة على امتداد الكتاب .

رابعا ـ محتويات الكتاب

أشرت الى أن المؤلفة قسمت موضـــوعات الكتاب الى ثمانية عشر فصلا ، عدا المقدمة والكشافات . ولم تلتزم فى هذا التقسيم خطة معينة ، ولا منطقا محددا ، ولم تشر الى ذلك صراحة ولا ضمنا . وقد انتظمت فصول الكتاب على النحو التالى :

١ ـ القرى المصرية وسكانها

٢ ـ النساء والأطفال

٣ ـ الزينة والحلى الشخصية

٤ ـ الميلاد والطفولة

٥ ـ الزواج والطلاق

٦ ـ طقوس الخصوبة

٧ ـ الموت والشعائر الجنائزية

٨ ـ النزاعات بين القرى . قانون الثأر

٩ ـ الصناعات (التقليدية) . سوق القرية

١٠ ـ الزراعة وطقوس الحصاد

١١ ـ السحرة والسحر

١٢ ـ طبيب القرية (الشعبى) وطبيبة القرية (الشعبية) .

١٣ ـ العين الشريرة وخرافات أخرى

١٤ ـ العفاريت

١٥ ـ الشيوخ المسلمين والقديسين الأقباط

١٦ ـــ بعض الأعياد الدورية (على مدار العام)

١٧ ـــ راوى (شاعر) القرية وحكاياته

١٨ ـــ المماثلات المصرية القديمة

واضح من هذا التقسيم أن المؤلفة قد أحاطت بمختلف عنـــاصر الثقافة التقليدية ، كما اتفقنا على تحديدها فى دليل العمل الميدانى الذى اشتركنا فى وضعه مع بعض الزملاء[٩] . وان كان من الواضح أيضا أنها لم تكن فى معالجتها متوازنة فى الكلام عن كل قسم منها .. فقد حظيت بعض أقسام التراث الشعبى بعناية أكبر بكثير من أقسام أخرى ، فنلاحظ على سبيل المثال أن قسم العادات والتقاليد ، وكذلك قســم المعتقدات قد حظيا باهتمـــام فاق كثيرا ما خصصته لقسم الثقــافة المادية والفنون الشعبية ، أو لقسم الأدب الشعبى وفنون المحاكاة .

ومع ذلك فنحن نرى فى ذلك أمرا طبيعيا تماما ، فالباحث الذى يطرق كل أبواب التراث الشعبى لا يمكن أن يكون متخصصا أو مهتما فى كل الأقسام بنفس القدر ، ولابد أن تقوده اهتماماته الى تفصيل واحـد منها أو أكثر على سائر الأقسام . وهذا هو الحال بالنسبة لمؤلفتنا صاحبة هذا الكتاب . هذا علاوة على أن بعض الموضوعات تتطلب ثقافة متخصصة سابقة أو تأهيلا علميا خاصـا ، ولا يمكن أن نطلب من كل من يكتب دراسة ميدانية مونوجرافية أن يلم بكل الموضوعات الثقافية بنفس القدر .

---

(٩) انظر محمد الجوهرى وزملاؤه ، الدراســة العلمية للعــادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، وانظر كذلك محمد الجوهرى ، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

ولعل القارىء يدرك معي مدى صعوبة موضوع الأدب الشعبي على باحث أجنبي عن المنطقة لايعرف لغتها ، أو يعرفها بالكاد • فأنى له أن يحيط بهذا الخضم الكبير من الحكايات، والسير ، والألغاز ، والأمثـال ••• الخ أبواب قسم الأدب الشعبي • فتلك مهمة تتطلب أحد أبناء المجتمع أنفسهم، يكون مالكا لناصية اللغة ولقواعد البحث في دراسة الأدب الشعبي في نفس الوقت • وهذا مانعتقد أن صاحبتنا بلاكمان تفتقر اليه بشـكل ظاهر •

لذلك أكرر أن عدم التوازن بين معـالجة مختلف أقسـام التراث الشعبي ليس نقطة ضعف تؤخذ على المؤلفة ، ولكننا أثبتناه هنا كتقرير لواقع الحال ، يكون في اعتبار القارىء الذي يطالع فيما يلي جانبا من محتويات هذا العمل العلمي الهام ، بحيث لا يظن أن عدم ذكر بعض هذه الأقسام أو الاختصار في التعرض لها وتناولها هو تقصير من جانبنا نحن •

ونظرا لطبيعة التداخل بين موضوعات القسم الواحد من التراث الشعبي ، فاني أرى من الأفضل أن أعرض لمحتويات الكتاب من خلال تصنيف المادة حسب الأقسام الأربعة الرئيسـية للتراث كما اتفقنا على تحديدها • فيدخل في هذه الحالة عدد من الفصول تحت قسم واحد ، على حين نرى أن قسما بأكمله ــ كالأدب الشعبي ــ لم يظفر من الفصـول الثمانية عشرة سوى بفصل واحد • وسـوف أستعرض تلك المحتويات بشكل سريع ، يقتصر في أغلب الأحيان على رؤوس الموضوعات ، فيمـا تبقى من صفحات هذا الفصل •

خامسا ـ العادات والتقاليد الشعبية

حظى موضوع العادات والتقاليد الشعبية بالجانب الأكبر من اهتمام بلاكمان • وقد كان من الطبيعى أن نجد هذا الموضوع ممتدا ومتشعبا يستحوذ على عدد كبير من فصول الكتاب • فقد تناولت العادات فى الفصل الثانى عن النساء والأطفال ، وفى الفصل الرابع الميلاد والطفولة ، وفى الفصل الخامس الزواج والطلاق ، وفى الفصل السابع الموت ، وفى الفصل السادس عشر الأعياد الدورية على مدار العام • تلك هى الفصول التى خصصت بأكملها لتناول العادات ، ومع ذلك فان هناك فصولا أخرى ــ على امتداد الكتاب ــ جاءت فيها اشارات متفرقة الى بعض العادات والتقاليد • ولذلك لا نبالغ اذا قلنا ان حوالى نصف مادة الكتاب مما يدخل ضمن موضوع العادات الشعبية •

ونظرا لضخامة الكم الذى قدمته من المعلومات عن العادات والتقاليد الشعبية فاننى سوف أقتصر فى العرض التالى على تناول ذلك الموضوع فقط ، مرجئة تفصيل موضوعات الأقسام الثلاثة الأخرى من التراث الشعبى : المعتقدات الشعبية ، والثقافة المادية والفنون الشعبية، والأدب الشعبى الى مناسبة أخرى مراعاة للحجم الذى حددته لهذا الكتاب ، ولكى لا تأتى معالجتى النقدية لتلك الموضوعات الهامة متسمة بالعجلة أو الاختصار غير المفيد • وعلى هذا سوف تختص بقية فقرات هذا الفصل باستعراض الفصول المتعلقة بالعادات الشعبية بصفة رئيسية• وذلك على النحو التالى :

سادسا ـ النساء والأطفال

وقد كان من الطبيعي أن تفكر بلاكمان ـ وهي امرأة ـ أول ما تفكر في النساء والأطفال . فكانت نساء الفلاحين وأطفالهن أول موضوع بدأت تتصدى له في الفصل الثاني من الكتاب . وقد بدأت هذا الموضوع بندب حظ المرأة الصعيدية ، فتباكت على جهلها بأصول الصحة ، والمعلومات الطبيعية العامة ، بل وعدم درايتها بالأساليب الصحيحة لأداء واجباتها المنزلية . ولكن المشكلة الأساسية الناجمة عن هذا الجهل تتمثل أساسا في اساءة تربيتها لأطفالها .

وبدأت بعد تلك المقدمات العاطفية غير العلمية تدخل في موضوعها باستعراض ظروف الفتاة قبل الزواج ، وما تتمتع به من حرية قبل سن البلوغ ، ثم ما تتعرض له بعد ذلك من تقييد لحرية حركتها واتصالاتها مع الناس ـ وخاصة الشباب من الجنس الآخر ـ عندما تصل سن الزواج . وبينت المؤلفة كيف أن هذه القيود تختلف تبعا للموقع الطبقي للفتاة ؛ فالأسر الأيسر حالا تحجب ابنتها التي بلغت سن الزواج بشكل أشد وأكثر صرامة من الأسر الأرق حالا . ونلمس ذلك الفارق الطبقي الواضح كذلك في العزلة التي تعيشها المرأة بعد الزواج . فالزوجة في الأسر الرقيقة الحال (أو الطبقة الدنيا) تشارك الرجل حياته وتقوم بعديد من الأعمال داخل المنزل وخارجه ، أما الزوجة في الطبقات الأيسر حالا فتحبس في بيتها ، لا ترى الرجال الأغراب ولا يرونها ، ربما بعد أن تتقدم كثيرا في السن ، ولأسباب قاهرة ، ولكن قبل ذلك لا يجوز أبدا .

وناقشت بلاكمان بذكاء وخبرة مدلول هذا السلوك ، وتفسير هذا الحرص الشديد من الرجل على عزل زوجته عن الناس ، وقدمت التفسيرات الغربية التي يتصورها الأوربيون وراء هذا السلوك . وهي

تدور كلها طبعا حول قسوة الرجل الشرقى ووحشيته وبدائيته وأنانيته.. الخ . ولكنها نبهت الى أن هذا السلوك يدل على معنى مختلف من جانب ممارسيه ، فهو على العكس من ذلك تعزيز للمرأة وتعبير عن اعزازها ، هو تقدير لها ورفع لمكانتها ، وأن المرأة ترى فى ذلك السلوك نفس هـذا المعنى . والأسرة المحترمة هى التى تحجب نسـاءها ولا تسـمح لهن بالاختلاط بالرجال الأغراب ... وهكذا . ومع أننا لسنا هنا فى مناقشة أصل هذا التصور وسبل تكونه (لأنه قد يكون فى النهاية قد نفـذ الى عقل المرأة كجزء من أيديولوجية الرجل المسيطر ، أى أن هذا الموقف هو مجرد ترديد لموقف الرجل تبنته المرأة وتمسكت به .. الخ) ، مع أننـا لسنا هنا بصدد مناقشة أصول هـذا الرأى ، انما المهم أنها متبنهة الى ضرورة الفهم الأصيل المتعمق لمـا تلاحظه من ظواهر ، دون أن تندفع الى تبنى الأحكام والتصورات السائدة فى تفسير هذه الظواهر دون تمحيص.

ويتصل بهذه القضية اتصالا وثيقا تحقيق الزعم القائل بسيطرة الرجل على البيت وعلى الحياة عموما ، وبالتالى عـلى المرأة سـيطرة كاملة . واستطاعت بلاكمان أيضا بحسـها الأنثوى وخبرتها الأنثروبولوجية ، واهتمامها بتعمق الأمور أن تدرك أن هذا زعم واهم ، وأن القاعدة ربمـا تكون عكس ذلك تمـاما . فالمرأة فى أحيـان غير قليلة هى التى توجه الرجل وتسيطر عليه ، وان حرصت أن تبدى فى الظاهر خلاف ذلك . بل انها أشارت الى أنها قد تعرفت على بعض الرجال الذين يخشون نساءهم أشد الخشية . فتلك المزاعم فى رأيها واهمة ، وتدل على ملاحظة سطحية متعجلة لبعض المواقف والأمور .

بعد هذه النقطة انتقلت بلاكمان الى مناقشة علاقة الزوج بزوجته ، فبدأت باشارة سريعة الى الزواج المفضل ، والى طبيعة الخلافات التى تثور عادة بين الرجل وزوجته ، واجراءات الصلح بينهما ، والهدية أو المقـابل

الذى يقدمه الرجل طلبا لهذا الصلح .. الخ . كما بينت أن هنـاك بعض خالات زواج المصلحة ، ومن ذلك الزواج من أرملة الأخ للحفـاظ عـلى الميراث . لأن تلك الأرملة قد حصلت عـلى أرض هى ملك والده ، فلو تزوجت رجلا أجنبيا فان أرض والده سـتؤول اليه . ولذلك يتزوجها حفاظا على الأرض .

وأشارت كذلك الى سن الزواج للفتى والفتاة ، ونظرة الفتـاة الى الزواج وحرصها الشديد عليه وتطلعها الى تحقيقـه فى أقرب فرصـة ، وكذلك لاحظت أن الزواج الأحادى (المونوجامى) هو الطابع الغـالب على الزواج فى قرى الصعيد [١٠] . ومن الواضح أن حديث بلاكمان عن النساء هو الذى جرها الى الـكلام عن الزواج ، أو عـلى الأقل بعض نواحيه ، وهو الموضوع الذى خصصت له فصلا مسـتقلا بعد ذلك . ولكننا نؤكد بذلك مجددا على حقيقة التداخل بين مختلف موضـوعات الثقافة التقليدية .

وقاد المؤلفة حديثها عن النساء والزواج ، قادها الى الحـديث عن الغيرة ، وهى تعنى غيرة المرأة على زوجها . ولفتت النظر فى هـذا الصدد

---

(١٠) تلك حقيقة عالمية نعرفها من دراسات علم الاجتمـاع العائلى المقارنة . حيث نلمس أن القاعدة العامة هى فى الماضى والحاضر على السواء اقتران رجل واحد بامرأة واحدة ، أما حالات التعدد فهى لابد وأن تكون نادرة . لأن التكافؤ العددى بين الرجال والنساء يعنى أن رجل يحصل على زوجتين لابد وأن يحرم رجلا آخر من الزواج ، وهكذا . هذا علاوة على أن المستويات الدنيا فى كل مجتمع وفى كل عصر (وهى الأغلبية العددية) لا يستطيع الرجل فيها اقتناء أكثر من زوجة واحدة . انظر حول هـذا الموضوع علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الى ملاحظة غريبة أكدت فيها أن هذه الظاهرة واسعة الانتشار بين الفلاحات الصعيديات ، وأنها لدى المرأة الغيور متكررة بشكل ملفت للنظر أيضا • (ص ٣٩ من الكتاب) •

وتطرقت بعد ذلك الى موضوع تقسيم العمل بين الرجل والمرأة ، فلاحظت أن الرجل هو الذى يتحمل العبء الأكبر والأشق من الأعمال الزراعية • فالعمل فى الحقل هو مهمته الرئيسية • ومع ذلك فان المرأة تساعده منذ شروق الشمس ، ولكن فى بعض الأعمال المعاونة • فهى تختص بجمع « العروق » الجافة (الحطب) ، ورعى الماشية ، والحصول على المياه المستخدمة فى الأعمال المنزلية (مياه الشرب والطهى والاستحمام •• الخ) لأنها كانت تجلب من مصادر خارجية ، وهى النهر أو الترع عادة • ومن ذلك يتضح صعوبة الأعمال التى تضطلع بها المرأة ، وهى فى نفس الوقت العذر الذى تلتمسه بلاكمان للمرأة الصعيدية فى اهمال بيتها ونظافته وحسن أدائها للواجبات المنزلية الخاصة بها كامرأة • وهى تشير بأن ذلك ربما يرجع الى بساطة العمل المنزلى • وان كان الواقع يكذب هذا الاعتقاد • على الأقل من كلامها هى نفسها عن عمل المرأة خارج البيت • أما العمل المنزلى فيكفى أن نشير الى طحن الحبوب بالرحاية ، وعجن الدقيق ، والجلوس أمام الفرن ، وجلب الماء باستمرار للبيت ، وفوق هذا كله ممارسة بعض الصناعات المنزلية (الصناعات التقليدية) كصناعة السلال مثلا • ألا يعنى ذلك كله أن العمل الذى تؤديه المرأة سواء داخل المنزل أو خارجه عمل شاق وصعب كل الصعوبة ؟

بعد هذا انتقلت المؤلفة الى استعراض بعض الملاحظات الخاصة

بالأطفال أساسا ، فبــرز أمام عينيهــا أول ما برز نقص الوعى الصحى (الحديث) لدى المرأة فى تنشئتها طفلها ، وما يتصف به الأطفــال من قذارة واهمال ، وكيف أن تلك العوامل علاوة على الزواج المبكر وعــدم حصول الأم على الخبرة والمعرفة المناسبة لتنشئة الطفل تؤدى الى اصــابة الأطفال بالأمراض ، وتعرضهم للضعف الشديد ، واصابتهم بالعمى الذى لفت نظرها ، كما لفت نظر كل من زار مصر من الباحثين) ، وأخيرا تؤدى الى ارتفاع معدلات وفيات الأطفال فى مصر ، خاصة فى المناطق الريفية . وهى تضيف الى تلك العوامل جميعا نقص المرافق الصحية فى البيت ، فلا توجد دورات مياه ولا مياه جارية ... الخ مما يجعل تحقيق النظافة داخل البيت ، خاصة للأطفال ، عملية شبه مستحيلة .

وتشير بلاكمان فى ثنايا حديثها عن الأطفال الى عاطفة الاحترام القوية التى يحس بها الطفل ، ثم الرجل بعد ذلك ، نحو أمه . وأن احترام الأولاد لأمهم هو فى رأيها من أبرز السمات التى تميز المصرى ، والتى يســهل ملاحظتها لأى باحث عابر . (صفحة ٤٥ من الكتاب) . وأن تلك العواطف القوية المتبادلة هى التى تؤدى الى حالات التعاطف والتعــاون فى أوقات الشدة ، بحيث تجعل الواحد منهم قويا فى مواجهة الشدة ، وغنيــا فى مواجهة الأزمة رغم فقره . (صفحة ٤٦ من الكتاب) .

وقادها الكلام عن الأطفال وكثرة تعرضهم للأمراض الى الكلام عن الطرق المتبعة فى علاجهم ، أى الى بعض أساليب الطب الشعبى . (هــذا مع مراعاة أن المؤلفــة قد خصصت فصــلا مســتقلا للكلام عن الطب الشعبى) . فوصفت أغلب طرق العلاج الطبى الشائعة بالبدائية ، وأشارت

الى أن الأمهات يلجأن الى السحرة لعلاج أطفالهن بعمل الأحجبة وحمل التمائم ... الخ (صفحة ٤٠ ــ ٤١ من الكتاب) (*) .

وتختم بلاكمان هذا الفصل ببعض الملاحظات العامة عن وضع المرأة في المجتمع . فتؤكد أن وضع المرأة في مجتمع الفلاحين منخفضة ومتواضعة الى جانب مكانة الرجل ، وأنها على وجه الاجمال مضطهدة بما تؤديه من أعمال شاقة وما تحمله من واجبات وما هى فيه من حرمان من أهم المرافق والخدمات . ونبهت الى أن رقى أى شعب من الشعوب لا بد وأن يترجم في النهاية بارتقاء وضع المرأة وتحسن ظروفها وسمو مكانتها . واعتذرت بأنها قد نقلت على طول هذا الفصل صورة غير مشرفة لوضع المرأة ، لأنها لم تجد أى جوانب مشرفة في حياتها . وأنها اختارت أن تتحدث عن الأشياء التى أثارتها ولفتت نظرها (وربما رغبة منها أيضا في أن تلفت انتباه المسئولين الى ضرورة تحسين أوضاع المرأة المصرية بوجه عام) . (صفحة ٤٦ من الكتاب) .

---

* ونشير هنا الى ان بلاكمان نفسها قد ساهمت في علاج عشرات الاطفال في اثناء اقامتها بقرى البحث ، فكانت تحمل معها بعض العقاقير والأدوات الطبية البسيطة في حقيبتها . وهذه طريقة هامة لكسب ود السكان المحليين وثقتهم ، والنفاذ الى قلوبهم باسرع طريق . وقد مارسها من قبل عشرات الباحثين الأنثروبولوجيين في دراستهم لبعض المجتمعات البدائية . وقد لاحظ هذه النقطة وقدرها الدكتور على اسلام الفار في حديثه عن بلاكمان ، انظر د. على اسلام الفار ، معجم علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٨٧ وما بعدها .

سابعا ـ الميلاد والطفولة

لقد قدمت بلاكمان معالجة ممتازة لموضوع عادات الميلاد ورعاية الطفل وتنشئته على امتداد الفصل الرابع من كتابها « فلاحو الصعيد » . فبدأت بالاشارة الى مكانة الطفل فى المجتمع المصرى بوجه عام ، والى اهتمام الأسرة كلها بالطفل ، وتفوق مكانة الطفل الذكر على الأنثى بصفة عامة .

ثم بدأت تستعرض عادات الميلاد ابتداء من ظهور أعراض الحمل . وركزت بصفة خاصة على الوحم . فأشارت الى حرص الفلاحات على تعليق صور أشخاص ذوى وجوه جميلة والنظر اليها طوال مدة الوحم لكى تنجب المرأة أطفالا يشبهونهم فى جمال الوجه والشخصية . (١١) والوجه الآخر لهذا المعتقد أن تتجنب المرأة الحامل النظر الى الأشخاص قبيحى الوجه أو المشوهين ، خوفا من أن يولد الطفل على نفس الصورة. كما كن يتجنبن رؤية الميت خوفا من موت الطفل بعد ولادته (صفحة ٦٢ من الكتاب) . ويعرف المعتقد الشعبى بعض الممارسات التى يجب أن تؤدى فى حالة حدوث ذلك فجأة أو عن غير قصد من المرأة الحامل . اذ يكسر العقد الذى ترتديه فى رقبتها ، وتفرط حباته ، ويرش ماء على وجهها . ومع خصوبة الملاحظات التى عرضتها عن الحمل والوحم الا أنها أغفلت تماما الاشارة الى بعض الموضوعات الهامة المتصلة بالحمل : مثل اعلان الحمل ، واكتساب الحامل حقوقا جديدة بعد دخولها فى الحمل ، والأعمال التى تتجنبها الحامل طوال مدة حملها . وطبيعى أن العناصر الأدبية

---

(١١) وقد أشارت بلاكمان الى ملاحظة طريفة حيث كانت الفلاحات الحاملات ينظرن اليها كثيرا لكى ينجبن أطفالا على هيئتها وجمالها . انظر الفصل الرابع من الكتاب ، خاصة ص ص ٦١ ـ ٦٢ .

الشعبية فى مدة الحمل لم تظفر منها بالاهتمام الواجب ، ومنها على سبيل المثال الأغانى التى تغنى للحامل . فقد أشرنا فى موضع سابق الى ضعف اهتمامها بالأدب الشعبى عموما فى دراستها .

وقد حظى موضوع الوحم باهتمام بلاكمان فأشارت الى الفكرة العامة للوحم ، والى خطورة عدم الاستجابة لرغبات المرأة الحامل المتوحمة حيث يظهر شكل المادة التى تتوحم عليها ولا تحصل عليها على جسد الطفل الوليد . من هذا مثلا أن تظهر ثمار الفاكهة على جسم الطفل ، فاذا توحمت على عنب ، تظهر على جسد الطفل حباب عنب ، تتلون بنفس لون العنب فى موسم ظهوره (صفحة ٦٢ من الكتاب) ، وذلك نقلا عن أحد الاخباريين . أما هى نفسها فقد شاهدت وحمة رمان على جسم طفل . وذكرت من الأشياء المشتهاة فى فترة الوحم : اللحم ، والعنب ، والرمان ، والطين (ويسمى طين ابليس) .

وانتقلت بذلك الى الكلام عن عملية الولادة نفسها . فلاحظت حرص أم الحامل وقريباتها على مساعدتها أثناء عملية الولادة ، واستعانتهن بالقابلة فى بعض الأحيان . وأشارت الى أن القابلة اذا حضرت فانها تحضر معها كرسى الولادة (وقد نشرت صورة له ، دون أن تقدم له وصفا دقيقا) . (صفحة ٦٣ من الكتاب) . واذا لم يتيسر الحصول على كرسى الولادة ، فان القابلة تستعين بالغربال ، وهو يؤدى دورا أيضا فى عملية السبوع .

وهناك بعض الممارسات التى تلجأ اليها المرأة اذا تعسرت عملية الولادة ، من هذا أن تزحف المرأة الحامل المتعسرة تحت جمل سبع مرات . ومنها أيضا أن يغسل الزوج كعب رجله اليمنى فى ماء وتشرب الحامل المتعسرة هذا الماء ، ثم يلف القرية سبع مرات دون أن يكلم أحدا . (أنظر صفحة ٦٧ من الكتاب) .

ومع أن المؤلفة قد أجادت في وصف عملية الولادة وشرحت اجراءات مواجهة الولادة العسرة ، الا أنها أسقطت من اعتبارها عديدا من الموضوعات المتعلقة بالوضع مثل : علامات الوضع ، ودلالة توقيت الوضع (العناصر التي يستبشر بها وتلك التي يتطير بها) ، والطعام الذى يقدم للواضعة ، والأذان في أذن الطفل ... الخ . (١٢)

بعد أن يخرج الجنين من رحم الأم ، تقوم احدى النساء الموجودات بقطع الحبل السرى . وقد اهتمت بلاكمان بتفسير المعتقد الشعبى الخاص بالحبل السرى حيث يعتبر « الولد الثانى » ، أو بأنه طفل لم يكتمل نموه وتلك ملاحظة هامة من بلاكمان لأنها تفسر لنا اهتمام الممارسة الشعبية الشديد بالتصرف في الحبل السرى والخلاص . والحرص على رميها فى المياه الجارية ، أو دفنها في مكان بعيد ... الخ . وتتبع المرأة سلوكا معينا ان كانت ترغب في أن ترزق بطفل جديد (وهى حريصة على ذلك دائما) . في هذه الحالة تدفن المشيمة تحت العتبة ، وتخطو فوقها ثلاث أو خمس أو سبع مرات (أهمية الرقم الفردى) لتدخل الروح فى جسدها وتلد مرة أخرى . ويتم دفن المشيمة مع رغيف من الخبز ورطل من الملح توضع جميعا في وعاء من الفخار ، وتغطى بغطاء من الفخار أيضا (يكون وعاء آخر عادة) . ويدفن كل ذلك تحت أرضية البيت لتجنب وصول القرينة اليه . (أنظر صفحة ٦٣ من الكتاب) .

بعد ذلك تتعرض الواضعة حديثا لعديد من الممارسات والقيود التى تستهدف الحفاظ عليها وعلى وليدها . وعلى رأس المخاطر التى

---

(١٢) انظر تفاصيل هذه العناصر فى دليل عادات دورة الحياة الذى قمنا بوضعه مع بعض الزملاء ، انظر ، محمد الجوهرى وزملاؤه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق ، ص ص ٥٨ وما بعدها .

تتعرض لها هى ووليدها فى هذه الفترة عملية المشاهرة • ولهــذا السبب يحظر أن تدخل على الواضعة حديثا أى امرأة فقدت وليدها حديثا (خوفا من موت الوليد الجديد) ، وضرورة اخراج القطة التى فقدت أبناءها فى المنزل (والا مات الوليد ، أو انقطع اللبن من ثدى الأم) ، وعدم الدخول باللحم على الواضعة حديثا قبل مرور ٧ أيام على الوضع (وان حــدث ذلك فان على الواضعة حديثا أن تخــرج من البيت وتخطى اللحم ثلاث مرات) • كما يحظر دخول الزوج غرفة زوجته الواضعة الا بعد انقضاء سبعة أيام على الوضع • (١٣)

وان حدث وخولفت بعض تلك القواعد ، فان هناك ممارســـات مضادة لعلاج ومواجهة الأخطار التى تترتب على ذلك • فالمرأة التى يقل لبنها تخرج لزيارة بعض الحجارة المقدسة فى يوم جمعة ، وتدعو ليعــود لبنها يتدفق من جديد • (١٤) كما تصنع النساء صلبانا من العجين تعلقهــا النســاء الأقبــاط على جدران البيت لاخافة القرنية والأرواح الشريرة بوجه عام • (صفحة ٦٩ من الكتاب) • وتشير بلاكمان الى انتشار تلك الممارسة عند الأقباط فقط •

---

(١٣) أشارت بلاكمان الى أنها لا تدرى ان كانت هذه النقطة شائعة فى كل بلاد الصعيد أم لا ، ولكن الثابت لديها أنها موجودة بالفعل ، حيث تيقنت من ذلك فى حالة معينة . ولكنها لا تستطيع ان تحدد مدى انتشارها أو نطاقه . انظر صفحة ٦٨ من الكتاب •

(١٤) أشار محمد الجوهرى فى دراسته للأولياء الى أن هناك صــورا متعددة لتقديس الأولياء فى المجتمع المصرى ، فهناك الأولياء الأحيــاء والأموات ، وهناك الأولياء الرجال والنساء ، وهناك علاوة على الانســان تقديس لعناصر طبيعية : كالأشجار المقدسة (شجرة العذراء) ، والعيون المائية ، وبعض قطع الحجارة (بعض الحجارة المقدسة فى المنيا) ، وبعض كهوف أو مغارات الجبال . . . الخ . انظر مزيدا من التفاصيل عند : محمد الجوهرى ، علم الفولكلور • الجزء الثانى (دراسة المعتقدات الشعبية) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ (تحت الطبع) .

ومن الطبيعى أن يستأثر السبوع بما يدور حـــوله من طقـــوس ومعتقدات باهتمام المؤلفة . فالسبوع هو أولا مناسبة تلقى الطفل أول حمام فى حياته ، لأنه يحظر غسل الطفل الا بعـــد اتمام ســـبعة أيام من عمره . والقابلة التى ولدته هى التى تقوم بعملية الحمام هذه وتجهز مياه الاستحمال منذ الليلة السابقة على السبوع ، فتوضع فى ابريق خاص الى جوار الطفل والأم . ويطلق على هذا المـــاء : « مية الملايكة » ، ويقصد بالملائكة هنا قرين الزوج ، وقرين الزوجة ، وقرين الوليد . ويزين هذا الابريق بزينات تختلف فى حالة الفتاة من الولد . فبالنســـبة للولد يزين بالسبحة ويوضع عليه منديل أخت المولود . وبالنسبة للفتاة يزين بعقد ذهبى .

ولا يستحم جسم الطفل كله ، وانما يكتفى بيديه ورجليه ووجهـــه فقط . ولا يغسل جسم الطفل كله خوفا من البرد . وقد يؤجل حمـــام الطفل سنوات لهذا السبب . ونحن نستطيع أن نتخيل طبعا الآثار السلبية لهذا الاعتقاد الخاطىء . والطريف أن نعلم أن الماء الناتج عن هذا الحمام يعطى لأحد الرجال فى سن والد الطفل لكى يعيش الطفـــل عمرا طـــويلا كعمر هـــذا الرجل .

وفى عشية السبوع أيضا توضع ثلاث سلال فى كل منهـــا شيء من الملح وسبع أنواع من الحبوب وتترك كلهـــا لتبيت فى حجـــرة الوالدة والوليد . وقد يوضع فى أحدها خبزا على شكل كعك مصنوع من حلقات (شكل دائرى مفرغ الوسط) .

وفى يوم السبوع نفسه يوضع الوليد وبعض الحبـــوب فى غـــربال ويحرك على نحو معين ، ثم ترفع الحبوب ، وتتجول المرأة التى تحمـــل الغربال بالطفل فى المسكن وترش الحبوب وهى تردد « الصـــلاة عـــلى

النبى » . (صفحة ٧٩ من الكتاب) . وتكون القابلة قد كحلت الطفل وألبسته عقدا مكونا من كيس به سبع حبوب وجزء من الحبل السرى وبعض الحبوب المأخوذة من السلال السالفة الذكر .

ويوم السبوع هو يوم تسمية الوليد الجديد . وعملية التسمية هى أهم وقائع هذا اليوم . وتميز فى حديثها بين احتفالات التسمية عند المسلمين والأقباط . فالأقباط يحتفلون ذلك بتعميد الطفل فى الكنيسة ، ويتم الاحتفال بالنسبة للبنت بعد بلوغها ثمانين يوما من العمر ، والولد عند بلوغه أربعين يوما . وتشرح طقس التعميد المتبع فى هذه المناسبة (صفحة ٨٤ من الكتاب) .

أما بالنسبة للمسلمين فيختار الاسم الجديد للوليد بايقاد أربع شمعات تسمى كل منها باسم معين مرشح لاطلاقه على الطفل ، وأحيانا تختلف ألوان الشمعات الأربع ، فتكون كل منها بلون مختلف عن الشمعات الأخرى . والشمعة التى تبقى الى النهاية هى التى يختار اسمها لكى يطلق على الوليد الجديد . وهذا الاسم هو الذى يبلغ للسلطات كاسم رسمى ليقيد فى سجل المواليد . ولا يقام احتفال بعيد ميلاد الطفل الا بالنسبة للأطفال الذين رزق بهم أهلهم بعد انتظار طويل . وتتركز احتفالات عيد ميلاد الطفل فى ذبح ذبيحة ، واقامة وليمة للاحتفال وتلاوة القرآن ... الخ .

وواضح أن بلاكمان قد أولت موضوع السبوع اهتمامها ، وكتبت عنه كتابة مستفيضة وقدمت فيه تفصيلات جديدة وان أسقطت بعض الموضوعات الهامة يتصل أغلبها بالجوانب الأدبية والفنية : كأغانى السبوع ، والأسماء الشائعة والمفضلة ، وأسماء التحقير ، والأسماء المكروهة ... الخ وكلها موضوعات ذات اتجاه أدبى لم يكن يتفق والاتجاه العام للباحثة .

يلى ذلك فى الاهتمام عملية قص شعر البطن ، أى قص شعر الطفل لأول مرة • وهى عملية تحاط بكثير من الطقوس والقيود ، لأن الشعر كما نعلم هو أحد مخلفات الانسان التى ترتبط بوجوده ويمكن لمن يتحكم فيها (بالسحر) أن يتحكم فى الطفل نفسه ، وبالتالى يؤثر على حياته أو مستقبله • والمتبع أن يقص شعر البطن ويوهب لأحد المشايخ (اذا كان الطفل مسلما) أو لأحد القديسين (ان كان الطفل قبطيا) • وفى بعض الأحيان يوهب شعر طفل مسلم لقديس مسيحى والعكس بالعكس • وذلك مظهر من مظاهر تبادل الاعتقاد فى القديسين والأولياء بين المسيحيين والمسلمين •

ولا يوجد سن محدد لقص شعر الطفل ، اذ يختلف التوقيت من حالة لحالة ، ربما حسب ظروف الأسرة • ولكنها عندما تتم تحاط بكثير من القيود • فعند المسلمين يقوم بقص هذا الشعر الأقباط فيقوم بها أحد القساوسة بنفسه •

وتصف بلاكمان مشاهدتها لأحد الاحتفالات لقص شعر الطفل لأول مرة ، فى احدى قرى الفيوم • وأشارت بصفة خاصة الى توزيع خبز ولحم على المشتركين وعلى الفقراء • كما كان من عناصر هذا الاحتفال الغناء والرقص والطبل واطلاق الزغاريد • علاوة على أن الحلاق الذى يقوم بهذه العملية يتقاضى مكافأة مالية كبيرة • ونجد كثيرا من أوجه الشبه بين العناصر الاحتفالية عند المسلمين والأقباط •

ويتم التصرف فى شعر البطن الذى تمت حلاقته بحذر شديد ، حيث يدفن بعناية بقرب مقام الولى أو بالقرب من الكنيسة (صفحة ٨٦ من الكتاب) • واذا كان الطفل عزيزا على والديه (كان يكون قد ولد بعد طول انتظار ، أو ولد ذكرا بعد عدة اناث ••• الخ) فان عملية قص الشعر تتم على نحو مختلف • حيث يحدث أن يترك جزء من الشعر دون

قص (على هيئة شوشه فى وسط الرأس ، أو مقدمتها ، أو على الجانبين) • ويوهب شعر الطفل لولى معين ، فلا يقص الا فى مولد هذا الولى • واذا تعذر الوفاء بهذا النذر ، فان تلك الخصلات تترك لقصها بهذه المناسبة عندما تتاح الفرصة لتحقيق ذلك • وان كانت هناك تفسيرات واحتمالات مختلفة وكذلك دلالات مختلفة لهذه الخصلات • فترك خصلة أمامية فى رأس الطفل يعنى فى الفيوم ــ على نحو ما تروى المؤلفة ــ أن هذا الطفل وحيد • وذلك خلافا لممارسة النذور التى أشرنا اليها •

ومن أوجه الاختلاف بين ممارسات المسيحيين والمسلمين فى عملية قص الشعر أنها تتم عند الأقباط فى توقيت محدد ، بعد التعميد مباشرة • أما بالنسبة للمسلمين فليس لها وقت محدد كما أشرنا • (صفحة ٨٧ من الكتاب) • كما تسبق عملية قص الشعر تحنية يدى الطفل وقدميه قبل يوم الاحتفال بيومين •

وبعد أن تتم عملية قص الشعر لا بد من أن يأخذ الطفل حماما ، ويرتدى طاقية خاصة ، ويركب على ظهر حصان بالمقلوب (أى أن يكون وجه الطفل موجها تجاه ذيل الحصان) ، وتصاحبه الموسيقى الى أن يصل الى مكان الاحتفال فى البيت • وتشرح تفاصيل ذلك (انظر صفحة ٨٨ من الكتاب) • ولم تنشر بلاكمان شيئا عما يتبع بالنسبة لشعر البنات ، خاصة عندما يراد تكثيفه أو جعله ينمو بغزارة ، كأن يقص مرة لينمو بعد ذلك غزيرا ، أو يدهن بطلاء أو نباتات أو عقارات معينة لتحقيق نفس الهدف •

وهكذا نرى أن بلاكمان قد أجادت فى عرض كثير من العادات والمعتقدات الدائرة حول الميلاد والطفولة ، وان كانت قد أغفلت الاشارة الى بعض عناصر هذا الجانب من التراث : فهى لم تشر الى تدريب الطفل على القدرات المختلفة ، كالمشى والكلام ، ولم تناقش موضوع فطام الطفل ، ولا عملية التسنين والظواهر المصاحبة لها ، ولا ألعاب الأطفال ، أو الختان • وطبيعى أنها لم تشر الى أغانى الأطفال ، سواء أغانى هدهدة الطفل ، أو تلك التى يغنيها الكبار للأطفال فى أثناء الملاعبة ، أو التى يرددها الأطفال فيما بينهم أثناء لعبهم •

* * *

ثامنا ــ الزواج

تركزت معالجة بلاكمان لموضوع الزواج والطلاق فى الاشارة الى سن الزواج ، وحرية الفتاة فى الاختيار ، والزواج المفضل ، وحفل الزواج، وسهولة الطلاق وأسبابه •

ففيما يتعلق بسن الزواج لاحظت الحرص على تزويج الفتاة فى سن صغيرة ، بل ان الارتباط يحدث أحيانا على تزويج أطفال عندما يكبرون ويبلغون السن المناسب • ولا تهتم الأسرة اطلاقا بالتناسب بين سن الزوجين ، فيمكن أن يتم تزويج الفتاة برجل فى سن والدها أو جدها •

ولما كان الزواج يمثل رغبة عزيزة لكل فتاة ولأسرتها فان كل أسرة تلجأ الى اجراءات وممارسات معينة لتيسير زواج البنت التى لا يتقدم أحد للزواج منها أو يتأخر زواجها لسبب أو لآخر • ويأتى على رأس تلك الأساليب بطبيعة الحال اللجوء الى السحرة والمشايخ لعمل الأعمال التى تحقق هذا • (عرض لبعض الأمثلة على صفحة ٩٠ من الكتاب) •

أما بالنسبة للزواج المفضل فابن العم هو أفضل زوج لأى فتاة ، اذا كان ذلك متاحا وممكنا • وان لم توضح المؤلفة درجات القرابة الأخرى التى تلى ابن العم ، اذا لم يوجد أو تعذر الاقتران به لسبب أو لآخر •

وتناولت المؤلفة بالشرح المفصل اجراءات الخطوبة ، وحفل الزواج،

وارسال الجهاز ، وموكب العروس الى بيت العـريس ... الخ [١٥] .
واتبهت فى هذا العرض الى بيان الفروق بين المسلمين والأقباط من ناحية وبين الطبقات الاجتماعية وبعضها من ناحيـة أخـرى . وشرحت كذلك الممارسات التى يقوم بها العريس مع أصدقائه لكى يلحقوا به فى الزواج، أو يقـومون هم بها معه لتحقيق نفس الغرض . ولكنها أغفلت فى نفس الوقت الكلام عن المهر ، ودور وسيط الزواج ، والمعـايير التى يجب توافرها فى العروس ، والمواعيد التى يفضل فيها اجراء الخطوبة أو اتمام الزواج ... الخ [٢] .

وبنفس السهولة التى يتم بها الزواج ، بل بسهولة أكبر ، يمـكن فض الخطـوبة أو فض رابطة الزواج عن طريق الطـلاق . وطبيعى أن يلفت هذا الموضوع نظر الباحثة باعتبارها تنتمى الى ثقافة مسيحية تقيد الطلاق تقييدا شديدا أو تحظره تماما . وأشارت الى فرض الزوجة طلب الطلاق ، وأسباب ذلك . كما استعرضت الأسباب التى تدفع الرجل الى تطليق زوجته ، وعلى رأسها عدم الانجاب باعتباره السبب الأول لهـذه الظـاهرة .



(١٥) لم يكن تركيزها متوازنا فى عرض مختلف الموضوعات او تناول مختلف عناصر حفل الزواج . فنراها مثلا اسرفت فى وصف رقص الفتيات فى الحفل (الرقص الشرقى) ، وكيفية أدائه ، ولبس الفتاة التى ترقص ، وتحية جمهور الحفل لها ... الخ ولعل غرابته بالنسبة لها هى التى دعتها الى أن توليه هذا الاهتمام الكبير ، الذى جاء احيانا على حسـاب جوانب اخرى من الحفل التى لم تنل حظها من الوصف والتفصيل . انظر مثـلا صفحة ٩٣ من الكتاب .

(٢) انظر بقية موضوعات عادات الزواج فى محمد الجوهرى وزملاؤه ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مرجع سابق . الفصـل الخاص بالزواج .

تاسعا ــ طقوس الخصوبة

اذا كانت خصوبة المرأة لها كل تلك الأهمية ، لأن عقم المرأة هــو سبب تطليقها غالبا أو سبب زواجــه عليهــا ، فان من المنطقى أن تحظى طقوس الخصوبة بمكانة خاصة فى الممارسة الشعبية ، خاصة عند النساء. وهذا هو موضوع الفصل السادس الذى اقتصرت فيه بلاكمــان عــلى مناقشة هذا الجانب . فأشارت فى البداية الى انتشار طقوس الخصــوبة فى كل ثقافات العالم ، وأننا نستطيع أن نرصد بعض ظواهرها منذ أقدم عصور التاريخ ، حيث تعتمد الحياة القبلية على القوة العــــددية للقبيلة وخاصة من الذكور . ولكن المصريين المحدثين يتميزون علاوة على هذا الاهتمام العام بالخصوبة بحب الأطفال حبا شديدا ، والحرص عليهم أشد الحــرص .

وتلجأ النساء الى عديد من الممارسات كى يرزقن بالأطفال ، فيحملن التمائم خاصــة من الزجاج الأزرق (الخــرزة الزرقاء) . وقد وصفت بلاكمان بعض تلك التمائم التى كانت عبــارة عن بعض البقايا المصرية الفرعونية وتحملها النساء ويعتقدن فى قوة تأثيرها . (أنظر صفحتى ٩٨ ــ ٩٩ من الكتاب) .

كذلك تعتقد النساء فى قوة الآثار المصرية الفرعونية الأخــرى كالأهرامات والمعابد وغيرها من الأطلال . فيذهبن اليها وتدور حــولها السيدة العاقر سبع مرات . وأشارت بلاكمان الى أنها لا تدرى السبب فى ذلك ، ولم تستطع أن تحصل على تفسير معقول (١٦) .

---

(١٦) ليست هذه الظاهرة سمة فريدة للقرى التى زارتها بلاكمان ، ولا هى مقتصرة على المصريات المحدثات ، ولكنها معروفة منذ العصــــور الوسطى . وتسمى تماثيل الفراعنة أحيانا « المساخيط » (أى مخلوقات سخطها الله على هذه الحالة) ، كما يعتقد أن المعابد والهياكل الفرعونية هى مقر للجان والعفاريت والأرواح ، فهى التى شيدتها ، وهى التى يلتمســون منها النفع والمساعدة . انظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجــزء الثانى ، دراسة المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق .

ومن الطبيعى أن قوة المشايخ والأولياء والقديسين تلعب ـ فى نظر المعتقد الشعبى ـ دورا بارزا فى اكساب الخصوبة للمرأة العاقر ، أو المحافظة عليها بالنسبة لمن تملكها بالفعل . وكثيرا ما ترتبط مثل هذه الزيارات لأضرحة الأولياء بنذر نذور معينة توفيها المرأة اذا تحقق لها الانجاب . ويكون النذر عادة عبارة عن ملابس لتغطية ضريح الولى أو للتعليق بداخله ، أو شموع تقاد فيه ، أو زيت للمصباح الذى يضيئه ، أو نقود توزع عند ضريحه أو تقدم لخادمه ، أو طعام يوزع عند ضريحه ... الخ .

وكما أن هناك أولياء ميتون يعتقد أنهم قادرون على تحقيق ذلك ، فهناك أيضا أشخاص أحياء يتميزون بخصائص معينة يمكن التماس بركتهم لاكساب الخصوبة (١٧) . وتشير بلاكمان الى أنهم كانوا يتبركون بها هى نفسها لهذا الغرض . (وهذا أمر مفهوم فى ضوء أن المعتقد الشعبى يضفى على « الغريب » أو « القادم من بعيد » أو « المختلف » سمات وقوى فوق طبيعته) .

وتلعب القبور العادية دورا بارزا فى هذا الصدد ، فالخضة التى تحدثها للمرأة العاقر أو «المتعوقة» تساهم فى علاجها . ولذلك تتردد المرأة على منطقة المقابر ، وتتخطى على مقبرة ، أو ميت ، أو بالذات طفل ميت ، سبع مرات لتحقق هدفها فى الانجاب . وقد قدمت بلاكمان تفسير الأهالى لهذه الدراسة ، اذ يعتقدون أن تخطيتها فوق جثة الطفل الميت تسمح بدخول الروح الى جسم المرأة مرة أخرى ، فيحدث الانجاب . (أنظر صفحة ١٠١ من الكتاب) .

---

(١٧) من هذا مثلا الأولياء الأحياء ، أو المجاذيب ، أو ضعاف العقول ، أو أشخاص عاديون ولكن لهم سمات معينة مثل ذلك الذى يكون عمه خاله ، أنظر المرجع السابق لمزيد من التفاصيل .

ويرتبط بذلك الممارسة الدائرة حول الماء المتخلف عن غسل الميت ، حيث تخطيه المرأة العاقر ، أو تغتسل به لنفس الغرض .

ومن طقوس الخصوبة الأخرى اتباع أسلوب مختلف للدفن لتحقيق نفس الغرض . من هذا مثلاأن يعمد الأقباط أحيانا الى دفن الطفل المتوفى فى لحد ويهال التراب عليه لضمان الحصول على طفل جديد . أو دفن الطفل المتوفى فى وعاء فخارى تحت أرضية احدى الغرف لتحقيق الاخصاب .

وكما أشرنا من قبل الى الحجارة المقدسة التى تزار لمنع المشاهرة للمرأة الواضعة حديثا ، كذلك تزار تلك الأحجار للحصول على طفل . وتزورها المرأة يوم الجمعة وتؤدى عندها بعض الممارسات لهذا الغرض (أنظر صفحة ١٠٦ من الكتاب) .

وتدخل بعض أنواع النبات فى طقوس الاخصاب ، حيث يؤخذ زرع النخيل الذكر الصغير ، ويخلط بالماء ، ثم يشرب وفق قواعد معينة ، فيحقق خصوبة المرأة . وفى أحيان أخرى تستخدم المرأة أحد أجزاء الحيوان لتحقيق هذا الغرض . حيث تأخذ الأم التى تريد انجاب طفل آخر قطعة من جلد ثعلب وتلمسها برأس ابنها الوليد .

والمعروف دائما من دراسة علم الفولكلور أن كل ممارسة ايجابية يمكن أن يكون لها الوجه الآخر السلبى ، فكما أن هناك طقوس للخصوبة ، يعرف المعتقد الشعبى أيضا كثيرا من الممارسات التى تستهدف تعويق الانجاب ، أو منعه ، أو تأجيله . وقد أشارت بلاكمان فى هذا الفصل الى بعض الممارسات التى يدخل فيها زيت الخروع ، أو تلجأ فيها المرأة الى الساحر (وذلك أساسا لعمل « عمل » يعوق امرأة أخرى عن العمل ، وذلك انتقاما منها) . ولكن الطبيعى أن طقوس تعويق الخصوبة أو التقليل منها أقل انتشارا من طقوس الاخصاب التى أسهبت المؤلفة فى معالجتها ، فقدمت اسهاما حقيقيا فى فهمها والقاء الضوء عليها .

عاشرا ـ عادات الموت

قدمت مس بلاكمان معالجة كاملة لعادات الموت والحداد[١٨] • وقد غطت موضوعها بالتفصيل (يمثل الفصل السابع كله من الكتاب) منـذ وقوع حالة الوفاة حتى اجراءات الحداد • ولا عجب فى ذلك فقد أدركت، على الأقل من خلال ثقافتها الواسعة فى التاريخ الفرعونى ، كما أدركت من خلال معايشتها لواقع الفلاحين فى الصعيد مدى احتفال المصريين بالموت واهتمامهم بطقوسه وما يدور حوله من ممارسات • ولا شـك أن فهم موضوع كالموت يعد من أوضح الأمثلة على ما قصدت اليه بلاكمان فى مقدمتها من أن فهم الحياة المعاصرة للمصريين يمكن أن يساعدنا على فهم الصور والنصوص الفرعونية التى نعثر عليها فهما أفضل • فالثقافة الفرعونية قد احتفلت بالموت كما لم تحتفل به أى ثقافة أخرى فى العالم[١٩] ، ومن

---

(١٨) أفدت أعظم الافادة من المادة الوفيرة التى قدمتها الآنسة بلاكمان عن عادات الموت عند اجرائى لرسالتى للدكتوراه ، ويمكن للقارىء أن يرجع الى فقرة عنها فى استعراضى لمراجع تلك الرسالة فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

(١٩) من الواجب أن أردف تلك الحقيقة بملاحظة أخرى مكملة لها ، وهى أن المصريين القدماء لم يكونوا يهتمون بالموت فى ذاته ، ولكن باعتباره هو المقدمة الطبيعية للدخول فى عالم الأبدية ، عالم الحياة الأبدية التى سوف تستمر فى اعتقادهم بعد المحاكمة العادلة فى الآخرة الى مالا نهاية . ومن هنا الاهتمام بالقبور ، وذلك بسبب الحرص الشديد على الجثة ، لكى تعود اليها الحياة . ومادام الانسان سيعيش من جـديد ، فهو فى حاجة الى ثروته وذهبه وأشيائه الخاصة ، فالقبر هو مكان المحافظة على كل هـذا . وقد كشفت الدراسات الحـديثة للدين الفرعونى أن المصرى القديم كان يهتم بالموت من أجل الحياة التى ستأتى بعده وتدوم الى الأبد . وذلك خلافا لما كان يزعم فى الماضى من تأكيد اهتمامهم بالموت وحسب ، فذلك يعطى بطبيعة الحال صورة مغايرة للحقيقة . انظر على سبيل المثال دراسـة حديثة عن الدين المصرى القديم تعد من أفضل ماكتب فى موضوعها حتى الآن :
Siegfried Morenz, Agyptische Religion, Kohlhammer Verlag, Stuttgart, 1960, Nr. 8 in der Reihe, Die Religionen der Menschheit, herausgegeben von C.M. Schroder.

الطبيعى أن تلقى نفس العادات اهتماما مماثلا عن أحفادهم المعاصرين .

وقد بدأت بلاكمان استعراضها لعادات الموت بوصف المشهد الذى يحدث عند وقوع حالة وفاة . اذ يحرص المحيطون بالميت على اعطائه شربة ماء ، ويسعدون لو تقبل ولو رشفة منها . ثم يقوم الموجودون عندئذ بعد أن يتحققوا من الموت ، باغلاق عينى المتوفى وفمه وربط ساقيه . ويعمد أهل الميت الى ذبح حيوان وتلطيخ دمه على المكان الذى وقعت فيه الوفاة، ثم يوزع لحمه على الفقراء . أما من لا يستطيع شيئا كهذا ، فيكتفى بذبح فرخة ، وكذلك بالنسبة للأطفال تذبح فرخة أيضا . ولكنهم يحرصون فى جميع الأحوال على تلطيخ مكان حدوث الوفاة بدم الحيوان أو الطير المذبوح . أما ملابس الميت فانها تنزع عنه قبل الغسل ، وتغسل وتعطى « للفقى » (استخدمت لفظ الفقى للدلالة على الشخص الذى يقوم بالغسل ، والتكفين وقراءة القرآن ، وهذا استخدام غير دقيق ، ولابد من مراجعته ميدانيا)[٢٠] .

ومن الطبيعى أن يعقب ذلك مباشرة الاعلان عن وقوع الوفاة ، وتلك مهمة تتكفل بها بعض النساء الأقارب أو الجيران وكذلك بعض الندابات

---

(٢٠) سوف يساهم فى القاء الضوء على ذلك بحث يجرى حاليا ــ تحت اشرافى ــ عن عادات الموت فى بعض قرى محافظة المنيا ، يعده صاحبه لنيل درجة الماجستير من قسم الاجتماع بكلية البنات ــ جامعة عين شمس . وعند اكتماله سيساهم فى تحقيق واثراء المادة القيمة التى قدمتها الآنسة بلاكمان عن عادات الموت عند فلاحى الصعيد . وفى نيتى أن تجرى عدة بحوث مماثلة على بقية محافظات مصر لتقدم لنا صورة مكتملة عن الموضوع . وجميعها تلتزم فى اختيار القرى المدروسة بتلك التى اختيرت بواسطة أطلس الفولكلور المصرى . وقد شاركت المؤلفة فى أعمال هذا المشروع التمهيدية ، وانتهت الى اختيار القرى التى تجمع منها المادة الفولكلورية جمعا منظما وتعرض على خرائط تمثل الموضوعات الشعبية المختلفة . أنظر تقريرا مفصلا عن هذا المشروع فى : محمد الجوهرى ، أطلس الفولكلور المصرى ، مقال بالمجلة الاجتماعية القومية ، العدد الثالث ، المجلد العاشر ، سبتمبر ١٩٧٣ .

اللائى يدرن فى شــوارع القرية وهن يصرخن ويولولن رافعات أياديهن بمناديل سوداء ، أو زرقاء ، أو خضراء • وبعضهن يلف القرية سبع مرات لهذا الغرض ، وبذلك تأخذ القرية كلها علما بواقعة الموت • فالصراخ هو الطريقـــة المعروفة لاعلان الوفاة ، ولم تشر بلاكمـــان الى طرق أخرى كالمنادى أو المؤذن (الاعلان من على مئذنة المسجد بأن فلان ابن فلان قد مات) •• الخ • (انظر صفحة ١٠٩ من الكتاب) •

بعد ذلك تبدأ عمليـــة تجهيز الميت ، والتسلسل الطبيعى لها يبدأ بالغسل • ويحرص الناس عادة على الحصول على ماء الغسل من مصـــدر خاص (له قداسة أو بركة معينة) ، فيجلبونه من مسجد أو بئر مقدسة أو ترعة منسوبة لأحد الأولياء • وأشارت هنا أيضا الى أن الفقى هو الذى يقوم بالغسل •• ويحصـــل فى مقابل ذلك على ملابس المتوفى والصابون المتبقى من عملية الغسل • والطابع العـــام لعملية التجهيز هو ضرورة انجازها بأسرع مايمكن ، لما نعلمه من أن « اكرام الميت دفنه » ، وكذلك لأن حرارة الجو فى صعيد مصر تحتم هذا الاسراع • وطبيعى أن تتصور أن بلاكمان لم تشهد عملية غسل ، لأنها لم تتحدث عن خطوات العملية ، ولا على الأدعية والنصوص التى تتلى أثناء القيـــام بها ، ولم تتبع كيفية التصرف فى مخلفات الغسل (وان كانت أشارت فقط الى كيفية التصرف فى الصابون) • وتلك جوانب أساسية ومكملة للموضوع •

وتتبع عملية التكفين عملية الغسل • فتوضح لنا المؤلفة أنواع الكفن ، وألوانه ، وعدد القطع • وهى فى ذلك تلقى بالا الى البعد الطبقى ، والبعد الدينى •• الخ المتغيرات التى تؤثر على عملية التكفين • والحديث عن الكفن يؤدى الى الحديث عن « الخشبة » أو النعش الذى يحمـــل عليه الميت من البيت الى القبر • وهـــذه الخشبة محور لعديد من المعتقـــدات

والممارسات الشعبية ، وهى لذلك من القطع غير العادية فى القرية ، والتى يلتفت اليها أى دارس لحياة الفلاحين •

وبعد أن تكتمل عمليات تجهيز الميت تبدأ الجنازة • ويتصل بهـذا الموضوع الكلام عن النعش ، وتزيينه ، وحمله ، وترتيب المشتركين فى الجنازة ، ومشاركة النساء وحدودها ، ومظاهر الحزن المختلفة التى يبديها المشتركون • وهى مظاهر حادة وكثيرة فى الصعيد : فالنساء تصبغ أيديهن ووجوههن وأذرعهن بالنيلة وتضع المرأة الطين على رأسها وصـدرها ، ويلوحن بالمناديل أو « الطرح » السوداء ، وتنطلق حناجرهن بالصراخ بأقصى مايستطعن ، الى حد أن بعضهن يفقدن أصواتهن — مؤقتا — بعد الجنازة من شدة الصراخ والعويل • (أنظر صفحتى ١١١ — ١١٢ من الكتاب) •

ويتصل بالجنازة الكلام عن صلاة الجنازة ، فأوضحت مكانها وزمانها وكيفيتها • والكلام فيها محدد لأن الممارسـة دينية فى طابعها العـام وتفاصيلها وليست فيها اختلافات جغرافية ولا اجتماعية تذكر •

أما الموضوع المرتبط بالجنازة والغنى بالمعتقدات الشعبية فهو سرعة سير الجنازة ، أو كما يقولون سرعة النعش ، على أساس أنهم يتصورون أن السرعة أو البطء ان حدث فهو لثقل النعش أو خفته ، فهى رغبة الميت فى التعجيل بنزول القبر أو رهبته من ذلك وتخلفه وتقاعسـه • ويعرف المعتقد الشعبى المصرى فى كل مكان حكايات لا تنتهى عن النعوش الطائرة، أو تلك التى تسمرت فى مكانها كالصـخر ولم يستطع الرجال زحزحتها لخوف صاحبها من أعماله القبيحة فى الدنيا أو انتظارا لقدوم شخص عزيز عليه لم يودعه (أم أ وأب ينتظرون وصول ابنهم ليودعهم •• الخ) • ويعرف المعتقد الشعبى أيضا عديدا من الأساليب التى تهدف الى معالجة

الموقف والانتهاء بالجثة فى هدوء الى القبر • (من ذلك مثلا الدوران بالنعش عدة مرات بحيث يفقد الميت داخل النعش **الاحساس** بالاتجاه ، فلا يعود يعرف أنه متجه الى القبر ــ وذلك حسب التفسير الشعبى طبعا) •

بعد ذلك يدور الحديث عن القبر نوعه وشكله وهندسته •• الخ • وقد لاحظت بلاكمان أن شكل القبر ونوعه يختلف حسب طبيعة الأرض التى يبنى فيها القبر • فاللحد هو الشكل الشائع فى الأراضى الصحراوية ، أما فى الأراضى الزراعية وبالقرب منها فتبنى غرف تحت الأرض ، تختلف فى حجمها ومساحتها ونوعية مبانيها تبعا للمستوى الاجتماعى الاقتصادى للأسرة • وفى حالة وجود غرف ، فان احداها أو بعضها تخصص للرجال ، ومثلها للنساء •

بعد أن تتم عملية الدفن ينتقل الموضوع تلقائيا الى الحداد وصور التعبير عن الحزن • فيلفت نظر الباحثة مظاهر الحزن الشديد الذى تبديه النساء من نواح ، ولطم ، وصراخ ، وأداء حركات ايقاعية منتظمة بالجسم • فوصفتها جميعا وصفا تفصيليا • وتستمر « المحزنة » فى العادة سبعة أيام أو ثلاثة حسب الظروف • ومادة الاحتفال الرئيسية فى كل ليلة من ليالى المأتم هى تلاوة الفقى لبعض آيات القرآن الكريم (ويحصل فى مقابل ذلك على شىء من المال والسجائر والقهوة) •

وفى اليوم الثالث للوفاة يحضر العريف الى البيت لترتيل القرآن بهدف التأكد من خروج الروح من المنزل • (فى بعض المناطق الأخرى يحدث ذلك فى الليلة الأولى للوفاة ، وليس فى الليلة الثالثة) •

وتلتزم نساء الأسرة ورجالها ببعض القيود فى الملبس والمآكل والعادات الشخصية والاجتماعية طوال فترة الحداد • وقد أشارت المؤلفة

الى بعضــها ، ولم تشر الى البعض الآخر • فلاحظت أن أهل الميت لا يوقدون نارا للطبخ طوال فترة الحداد ، ولكنها لم تشر مثلا الى القيود فى الملبس (من حيث الألوان أساسا) •

وتعد زيارة القبور من أبرز مظاهر تعبير الأحياء عن حزنهم على الميت وتكريمهم لذكراه • ويزور فلاحو الصعيد قبور موتاهم فى اليوم السابع حيث يوزعون « الرحمة » باسم الميت (على روحه) على الفقراء ، وهى تتكون أساسا من خبز أو كعك • وهناك يدعون « الفقى » الى تلاوة القرآن مقابل حصوله على جزء من الرحمة وشىء من المال • وتتكرر هذه الزيارة فى اليوم الخامس عشر واليوم الأربعين •

وعلاوة على هذه الزيارات القريبة على تاريخ وقوع الوفاة ، هناك زيارات دورية تتم بعد ذلك بشكل منتظم ، طالما ظل الأحياء على وفاتهم لذكرى فقيدهم • وتسمى مثل هذه الزيارة الدورية «الطلعة» على الميت• وتتم فى العادة يوم الخميس أو الجمعة (بسبب الاعتقاد بأن روح الميت تحضر الى قبره فى ذلك اليوم) • (انظر صفحة ١١٧ من الكتاب) • وتصحب النساء معها « الرحمة » ومعها شىء من سعف النخيل والحلويات عند الأغنياء • وهناك يدعون الفقى لتلاوة القرآن ، وقد تنهمك بعض النساء فى تكرار مشاهد العويل والصراخ ، خاصة اذا كانت الوفاة حديثة العهد أو الميت عزيزا بشكل خاص • كما تناجين الميت ويسلمن عليــه • وتستمر « الطلعة » نحو ساعتين أو ثلاث ساعات فى كل مرة •

ومع اجادة المؤلفة فى وصف الطلعة وتفاصيلها ، الا أنها تنتبه الى القيام بهذه الزيارات فى بعض المناسبات الدورية المحددة على مدار العام • من ذلك مثلا حرص الناس (النساء خاصة) على الطلوع على ميتهم فى أول رجب ، ونصف شعبان ، وعيد الأضحى ، وعيد الفطر ••• الخ • وتقتصر

بعض الأسر أحيانا على تلك الزيارات الدورية ، حيث لا تسمح لها ظروفها أو أوضاعها للطلوع الأسبوعى المنتظم . ولكن هذه الفقرة جاءت دقيقة مفصلة رغم هـذه الثغرات البسـيطة . ويكفى أن نذكر لها ـ فوق ما سبق ـ التفاصيل والملاحظات الدقيقة التى أوردتها عن مآتم الأقباط ومظاهر التعبير عن الحزن عندهم ، فهى اسهام علمى عظيم الشأن لم تلتفت اليه كثير من الدراسات التى تناولت عادات الموت .

الحادى عشر ـ الاعياد الدورية

أما آخر موضوعات العادات التى تناولتها المؤلفة والتى سأختتم بها حديثى عن هذا الكتاب الهام فهى معالجتها للأعياد الدورية التى خصصت لها الفصل السادس عشر من كتابها . (ص ص ٢٥٢ ــ ٢٦٧) . وقد استعرضت بلاكمان فى هذا الفصل أهم الأعياد الدينية والشعبية .

وقد أولت اهتماما كبيرا لموالد الأولياء باعتبارها تجمع بين الطابعين الدينى والشعبى للأعياد فى وقت واحد . فهى مناسبات دينية ، أو شبه دينية على الأقل ، ولكن مضمونها الاحتفالى شعبى تماما . وقد بدأت هذا الحديث بالاشارة الى مولد النبى (عليه الصلاة والسلام) ، وانتقلت منه الى تكريم الأولياء العاديين ، فذكرت بعض نماذج من الأولياء الكبار ذوى الشهرة المحلية بالتفصيل .

وقد تناول حديثها وصف الضريح ، وزينته من الداخل والخارج ، والخادم الذى يقوم على حراسته وخدمته ، وشعاره المميز (ان كان يرتبط بطريقة صوفية معينة ، وهو الأمر الشائع) . وانتقلت بعد ذلك الى الحديث عن المولد ، من حيث التوقيت ، وعناصر الاحتفال . وقد جاء وصفها لعناصر الاحتفال حيا ومؤثرا وشاملا . ركزت فيه على الجوانب الترويحية أكثر من تركيزها على الجوانب الدينيـة . فوصفت ألعاب المراجيح ، وحلقات المنشدين ، والمغنيين ، والباعة بأنواعهم (خاصة بائعى اللحوم والحلوى الذين يشتد الاقبال عليهم) .

وقد شعرت من زياراتها لعدة موالد أن الجانب الترويحى ، أو لنقل أن الوظيفة الترويحية للولد تتفوق على سائر وظائفه الأخرى (مصطلح وظيفة من عندى) ، وهذا هو سبب اسرافها فى الكلام عن هـذا الجانب على حساب الجوانب الأخرى . ولكنهـا مع ذلك لم تغفل الجوانب

الدينية ، وان كانت قد أغفلت تماما الوظيفة الطبية العلاجية التى يؤديها المولد (علاوة على عمليات الختـــان التى تتم فى المولد ••• الخ) • والحقيقة أن الشكل المهرجانى الذى يتخذه المولد هو الذى يجعل انطباع التسلية والترويح يغلب عـلى الملاحظ الخارجى ، حيث لا تظهر بنفس الوضوح الجوانب الدينية ، والعلاجية ، والتجارية •• الخ التى يتميز بها أى مولد كبير • وبرغم ذلك فحديثها عن الموالد عظيم الفائدة • وهى كذلك لم تنس الاشارة الى مولد مار جرجس كنموذج للاحتفـــالات الشعبية بموالد القديسين • حيث نلاحظ هنا بكل وضوح أن الموالد تمثل مهرجانات شعبية تجمع بين المسيحى والمسلم دون تمييز كبير (خاصة فى المشاركة فى الجوانب غير الدينية للمولد) •

وتناولت بعد ذلك فى مناسبة حديثها عن عيد الفطر الحـديث عن رمضان ومظاهر الاحتفال به وبلياليه • وأشــارت الى مظاهر الاحتفــال بالعيد : كتبادل الزيارات بين الأقارب ، واخراج الزكاة ، وزيارة المقــابر (الطلعة) • والعجيب أنها لم تشر من قريب ولا من بعيد الى كعك العيد ، ولم تتعرض بالوصف لزينة الأطفال : أو انتشار أكلاته وأصناف معينة فى رمضان •

أما عيد الأضحى فأبرز مالفت نظرها فيه هو موضوع الضـــحية بطبيعة الحال • كما أشارت الى مظاهر الاحتفــال به : وهى مرة أخرى الزيارات المتبادلة ، وتوزيع الصدقات ، وزيارة القبور ••• الخ •

ولكن الاسهام المفيد فعلا فى دراستها على طول هذا الفصل فيتمثل فى حديثها عن بعض الأعياد الشعبية المصرية التقليدية : شم النسيم ، وسبت النور ، وأحد السعف ، وعيد الغطاس (والثلاثة الأخيرة خاصة بالأقباط أساسا) •

وقد اهتمت فى مناسبة حديثها عن شم النسيم بتعليق بصـــلة أو مجموعة أبصال على الباب بعد أن يشمها صاحب البيت (المرأة عادة) • كما يعلق البصل أحيانا فى غرفة النوم ، وفى الصباح يقوم كل فرد من الأسرة بشم البصلة ثم يقذفها على نحو معين (من فوق كتفه) • والتفسير الشعبى الذى قدمته هو أنها تذهب بكل الشرور بعيدا عن ذلك الشخص •

ومنذ صباح ذلك اليوم يحرص النـــاس على الخروج من بيوتهم ، ويستحم الرجال فى بحر يوسف لنيل البركة (صفحة ٢٦٢ من الكتاب) • ولكنها لم تشر اطلاقا الى وجود أكلات معينة مميزة ليوم شم النسيم ، كما أهملت الاشارة الى الأبعاد الطبقية والاجتماعية (خاصة الدينية) فى الاحتفال بهذا العيد •

واختتمت المؤلفة هذا الفصل بالحديث عن ثلاثة من الأعياد الشعبية (المسيحية أساسا) وهى سبت النور ، وأحـــد السعف ، وعيد الغطاس (ص ص ٢٦٢ ــ ٢٦٧ من الكتاب) •

الدراسة الثالثة

الفولكلور المصرى . هانز فينكلز
والدراسة العلمية للتراث الشعبي المصرى

١ ــ هانز فينكلر

٢ ــ أهمية الكتاب كمرجع فى دراسة الفولكلور المصرى .

أولا ــ محتويات الكتاب

١ ــ الباب الأول

٢ ــ الباب الثانى

٣ ــ الباب الثالث

٤ ــ الباب الرابع

٥ ــ الباب الخامس

٦ ــ الخاتمة

ثانيا ــ المشكلات المنهجية فى كتاب فينكلر

١ ــ تحديد خطة ذات هدف واضح فى دراسة الفولكلور المصرى

٢ ــ طريقة جمع المادة

٣ ــ المشكلات والصعوبات

٤ ــ استخدام أكثر من منهج فى دراسة المادة التى جمعت .

ثالثا ــ دراسة المحراث

١ ــ النتائج التى ترتبت على دراسة الأنماط

٢ ــ النتائج التى ترتبت على دراسة المفردات

مقــدمة

١ ـ هانز فينكلر :

مؤلف هــذا الكتــــاب هو الألمانى هانز الكســــندر فينكلر Hans Alexander Winkler درس الاستشراق مع التخصص فى اللغة والثقافة العربية على يد المستشرق الألمانى « انو ليتمان » Enno littmann تخرج فى الجامعة فى عام ١٩٢٩ برسالة للدكتوراه عن « الأختام والأشكال فى السحر الاسلامى » ، صدرت فى كتاب عام ١٩٣٠[١] .

ثم بدأ بعد تخرجه يركز اهتمامه على الدراسة فى مصر . فقــام برحلات طويلة ، لا تفصل بينها فترات زمنية طويلة الى مصر وريفها . فلم يعمد الى الاقامة فى القاهرة وغيرها من المدن .

وأخرج فى عام ١٩٣٤ باكورة دراساته الميدانية . وكانت دراســة مونوجرافية عن قرية « الكيمان » التابعة لمحافظة قنا[٢] . وكان قد استطاع فى أثناء اقامته الطويلة بقرية الكيمان أن يقوم بزيارات ويجمــع مادة عن أحد الرجال بقرية « نجع الحجيرى » . وكانت « تلبس » هذا الرجل روح أحد أسلافه من الموتى ، فيصاب بحالة هستيرية ينبىء فيهــا عن الغيب ، ويعالج الأمراض ، ويدل عن رجوع الغائب وموعده ، وما الى ذلك من الأمور التى يلجأ اليه الناس فيها . وأصدر هذه الدراســة

---

(١) Winkler, Hans Alexander, Siegel und Charaktere in der muhammedanischen Zauberei, Berlin, 1930.

(٢) Winkler, H.A., Bauern zwischen Wasser und Wüste, Stuttgart, 1934.

المونوجرافية فى كتـــاب عام ١٩٣٦ يعنوان « أرواح الموتى التى تلبس الانسان »[٣] .

وأخيرا جاء هذا الكتاب الذى نعرض له هنا بعد دراسات ميدانية وخبرة طويلة وعمل شاق متصل فى أعماق الريف المصرى امتد على طول خمس سنوات . جاء كتـــاب « الفولكلور المصرى » مطبقا أحـــدث النظريات وآخذا بأحدث الأفكار فى علم الفولكلور أيامها ، محـــددا الطريق أمام كل من يريد العمل فى ميدان التراث الشعبى جمعا ودراسة[٤]

وقد توفى عالمنا الشاب وهو فى حوالى الأربعين من عمره فى معارك الجبهة الشرقية الألمانية فى سنة ١٩٤٤ .

٢ ـ اهمية الكتاب كمرجع فى دراسة الفولكلور المصرى :

يعتبر كتاب فينكلر هذا أكبر حشد لمادة فولكلورية مصرية بعد كتاب العـــالم الانجليزى « وليام لين » الشهير عن « عادات المصريين المحدثين » الصادر عام ١٨٣٦[٥] . وان كان يتميز على كتاب لين من نواح متعددة :

١ ـ وجود خطة ذات هدف واضح ، بحيث أصبح الكتاب أكثر من مجرد عملية جمع وتسجيل تستهدف التعرف على التاريخ الحضارى والواقع الاجتماعى للشعب المصرى هكذا بصفة عامة . وسوف نعود للحديث عن هـــذه الخطة بشىء من التفصيل عند حديثنا عن منهج تأليف الكتاب فيما بعد .

---

(٣) Winkler, H.A., Diereitenden Geister der Toten, Stuttgart, 1936.

(٤) Winkler, H.A., Agyptische Volkskunde, Stuttgart, 1936.

(٥) Jane, E.W., Manners and Cuestoms of the modern Egyptians. London, 1946.

وقد صدرت ترجمـــة عربيـة لهذا الكتاب أعدها عدلى طاهر نور ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٠ والطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢ ـ اتساع نطاق ظواهر التراث الشعبى التى تعرض لها كتاب فينكلر بالدراسة • ويكفى أن نشير هنا الى مدى الأهمية التى حظيت بها عناصر الثقافة المادية ـ من أدوات عمل وانتاج ـ عند فينكلر •

٣ ـ اتساع نطاق المصدر الذى جمعت منه هذه المادة فشمل مصر من شمالها الى أقصى جنوبها ، ومن شرقها لغربها •

ومهما يكن فى كتاب فينكلر من نواحى نقص أو تقصير ، فقد جعلته المميزات الكثيرة التى يجمعها مرجعا لايمكن الاستغناء عنه لأى مشتغل بالتراث الشعبى ، بل وبالتاريخ الحضارى لمصر • وكذلك للمهتمين بدراسات الفولكلور فى البلاد المجاورة • فهو على سبيل المثال ـ مرجع أساسى فى يد علماء الفولكلور فى دول البلقان ، وهو هام بالنسبة للعاملين فى أطلس الفولكلور لأوربا والدول المجاورة[٦] •

كذلك حقق الكتاب شهرة واسعة بسبب اقدامه لأول مرة على تطبيق مناهج وجدت وطبقت فى أوروبا • نذكر منها مثلا : طريقة أطلس الفولكلور ، فقد كان يعمل فى جمع مادة كتابه فى الوقت الذى كانت تقوم فيه جمعيات وهيئات الفولكلور الالمانى بجمع مادة الأطلس • وهو نفسه الأطلس الرائد بالنسبة لأطالس الفولكلور فى العالم •

ولو قدر لحياة فينكلر أن تمتد لتغير ولا شك مصير دراسات التراث الشعبى فى مصر •

---

(٦) انظر ، محمد الجوهرى ، « أطلس الفولكلور المصرى » ، مقال بالمجلة الاجتماعية القومية ، عدد سبتمبر ١٩٧٣ ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة •

وقد أشــاد العالم الألمانى الأشهر « فيل اريش بويكارت » ــ فى كتابه « الفولكلور » (الصادر عام ١٩٥١) ــ بالمحاولة التى أقدم عليها فينكلر ، وهى تطبيق طريقة الأطلس لأول مرة فى بلد غير أوروبية(٧) .

كذلك كان من بين المناهج الجديدة التى أخذ بها فينكلر فى كتابه الطريقة التى اشتهرت باسم « الكلمات والأشياء » Worter and Sachen وهى التى تستدل من أسماء الآلة أو الأداة على التاريخ الاجتماعى لها ، وتساهم بدور أساسى فى تحديد وابراز المناطق الثقافية .

ولن يتســع المجال هنا لنعدد أشهر الكتابات المشتغلة ــ كلها أو بعضها ــ بالتراث الشعبى المصرى ، والصادرة فى القارة الأوروبية والتى اعتمدت على كتاب فينكلر وأبرزت أهميته(٨) .

اولا ــ محتويات الكتاب

نود أن نعرض لمحتويات الكتاب بشىء من التفصــيل ، رامين من وراء ذلك الى استيضاح مفهوم المؤلف عن دراسة الفولكلور ، والتى تبين الجوانب التى اختصها بعنايته وأولاها اهتمامه ، وتلك التى مر بها مرورا عابرا ، أو أغفلها اغفالا كاملا .

---

(٧) Peuckert Will-Erich und lauffer, Otto, Volkskunde, Quellen und Forchungen Seit 1930, A. Franckeverlag, Bern, 1951.

(٨) نذكر على رأس هــذه المؤلفات كتاب كريس الكبير عن المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى ، أنظر :

Kriss, Rudoff und Kriss-Heinrich, Hubert, Volksglaube im Bereich des Islam, Band I : Wallfahrtswesen und Heiligennenénrung, Oho Harrassawit, Wiesbaden, 1960.
Band II : Zauberei, Wiesbaden, 1962.

وسوف نتناول هذا الكتاب الهام بالتحليل والمناقشة فى الفصــل السادس من هذا الكتاب .

يقع كتاب « الفولكلور المصرى » فى حوالى خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، علاوة على ملحق مكون من ١١٠ لوحة تضم حوالى مائتى صورة ورسم تخطيطى •

١ ــ الباب الأول :

والكتاب مقسم الى خمسة أبواب كبرى • يتناول الباب الأول بعنوان : « انطباعات عامة » شيئا أقرب الى يوميات العالم عن رحلته بين الأماكن التى جمع منها مادته • وهى حوالى ٢٣ قرية ومركز موزعة على الوجهين البحرى والقبلى •

ولعله من الواضح لنا من واقع المستوى العلمى للمؤلف وكتابه ، وفى ضوء الأهداف التى وضعها نصب عينيه أن هذا الجزء لا يمكن أن يعتبر مجرد يوميات أو مذكرات • ولكنه يشمل بالنسبة لنا مفتاحا لفهم وتقييم المادة التى حصل عليها المؤلف • ويوضح لنا طريقته فى جمع المادة ، والصعوبات والمشكلات التى تعرض لها فى دراساته الميدانية • كذلك يتضمن هذا الباب ملاحظات وانطباعات عامة بعين خبير أجنبى يستطيع ــ اذا ماتوفرت له الحيدة العلمية ــ أن يرى أكثر مما نرى نحن ، بسبب توفر البعد النفسى الكافى للملاحظة ، وضيق أو انعدام نطاق البديهيات والمسلمات •

وسوف نورد فيما بعد ترجمة لنموذج من هذا الباب عند حديثنا عن طريقة المؤلف فى جمع المادة •

ومع ذلك فيمكننا أن نعيد فتح باب المناقشة حول نشر ترجمة هذا الجزء ضمن ترجمة الكتاب كله ، التى نأمل لها أن تصدر فى المستقبل القريب • فقد يرى البعض الاستغناء عنها بملخص واف يركز على النقاط المنهجية الأساسية فيها •

٢ ـ الباب الثانى :

أما الباب الثانى فيتناول : « ملاحظات فولكلورية على الفلاحين » ويعتبر فى الحقيقة صلب الكتاب .

وينقسم هذا الباب الى ستة عشر فصلا هى :

الفصل الأول :

عن القمح والخبز . ويتناول أدوات الطحن (الرحاية ، والحجر ، ومدق أو مهراس لطحن الحبوب) . ثم يتناول عليه اعداد الخبز وأشكال الخبز . فيعرض لأنواع الأفران ، والأدوات المعينة فى عملية الخبز وأشكال الخبز ، والمواقد المنزلية (الكانون) . والأوانى التى تستخدم فى تخزين الغلال ، والتبن وما الى ذلك .

الفصل الثانى :

عن مياه الشرب . ويدرس تخزين مياه الشرب فى المنزل ، وتخزينه فى الحقل ، وعملية نقل الماء والأدوات المستخدمة فيها .

الفصل الثالث :

عن المغزل والشعبة أو العود .

الفصل الرابع :

عن الزراعة .

ويتناول فى الجزء الأول منه المحراث (فعرض أشيع صور المحراث، ثم شرح الصور الأساسية الأخرى منه وقد وصل عددها عنده الى خمسة) وخصص فى هذا الفصل جزءا مستقلا سجل فيه على ٦ صفحات ١٨ مفردة تمثل أسماء أجزاء المحراث والناف جمعها من الأماكن المدروسة فى شكل جدول .

ثم تحدث بعد ذلك فى فقرة خاصة عن النتائج التى استخلصها من جمع هذه المفردات .

الجزء الثانى من هذا الفصل عن أدوات تمهيد الأرض وانشاء الخطوط وتعرض فيه للزحافة ، واللوح ، والقصابية ، والفأس .

أما الجزء الثالث : فيتناول موضوع الرى : بالنطالى ، وبالشادوف والساقية ، والطيور .

والجزء الرابع : عن المنجل .

والجزء الخامس : عن درس الحبوب بالعصى ، ووطئها بأقدام المواشى وبأقدام البشر ، ودرسها بالنورج . ثم تناول فى الأجزاء التالية عمليات التذرية وغربلة الحبوب .

وهكذا أجاد فينكلر عرض الأسس المادية الهامة التى تنهض عليها حياة الفلاحين . وقد استطاع فى الجزء السابق كله أن يوجه دائما سؤالا محدد الصياغة ، ويحصل بالتالى على اجابة محددة وشاملة ودقيقة أيضا . ذلك أنه كان يربط أسئلته دائما بأداة أو آلة معينة . ثم أنه كان يشاهد بعد ذلك ـ وأثناء ذلك ـ تلك الأداة بنفسه فيستكمل بملاحظته الخاصة تلك الجوانب الناقصة فى اجابات اخباريته . كما أن رؤيته المباشر للأداة المدروسة تفتح عينيه على مزيد من التفاصيل ، وبالتالى توجهه الى مزيد من الأسئلة وهكذا . والميزة الكبرى للسؤال عن عناصر الثقافة المادية ، ليس فى هذه الدراسة فحسب ، وانما فى كل دراسة فولكلورية ، أن موضوعات الدراسة تكون فى الغالب متداولة فى الحياة اليومية ، تملأ فكر الفلاح وحياته وتشغل كل اهتمامه . ولذلك يتطوع بتقديم كافة

البيانات المطلوبة منه عن طيب خاطر ، دون أدنى حرج ، أو أى سوء فهم لأهداف الباحث •

وبذلك ينتهى الفصل الرابع من الزراعة ، وهو يمثل بدوره حجر الزاوية فى هذا الباب عن الفلاحين • فهو لم يشغل أكبر مساحة من الباب فحسب ، ولكنه أيضا الفصل الذى أفاض فيه المؤلف فى عرض أدق الأدوات والتفاصيل ، وتفوق فيه بالتالى على سائر المؤلفات المشابهة عن مصر •

الا أن فينكلر كان قد عقد العزم منذ البداية ــ وكما يؤكد هو نفسه (ص ١٨٥) ــ على توسيع نطاق الثقافة الروحية ، وفى مقدمته العادات والتقاليد الشعبية • فمثل هذا التوسيع يخدم ولا شك الهدف الأساسى لدراساته وبحوثه كلها ، ألا وهو الكشف عن الأقسام الداخلية التى تنقسم اليها الثقافة المصرية • وهنا تمثل الملاحظات المختلفة للعادات الشعبية بأنواعها أهمية خاصة • ذلك أن العادات والتقاليد يمكن أن تكشف عن بعض أوجه الاختلاف والتباين داخل اقليم معين ، فى الوقت الذى تكون فيه العناصر الثقافية المادية ــ بسبب تفاوت سرعة التغير ــ قد وصلت الى درجة ملحوظة من التجانس •

ويدلل فينكلر على هذه الحقيقة الهامة من واقع أحد الأمثلة المصرية الحية فيقول ، « نلاحظ فى صعيد مصر أن بعض الجماعات البدوية قد تحولت الى فلاحين الى حد بعيد • ومن الطبيعى أنه كان على هؤلاء البدو أن يستعيروا لأنفسهم العناصر الثقافية المادية الموجودة عند الجماعات الفلاحية التى أصبحت تعيش بينها • ومن هذه العناصر المادية : ــ أدوات ومعدات الرى ، والمحراث ، وطرق درس الحبوب ••• الخ تلك الأدوات والمعدات الزراعية التى استعاروها من الفلاحين • ففى هذه

الموضوعات لا تستطيع أن تتبين أى فارق بين الوافدين الجـــدد وبين الفلاحين القدامى المستقرين منذ الزمن البعيد . أما فى العادات ، وخاصة عادات الموت ، وكذلك عادات الزواج والميلاد ، فاننا نستطيع أن نتبـين أوجه الاختلاف بين الجماعتين . فاذا وضعنا ملاحظاتنا عن العـادات الى جانب ملاحظاتنا عن الأشياء ، فانها توسع رؤيتنا وتكمل ما بها من ثغرات الى حد كبير . (ص ١٨٥ من الكتاب) .

ومن الواضح أن جمع البيانات عن العادات والتقـاليد كان أصعب بكثير من جمع معلومات عن العناصر الثقافية المـادية . ويشـير فينكلر بالذات الى ازدياد احتمال الحصول على بيانات غير مكتملة عن هـــذه الموضوعات غير المـادية ، وهو أمر نعتقد أنه مفهوم تماما لكل مشـتغل بالعمل الميدانى . فنلاحظ أولا أننا هنا بصدد تناول موضوعات لا تحظى بنفس الدرجة من الوضوح أو تتخذ نفس الشكل عند سائر الناس ، على خلاف فكرة الناس مثلا عن المغـزل ، أو الفرن ، أو المنجل . اذ يمـكن للباحث أن يحصل على معلومات متجانسة عن أحد هذه الأشياء ، سواء كان الاخبارى الذى تتعامل معه صبيا أو شيخا ، رجلا أو امرأة . فرؤية هذه العناصر الثقافية لا تتأثر كثيرا بالموقع الطبقى ، أو المستوى العمرى للاخبارى ... الخ . أما اذا سألت عن سير عملية الولادة ، وعن العادات والممارسات المرتبطة بالولادة والمحيطة بها ، فانك لا تستطيع أن تحصـــل على معلومات حقيقية دقيقة ومكتملة الا من النســاء المتزوجات . وهنا تكمن احدى الصعوبات الأساسية التى عرقلت عمـل فينكلر . فلم يكن يستطيع لقاء نساء والتحدث معهن حول هذه الأمور بشىء من التفصيل الا فى القليل النادر من الحالات ، وبشكل خاطف . وكان رأيهن جميعا ، وكذلك رأى من سألهم من الرجال حول هذه الموضوعات ، أن هذه أمور لا تخص سوى النساء فقط ، ولا شأن للرجال بها ، ناهيك عن الرجـل الغريب ، فما مبرر اهتمامه بشئون كهذه ؟

وقد صادف فينكلر صعوبة أخرى هامة عند دراسته لموضوع عادات الدفن بالذات . فالمعروف أن كثيرا من هـذه العادات مثل : الغسـل ، والكفن ، والصلاة على الميت ... الخ تحكمها نصوص دينية أو تتم فى الغالب وفقا لتراث الدين الرسمى . ولكن هنـاك مع ذلك كثـير من الممارسات التى تتم على خلاف تعاليم الدين الرسمى الصحيح : كالذبح أمام الجنازة ، أو عند القبر ، أو وضع أشياء مع الميت فى قبره ... الخ . عند هذه الأمور التى تهم الباحث فى التراث الشعبى بوجه خاص ، كان الاخباريون يحاولون تضليله ـ عن عمد ـ بالامساك عن ذكر العادات والممارسات المخالفة لروح الدين الرسمى ، أو ذكر الأصول الدينية على أنها هى العادات التى يمارسها الشعب فعلا .

وقد كان فينكلر على وعى كامل بهذه الملابسات وحاول أن يتجنبها ويقلل من تأثيرها الضار على الدراسة بقدر الامكان ، فـكان يسـأل اخبارييه : « ماذا يفعل الجهلة الذين لا يعرفون تعاليم الاسلام الصحيحة ولا ينفذونها ؟ » . أو يسأل اذا كان يتحدث مع الرجال : « ماذا تفعـل النساء فى هذا الموقف ؟ » أو يسأل الاخبـارى عن الوضع الذى كان موجودا « أيام أجداد أجداده ؟ » وهكذا . وبهذه الطريقة كان يستطيع أن يحصل على بعض التفاصيل عن الممارسات التى تمارس بالفعل ، دون أن يقلل من مكانة الدين الاسلامى فى نظر اخبارييه أو يوحى اليهم أنهم ليسوا ملتزمين بتعاليم الدين الصحيح .

وصادف فينكلر نفس الصـعوبات عند السؤال عن موضوعات الأرواح والعفاريت وما اليها . ففى هذه الأمور أيضا توجد وجهـة نظر محددة للدين الرسمى ، ولكن المعتقدات الشعبية الجارية بين النـاس تختلف عنها فى بعض النواحى . فكان يتعرض لعمليات تضليل متعمد ، يعرفها كل مشتغل بدراسة المعتقدات الشعبية . وتنسحب هذه الصعوبات

أيضا على موضوعات الأشخاص الذين تلبسهم أرواح الموتى ، أو عن التصورات الشعبية للأشكال الموجودة فى القمر ، وعن الشمس ، والنجوم وما الى ذلك .

وتمثل تلك الموضوعات محتويات الفصول من الخامس حتى الثالث عشر من ذلك الباب الذى يدور فيه الحديث عن الفلاحين . حيث تكلم فى الفصل الخامس عن عادات الميلاد ، وعن الختان فى الفصل السادس ، وظاهرة تغيير أسنان الأطفال وما يصاحبها من ممارسات وعبارات يرددها الأطفال والكبار المحيطون بهم ، فكانت موضوع الكلام فى الفصل السابع . وتناول عادات الزواج فى الفصل الثامن ، وعادات الموت فى الفصل التاسع .

وبذلك أكمل فينكلر رحلته مع الانسان فى مراحل تطورها الرئيسية منذ الميلاد وحتى الموت ، وهو ما يعرف باسم دورة الحياة ، فحقق بذلك المهمة الرئيسية لدراسة العادات الشعبية . وانتقل فى الفصول الباقية من هذا الباب الى دراسة أهم ظواهر المعتقد الشعبى . فبدأ بالكلام عن العفاريت والأرواح التى تظهر بعد الموت ، وذلك فى الفصل العاشر من الكتاب . أما الفصل الحادى عشر فقد كرسه لدراسة الأشخاص المجاذيب الذين يتنبأون بالغيب . وتناول موضوع الزار فى الفصل الثانى عشر . وخصص الفصل الثالث عشر لتناول تفسيرات المعتقد الشعبى عند الفلاحين لبعض الظواهر الطبيعية التى يرونها أو تتخيل لهم فى السماء ، مثل : ــ

(ا) الصورة التى فى القمر .

(ب) سطح القمر .

(ج) سلوك الناس عند حدوث خسوف .

(د) التبان أو طريق التبانة .

(هـ) « النجمة أم ديل » .

(و) الشـهب .

(ز) الطيف ... الخ[٩] .

وتابع فينكلر فى الفصل الرابع عشر من كتابه دراسة موضـوعات المعتقد الشعبى ، فقدم فيه اشارة الى « انتشـار الطرق الصـوفية » (ص ص ٢٥١ ــ ٢٥٢) . وقد تناول فيه بكلمة سريعـة انتشار كل من الطرق الآتية : ــ الشاذلية ، والقادرية ، والخلوتية ، والنقشـبندية ، وطرق أخرى . ويتضح لنا من صغر حجم هذا الفصل أنه لم يكن يتعرض للطريقة بصفة عامة ــ من حيث مبادئها وانتشارها وهكذا ــ وانما يقرر مجرد وجودها فى الأماكن التى درسها .

واتساقا مع نفس النهج المنطقى الذى سار عليه فينكلر فى عـرض مادة بحثه عن تراث الفلاحين المصريين نجده ينتقل فى الفصـل الخـامس عشر الى دراسة موضوع هام من موضوعات التراث هى مزيج من العادات والمعتقدات فى الوقت نفسه ، ذلك هو موضوع الثأر .

وقد بدأ هذا الفصل بالاشارة الى انتشار حوادث الثأر الفردية التى تسمع عنها أو قرأ عنها فى الصحف ، ونبه الى أن أكثر ما لفت نظـره فى تلك الحوادث التى وصلته أخبارها هو ذلك الاعداد الطويل والترصـد الحذر الذى قد يستغرق سنوات طويلة (لأن المقتص منه يتخذ حـذره

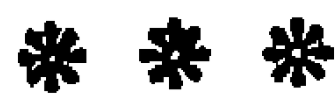
---

(٩) أنظر تفصيل معالجته لهذه الموضوعات فى الفصل الثالث عشر من الكتاب ، الفولكلور المصرى ، ص ص ٢٣٨ ــ ٢٥٠ ، وهى تحتوى على عشرات الظواهر الهامة التى ينفرد بها مؤلف فينكلر بين كل الكتابات الأوربية السابقة عن التراث الشعبى المصرى .

دائما) الى أن يتمكن صاحب الثأر من نيل ثأره مهما بعد عنه المهرب الذى يلجأ عليه خصمه ، ومهما طال عليه الزمن . وأشار الى أن هذه الحوادث تدعونا الى الاهتمام بدراسة تلك الظاهرة ، والى تفهم عمق هذه الممارسة وعمق المعتقدات المرتبطة بها فى نفوس أصحابها . وقد قسم معـــالجته للموضوع الى فقرتين ، الأولى عن الثأر ، والثانية عن « الدية » .

أما المعتقد الأخير الذى ختم به فينكلر هـــذا الباب فيدور حول تفسير أهل الأماكن المدروسة لأصل ونشــأة الوحـدات العمرائية التى يعيشون فيها ، وذلك هو موضوع الفصل الســادس عشر . ولم يكتف فينكلر فى هذا الفصل بالكلام عن أصل بعض القرى التى درسها ـ كما يتصوره أبناؤها ، ولكنه تعمق موضوعه أكثر من ذلك فقدم لنا تصورات أبناء بعض الجماعات المتميزة ، كالفلاحين القدامى ، والفــلاحين الذين كانوا بدوا فى المــاضى ، والحلبية والنور والبهلوانات .. الخ (وجميعهم من الغجر) ... الخ فقدم لنا بذلك اسهاما مفيدا ســوف يلقى أضواء مفيدة أمام من يتصدى لدراسة تلك الجماعات .

وبذلك نأتى على آخر الباب الثانى الخاص بدراسة الفلاحين .



٣ ــ الباب الثالث :

أما الباب الثالث فبعنوان : « ملاحظات فولكلورية على البدو » .
وهو قائم أساسا على ملاحظاته عن « العبابدة » فى الصحراء الشرقية .
ومقسم الى الفصول التالية :

الفصل الأول : موقع المنطقة المدروسة .
الفصل الثانى : الرياح والطقس .
الفصل الثالث : الظروف الطبيعية .
الفصل الرابع : عالم النباتات .
الفصل الخامس : عالم الحيوان .
الفصل السادس : عن أسماء الأماكن .
الفصل السابع : عن أدوات اشعال النار ، وصنع الفحم .
الفصل الثامن : عن الغـذاء .
الفصل التاسع : عن مياه الشرب .
الفصل العاشر : عن المسكن
أما الفصل الحادى عشر : فيتناول بعض الحرف الفنية مثل : الغزل ، ودبغ الجلود وغير ذلك .
الفصل الثانى عشر : عن صيادى العبابدة .
الفصل الثالث عشر : عن تصفيف الشعر وعن الزى .
الفصل الرابع عشر : عن الأسلحة ومعدات الرحلات .
الفصل الخامس عشر : الميلاد .
الفصل السادس عشر : التسـمية .
الفصل السابع عشر : الختـان .
الفصل الثامن عشر : الزواج .
الفصل التاسع عشر : الموت .
الفصل العشرون : الألعـاب .

الفصل الحادى والعشرين : الموسيقى
الفصل الثانى والعشرين : المجتمع والقانون •
الفصل الثالث والعشرين : عن العالم الآخر •

* * *

٤ ـ الباب الرابع :

وهكذا نصل الى الباب الرابع من الكتاب وعنوانه : ـ

« دراسات لغوية عند الفلاحين والبدو » •

وقد حدد فينكلر هدفه من هذه الدراسة ، ووضع حدودها فى الكلمات التالية : ـ

« تحتل التسجيلات اللغوية مرتبة ثانوية فقط فى اطار هذه الدراسة فالهدف هو مقارنة تقسيم الشعب المصرى ـ الذى اتضحت معالمه من خلال دراسة التراث الشعبى ـ بتقسيم اللهجات •

وكانت قد اتضحت لنا بعض الفروق فى اللهجات بين مكان وآخر من خلال استعراض الكلمات التى مرت بنا من قبل كأسماء للأدوات المختلفة وخاصة المحراث •

ونظرا لقصر مدة الزيارات فى كل مكان ، كانت امكانيات اجراء دراسات لغوية محدودة • وقد رأيت لذلك أن أقتصر على جمع أسماء الأجزاء المختلفة للمظهر الخارجى للجسم الانسانى وافرازاته •

وقد فضلت الانسان موضوعا لهذا الاستبيان ، نظرا لامكانية وضوح توجيه السؤال وضوحا كافيا فى كل حالة • وقد سألت بالنسبة

لكل كلمة عن مفردها وجمعها . وكان هدفى من تسجيل صيغة الجمع أن أزيد نطق صيغة المفرد وضوحا ، وخاصة الحرف الساكن المشدود الذى ينطق بسرعة .. ولقد اعتبرت فى المـادة المجموعة أن المفرد والجمع هو ما كان الراوية يعتبره مفردا أو جمعا ، حتى لو كنا نعلم من قبل أن اسما ما مفردا أو جمعا فقط . وقد حدث فى بعض الأحيان أن أعتبـر الراوية صيغ جمع التكسير مفردا ، وذكر صيغة جديدة على أنها الجمع .

واذا ما أصر رواتى ــ رغم التحفظات التى أبديها ــ على رأيهم كنت أسجل صيغة جمع التكسير على أنها مفرد كما يقولون . وقـد سـجلت علاوة على أسماء أعضاء الجسم كلمات : نعم ، ولا ، والآن ... وكلمات النداء ، يا أبى ، يا أمى ، يا ولدى ، يا ابنتى كعينة للكلمات المتداولة .

وقد حرصت على تسجيل النطق بكل دقة ممكنـة ، ولو أننى لم أستطع طبعا تسجيل الدرجات الدقيقة التى يحرص دارس الصوتيات على تسجيلها . وذلك نظرا لأن وقت التسجيل لا يتسع لهذا كمـا أن درجة التعود على الرواة كانت ضئيلة . كذلك لم أعمد الى التوفيق بين المادة المجموعة من مكان واحد ، وذلك للاشارة الى مجال تفاوت النطـق » .

ثم سرد المؤلف الكلمات التى جمعها فى جدول أمام أسـماء القرى والمدن التى جمع منها هذه الكلمات . وذلك على حوالى أربعين صفحة.

ثم عرض نتائج دراسته فى فصل مستقل بعد ذلك ، بعنـوان : ــ « اللهجات التى اتضحت من الكلمات المجموعة وحدودها » .

* * *

٥ ـ الباب الخامس :

تأتى بعد ذلك الى الباب الخامس والأخير من هذا الكتاب ، وفيه بذل المؤلف محاولة جديدة فى سبيل المزيد من دراسة أدوات العمل الزراعى .

وذلك بعنوان : « حول تطور وانتشار بعض الأدوات الزراعية » .

وقد حدد فينكلر بكلمات واضحة هدف هذه الدراسة ، فكتب يقول « يميل الناس دائما الى الحديث عن أبدية الأشياء فى مصر . فيعتقدون أن الفلاح ومحراثه ، وأن الفلاحة وطاحونة اليد التى تستعملها هى هى لم تتغير .

والحقيقة أن وجود الأهرام وغيرها من الآثار الفرعونية يغرى بالاعتقاد بوجود هذا النوع من الاستمرار فى الحضارة المصرية . ولكن لنختبر مدى صحة هذا الزعم من واقع دراسة أهم أدوات العمل الزراعى.

والحقيقة أن لدينا بيانات وشواهد تفصيلية ترجع الى عصر سحيق وأخرى ترجع الى عصر حديث جدا . وهى عبارة عن صور من ناحية ، وكتب رحلات من ناحية أخرى ، تتناول جميعها الحياة الريفية فى وادى النيل . ولكن تفصل بين الفترتين فجوة يزيد طولها عن بضع آلاف من السنين .

ونحن نحاول هنا أن نحدد أى الأدوات والوسائل ظل كما هو لم يتغير منذ العصر الفرعونى حتى اليوم .. وأيها تعرض للتغيير .

وسنحاول بقدر ما نستطيع أن نحدد ــ على وجه التقريب ــ تاريخ ظهور آلات ووسائل فنية جديدة . ولا شك أن تكاثر مثل هذه

التجديدات في عصر معين يعتبر ايذانا ببدء مرحلة جـديدة في التـاريخ الحضــاري •

وليست مصر كما نعلم ، جزيرة نائية عن العالم تنمو حضـارتها من نفس الجذور على مدى آلاف السنين • وان كان موقعها بين الصـحراء والبحار قد كفل لها درجة كافية من الانعزال ، أتاحت لشـعبها أن ينمي شخصيته المستقلة • ولكن هذا الشعب كان كغيره من الشعوب في تعامل مستمر متصل مع الشعوب الأجنبية • فاذا ما أردنا التعـرف على تاريخ أدوات ووسائل فنية معينة في مصر ، فلابد أن نضع أصلا تاريخ هـــذه الأدوات والممارسات أمام أعيننا • فليس تطورها على أرض مصر سوى جزء من هذا التاريخ •

هــذا وقد توفرت أمامنا على مدى الســنوات الماضية دراســات مستفيضة عن بعض الأدوات •

ونجد أن المـادة التي جمعت حتى الآن ــ ســواء من الدراسات الاثنولوجية أو الحفريات المختلفة ــ تعطينا بالنسبة لكل من هذه الأدوات فكرة عامة عن الأشكال الموجودة • وتبين لنا بعض هذه الأشكال بوضوح كيف تطور كل منها عن الآخر ، وبوسعنا نحن تخمين هذه العلاقة بالنسبة لأدوات أخرى •

وقد حاولت قدر استطاعتي أن أحدد عــلاقات أشــكال الأداة أو الوســيلة الفنية ببعضها البعض • ومؤدى ذلك أني اعتبرت من الناحية الفنية الشــكل (ب) عبارة عن استكمال وتطوير لشكل آخر هو (أ) • ومن ثم يمكن اعتبار الشكل (أ) هو الأقدم والشكل (ب) هو المتفرع عنه ، وذلك في شجرة نسب ، ولكن نحب أن نلاحظ أن تسلسل النسب

هذا لا يعطينا بالضرورة التسلسل التاريخى الحقيقى ، وانما هو يوضح كيف خرجت فكرة من الأخرى ، وعملت بعد ذلك على تحـــديد مكان الأداة أو الممارسة المصرية فى داخل تسلسل النسب هذا .

وبهذا يتضح لنا أن هدف هذا العرض هو : ـــ

« رؤية المـــادة المصرية فى مكانها الصحيح فى اطار تاريخ الحضارة العام ، لا فى داخل النطاق المصرى المحدود » .

وتعرض فينكلر بهذه الطريقة لبعض أدوات طحن الحبوب ، وعملية الخبز ، والمواقد ، وأدوات وطرق التخزين ، وأدوات الغـــزل ، وأدوات العمل الزراعى (المحـــراث وأدوات تمهيـــد الأرض ، وأدوات الرى ، والمنجل ، وطرق الدرس وأدواته) .



٦ ـ الخاتمة :

ثم خصص المؤلف الخاتمة لعرض اللهجتين الرئيسيـــتين فى مصر وحدودهما وخصائصهما ، وذلك فى الفقرة الأولى .

وحدد فى الفقرة الثانية من الخاتمة تقسيم الشعب المصرى الى مناطق حضارية على أساس المـــادة التى جمعها وحللها .

ونود ـــ نظرا لأهمية هذه النقطة ـــ أن نورد كلمات فينكلر : ـــ

« يمكننا من واقع مقارنة المـــادة الفولكلورية المجموعة التعـــرف على ست مناطق حضارية كبرى . والمهم بالدرجة الأولى التعرف عـــلى المناطق الثلاث فى وادى النيل وهى : ـــ

١ ــ المنطقة الجنوبية وتبدأ من « غرب اسوان » (أمام اسوان غربا) حتى « نزلة عبدالله » (بالقرب من أسيوط) • وقد سماها جنوب الصـعيد •

٢ ــ المنطقة الوسطى وتبدأ من شمال « نزلة عبد الله » وتصل الى بداية الدلتا ••• وقد سماها منطقة شمال الصعيد •

٣ ــ المنطقة الشمالية وهى الدلتا ••• وقد سماها منطقة وجه بحرى •

وهناك علاوة على هذه المناطق الثلاث •• ثلاث مناطق أخرى خارج وادى النيل هى : ــ

٤ ــ الواحات الخارجة •

٥ ــ بدو العبـابدة •

٦ ــ أنصاف البدو العرب ••• « العزايزة » •

وقد اتضحت هذه الحدود على أساس المقارنات التالية : ــ

أولا ــ فيما يختص بالحد الشمالى لمنطقة جنوب الصعيد عنـد « نزلة عبـد الله » :

ــ الى هنا ينتهى انتشار طاحونة اليـد (الرحاية) ذات الوعاء المصنوع من الطين •

ــ الى هنا ينتهى انتشار أشكال رغيف الخبز •

ــ الى هنا ينتهى انتشار النورج ذو المقعد المجدول •

ــ الى هنا ينتهى انتشار الشوكة (شوكة المذراة) التى لها أكثر من أصـبعين •

ــ الى هنا ينتهى انتشار الاعتقاد بأن ما يرى فى القمر هو شكل نخلة .

ــ الى هنا ينتهى استخدام عبارات استغاثة عامة فى حالات خسوف القمر ، ولا تعرف العبارات الخاصة التى تقال فى الشمال فى هذه الظروف .

ثانيا ــ فيما يختص بالحد الشمالى لمنطقة شمال الصعيد مع الدلتا :

ــ الى هنا ينتهى انتشار المحاريث ذات الرمحين أو الريشتين .

ــ من أول الدلتا يبدأ انتشار « البطانة » .

ــ الى هنا ينتهى انتشار المعتقد القائل بأن سطح القمر عبارة عن « قصعة » .

ومن الواضح أن الفروق هنا أقل حدة منها عند « نزلة عبد الله » ونجد بعض خصائص الدلتا تمتد الى « طموه » (عند الجيزة) وبعضها تمتد الى الجنوب من ذلك .

وفى « طموه » يبدأ انتشار المنجل ذو السلاح الهلالى الشكل والسائد فى منطقة الدلتا ... الخ ذلك من المعالم التى تبرز شخصية هذه المنطقة[١٠] .

---

(١٠) انظر ، فينكلر ، الفولكلور المصرى ، صفحة ٤٥٤ وما بعدها .

ثانيا ـ المشكلات المنهجية
فى كتـــاب فينكلـــر

نود أن نخصص الكلام فيما يلى عن المسائل المنهجية فى كتـــاب الفولكلور المصرى بشيء من التدقيق ٠

١ ـ تحديد خطة ذات هدف واضح فى دراسة الفولكلور المصرى :

شرع صاحبنا فينكلر فى جمع مادة كتابه وفى يده خطة واضحة ذات أهداف وأبعاد محددة ٠ ألا وهى انجاز الدراسات التمهيـــدية لأطلس مصرى للفولكلور ــ على غرار أطلس الفولكلور الألمـــانى ٠ ومما هو جدير بالذكر أنه اتفق وقت اعداد فينكلر لخطة عمله وعمل الدراســات المكتبية الأولية أن كان العمل المصرى يجرى فى ألمـــانيا على قدم وساق فى جمع بعض مواد التراث الشعبى الألمـــانى وفقا لكشف أسئلة يخـــدم أغراض أطلس الفولكلور الألمـــانى ٠ وقد امتدت عملية الجمع هذه على مدى سنوات خمس من عام ١٩٢٩ الى ١٩٣٤ (١١) ٠ وانتهت تقريبـــا فى الوقت الذى انتهى فيه فينكلر من جمع مادته ٠ ولو قدر لفينكلر أن يمتد أجله ، لكان من المحتمل أن تصل دراســـات الفولكلور المصرى الى المستوى الأوروبى الحالى أو ما هو قريب منه ٠ فقد كانت عملية جمـــع المـــادة ضمن اطار أطلس الفولكلور الألمـــانى عملا رائدا يمثل أول حركة جمع ضخمة منظمة للتراث الشعبى فى تاريخنا كله ٠

---

(١١) أنظر محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الأول ، الطبعـــة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ص ٢٣١ وما بعدها ، حيث تطالع فقرة كاملة عن أطلس الفولكلور الألمانى ٠

وقد ذكر فينكلر من أول سطر من سطور كتابه هدفه من الدراسة فجاءت كلماته ترسم علامات راسخة على طريق كل من يهدف الى الاشتغال بدراسة التراث الشعبى المصرى • فكتب يقول : ــ

« قمت بعد أن درست قرية الكيمان فى صعيد مصر عام ١٩٣٢ بوضع الخطة التالية • القيام ببعض الدراسات الاثنولوجية فى عدة أماكن قليلة منتشرة فى جميع أنحاء مصر • وتستهدف هذه الدراسات القيام بملاحظة دقيقة للحياة اليومية للفلاحين والبدو فى هذه الأماكن • على أن تنتهى الى دراسات مونوجرافية تفتح عيوننا على المشكلات القائمة • ثم يوضع على أساس هذه الدراسات المونوجرافية كشف أسئلة يتضمن أسئلة دقيقة عن كل ظاهرة تمت ملاحظتها أو يتوقع وجودها • ثم يتم طبع هذا الكشف ، ويوزع على الموظفين المصريين والأوروبيين ــ الذين يتصل عملهم اتصالا وثيقا بأبناء الريف ــ رجاء استيفاءه • وترسل كشوف الأسئلة المستوفاة الى مركز تجميع واحد • ويقوم هذا المركز بتسجيل الاجابات الواردة اليه من جميع المناطق ، وعرضها على خرائط • وتكون ثمرة هذا العمل فى النهاية أطلس للفولكلور المصرى • ويصبح من الممكن عرض كل أداة عمل ، وكل عادة شعبية فى خريطة مستقلة يتيسر استيعابها على الفور •

ولا شك أن أطلسا من هذا النوع سيكون عظيم الفائدة لأن الحوليات المصورة للتاريخ المصرى تمدنا بمعلومات ذات عمق تاريخى نادرا ما يتوفر لنا فى مكان آخر • ولأن مصر تعرضت على مدى الخمسة آلاف سنة من تاريخها لمؤثرات ثلاث قارات وأثرت هى أيضا فى هذه

القارات الثلاث وسيكون أطلس الفولكلور المصرى المعاصر وسيلة لتحقيق ما يلى : ــ

أولا ــ المساهمة بصفة أساسية فى فهم الحضارة المصرية القديمة وآثارها .

ثانيا ــ تحديد المراحل الكبرى فى التاريخ المصرى ، والتعرف على حركات الشعوب على أرض مصر .

ثالثا ــ الحصول على اشارات وأدلة توضيحية بالنسبة لتاريخ حضارة البلاد المجاورة فى عصور سحيقة .

على أنه لم يكن من الممكن لى أن أضطلع بهذا العمل كله ، فاضطررت الى الاستغناء عن الدراسات المحلية المستفيضةوهى الدراسات التمهيدية لكشف الأسئلة . وقمت بوضع كشف أسئلة صغير ، تناولت بنوده جانبا من أهم الظواهر فى حياة الشعب المصرى . وأخذت أتجول بهذا الكشف عبر البلاد . وكانت حصيلة هذا العمل ، هذا الرسم التخطيطى الأولى للفولكلور المصرى : فقد اتضحت بعض الخطوط الكبيرة وأبرزت معالم صوره (١٢) .

٢ ــ **طريقة جمع المادة :**

ذكرنا من قبل أن فينكلر لم يكن يعمد الى الاقامة فىالقاهرة وغيرها من المدن ، وانما كان يعيش فى قلب ريف مصر . وكان يقيم فى العادة فى بيوت الفلاحين . واذا دعى من جانب أحد البكوات أو الأجانب المستوطنين ، كان يطلب استدعاء الفلاحين أو يخرج هو للقائهم ، ولا

---

(١٢) فينكلر ، الفولكلور المصرى ، ص ١ من المقدمة

يجلس معهم الا على المصطبة طوال الليل فى ضوء القمر ... جلسات طويلة يتسامر معهم ويغنى معهم ويتعرف عليهم عن قرب ، ويحصل فى تلك الأثناء على المعلومات التى يريدها .

أما بالنسبة للبدو فكان يقوم برحلات لمدة بضعة أيام مع قوافلهم عبر الصحراء ، ويعيش معهم ، يرى بنفسه ، ويسمع بنفسه ، ويسأل اذا احتاج فى الوقت المناسب .

على أن ذلك لا يعنى أنه كان يعيش فى بيوت الفلاحين فقط ، وانما كان يحدث فى بعض الأحيان أن تلوح له فرص للمبيت فى فندق فينتهزها . ولكنه يحرص على جمع المادة فى ظروفها الطبيعية بعد ذلك.

وسأعرض فيما يلى لنموذج مفصل من حديثه عن زيارته وممارسته العمل فى قرية غرب أسوان (١٣) ... يتحدث فيه عن طريقة دخوله القرية وبدئه ممارسة العمل فيها ، وكيفية استطاعته خلق علاقة انسانية ناجحة هى ولا شك شرط أساسى لا غناء عنه لمن يعمل فى ميدان التراث الشعبى جمعا أو دراسة . لذلك كان لا يبخل بوقته وجهده فى الحديث عن بلاده وظروفها والحياة فيها ، وعن أسرته وعن أهله . لايمل ولايضجر ظافرا فى النهاية بعائد طيب لجهده المخلص . ولنقرأ فى السطور التالية

---

(١٣) قام الدكتور محمد الجوهرى باجراء دراسة ميدانية حديثة لهذه القرية النوبية ، وذلك بتكليف من كلية الآداب جامعة القاهرة ، انظر محمد الجوهرى ، بعض مظاهر التغير فى مجتمع غرب أسوان ، دراسة أنثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية ، مطبوعات كلية الآداب (٣) ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ . وقد تضمن التقرير المذكور عن الدراسة ست فصول ، تناول أولا استعراض طبيعة الدراسة وأهدافها ، بينما تناول الفصل الثانى الملامح العامة لقرية غرب أسوان ، والثالث النشاط الاقتصادى . أما الفصل الرابع فكان عن البيت النوبى ، واختص الفصل الخامس بالعادات الشعبية ، وغطى الفصل السادس بعض عناصر المعتقدات والمعارف الشعبية .

كلمات فينكلر التى جاءت فى أحد فصول الباب الأول من الكتاب بعنوان « انطباعات عامة » الذى سجل فيه يومياته عن أيام العمل التى قضاها فى القرى والمدن الثلاثة والعشرين موضوع الدراسة .

« .... وراودتنى الرغبة فى مشـاهدة قرية نوبية ، فاتجهت الى النيل .. وهنـاك كانت تدوى طرقات فؤوس نجـارى السـفن ويقعقع صوت المنشار الضخم العمودى الذى يسـتخدمه عاملان معـا . وعلى شاطىء النيل كانت ترقد هياكل ثلاث سفن نيلية ، يجرى العمل فيها (١٤). وبعيدا الى الشاطىء كانت ترسو مجموعة كبيرة من السفن . وبحثت عن المعدية وعبرت النيل الى حيث توجد مجموعة القرى المتناثرة على طـول الشاطىء الى غرب أسـوان . وصعدت (من مكان النـزول عـلى الشاطىء) الى القرية . وعلى رمال الصحراء ذات اللون البنى الرمادى طلائع البيوت . وهى مساكن مبنية من الطوب اللبن ، مستطيلة الشكل، مطلية جدرانها بعناية بطبقة من الطين ، ذات سقف على شكل البرميل . وبعض هذه البيوت مطلى بالجص الأبيض ومزين بحواف زرقاء . ولمـا كانت الصحراء رحبة وفسيحة فلا نرى البيـوت تتلاصـق كما فى قرية

---

(١٤) الشىء الملفت للنظر حقا أن الدراسة الحديثة التى اجريت على تلك القرية (دراسة كلية آداب القاهرة ، التى سبقت الاشارة اليها) لم تتضمن أى اشارة الى وجود صناعة بناء السفن فى هذه القرية . وقد زرت القرية بنفسى مرتين (الأولى عام ١٩٧٤ والثانية عام ١٩٧٨) ولم أسمع عن وجود صناعة للسفن . وقد لفتت دراسة كلية الآداب نظرنا الى تدهور الحرف والصناعات الشعبية التقليدية بصفة عامة ، والى أنه لم يعد يوجد من يشتغل بها على نطاق واسع . وهى الآن عمل تمارسه النسـاء أساسـا ، ومازالت النساء هن المتقنات والمجيدات لهذه الأعمال حتى اليوم . ولكنهن لم يعدن ينتجن للسوق ، بل يصنعن هذه الأدوات لاشباع حاجة الأسرة ، أو الأسرة القريبة والصديقة . أنظر ، محمد الجوهرى ، بعض مظاهر التغير فى مجتمع غرب أسوان ، مرجع سابق ، ص ص ٨١ وما بعدها ، خاصـة ص ٨٢ .

الكيمان • على أنى لم أر انسانا هناك حتى الآن • تجولت فى شـوارع القرية • وهنا وهناك أعثر على مجموعة من الأطفال ، وسرعان ما يجرون من أمامى ، ولكننى لا أرى رجلا أو امرأة • وأخيرا عثرت عـلى غـلام صغير ، كان يرقبنى بدهشة • وسألته عن العمدة • وقادنى الغلام مسافة بشىء من الحذر ، وقال بأدب : ان اليوم يوم السوق (١٥) ، ولا يوجـد أحد فى القرية ، وأنه ينبغى أن أعود فى اليوم التالى • ولما عدت أخذنى العجب حقا ، اذ كان على أن أسير أكثر من ساعة خلال القرية حتى أصل الى بيت العمدة • وأخـذنى العجب أكثر عنـدما تعرفت على شـخص آخر تماما هو عمدة القرية • كان يجلس فى ظل نخلة صـغيرة أمامه دفتر كبير ، وحوله مجموعة من الفلاحين فى ملابسهم الزرقاء ، ويبدو أنه كان مشغولا بحساب الضرائب • وجلست الى جانبه ، وأخـذت أوضح له تدريجيا أننى لم أحضر لشراء أرض او لتجنيد عمال وكل ما فى الأمر أننى أود أن أشاهد قرية نوبية • وهنا ــ كما فى كل قرية بعد ذلك ــ سـألت أول ما سألت عن المحراث • وسار معى أحد الفلاحين لأشاهد محراثه • وتكاثر علينا فلاحون آخرون ، وهنا بدأت أوجه أسئلتى الكثيرة • ولقد كان العمدة ليسعد لو أنى غادرت القرية ، فوجود أوروبى فى القرية أمر غير مألوف • ولا يعرف الانسان ماذا يريد حقيقة انسان كهذا • ولكنى لم أكن قد فرغت بعد من أسئلتى • وعرض على ذلك الفـلاح أن أبيت عنده • والحق أننى لم أكن لأستطيع مواصلة أسئلتى دون توقف ، فكان

---

(١٥) المقصود من تلك الاشارة أن السوق موجود فى مدينة اسوان ، حيث لا يقام فى القرية اى سوق اسبوعى ولا موسمى ، وقد نبه الى هـذه الظاهرة الفريدة وعلق عليها تقرير الدراسة الحديثة عن قرية غرب اسوان ، انظر المرجع السابق ، ص ٧٩ •

على من آن لآخر أن أتحدث عن المـانيا وعن ثلج الشتاء ، وعن الفلاحين الألمـان ، وعن حقـول الشوفان ، وعن البقر والخيـول • وقد أسف المستمعون من أجلنا ، فليس عندما قصب السكر وليس عندنا ذرة ، ولا ينمو عندنا شمام ولا بطيخ ، وليس عندنا جمال تحمل الأعباء الثقيلة ، ولا يرقد فى مياهنا الجاموس • وعندما ذكرت الحصان عنـــدنا بالخير ، لم يستطيعوا أن يتصوروه يقود المحراث ، وعنـــدما تحمست للبطـاطس والحنطة الســوداء بدت لهم ضئيلة لا تغنى • وأهم ما فى الأمر أنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا أن الماء يمكن أن ينهمر من السماء على الحقول ، ولا يتحتم أن يرفع من الأرض • فكانوا يسألوننى فى دهشـــة « أليس عندكم اذن نيل ؟ » وعندما حدثهم عن الشتاء ــ وكم اشتقت اليه ــ وعن الحقول المغطاة بالثليج والمجارى المـائية المتجمدة • وعندما كنت أحدثهم كيف يتساقط البرد فى صمت ــ تماما كزغب الطيور ــ طوال الليل ليغطى قرية بأكملها بالثليج • وعنـــدما كنت أقول لأحدهم : ــ « سوف يتعلق الثلج على شاربك تماما كقطعة الحجر اذا خرجت تتجول خارج منزلك » ••• عندما كنت أحدثهم عن الغابات العريانة أو عن أشجار التنوب المحملة بالثلج ، عندما كنت أحدثهم عن كل هذا كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون: يا سلام !••• سعداء بأنهم يعيشون على النيل المعتدل الوفير الخير لا فى مروجنا القليلة الخير ، ثم يشرعون يحدثوننى عن طيب خاطـر عن عملهم وعن عاداتهم •

ودخل الليل ••• وأوقدت النار فى الميدان الفسيح أمام المنزل الذى أبيت فيه ، فأحدثت قرقعة بهيجة ، وأفاضت من نورها عـلى وجـــوه الحاضرين • وأحضرت النساء لنا طعام العشاء ، وكن يجلسن طوال اليوم

غير بعيد عنا ، ينصتن الى حديثنا • وأرونى سـلالا ملونة ، وطواحين يدوية (رحاية) ، وأفران الخبز وكل ما سألت عنه • وقد كان جميلا حقا ، تلك المشاركة الطبيعية من جانب النساء فى حديث مع الرجال • ففى الكيمان لم أكن ألتقى الا مع الرجال ، أما النساء فكن يجرين فزعا عندما أصل الى حيث هن ••• فقد كان عارا أن تتحدث المرأة الى رجل غريب •• كما لو كان الرجل الغريب حيوانا غامضا وخطيرا •• وهكذا شعرت بالعرفان لوجود أو حتى القرب من هؤلاء النسوة والبنات السمراوات الضاحكات المثرثرات ، فالنساء فى كل مكان هن ملح المجتمع • وتصنع هؤلاء النسوة النوبيات من القش الملون سلالا وأوعية رائعة الجمال ويفضلن فى ملابسهن الأهداب الملونة • وأبرز ما فى الأمر الوشم الكثير فى وجوههن غير المحجبة •• ويطرزن لأزواجهن حمالات سراويل جميلة •

وقضيت الليل على مصطبة كبيرة فى حجرة خاصة ، ونظرت الى أعلا الى سقف الحجرة المقبى الفريد الشكل ، كما لو كنت فى قبو أو فى معبد صغير • وفى الصباح المبكر رافقنى صاحب المنزل الى شاطىء النيل ، فصعدت فى مركبه وقام أبناؤه بالتجديف لى حتى الشاطىء الآخر • لقد سعدت بضيافة الرجل العجوز ، وسعدت عندما قبل منى هدية الضيافة عند الوداع • وفرد الصغار الشراع ودفعنا ريح الصباح فوق ماء النيل ذى اللمعة الذهبية الى جزيرة بحاريف • ولدى مغادرتى المركب جلست برهة مع الغلامين فقد كان لا يزال فى جعبتى بعض الأسئلة لهما • وعندما أردت اشعال غليونى ، طلبت من أحدهما وسيلة لاشعالهما فقدم لى ولاعة أوروبية ، وكان فخورا بذلك • وأراد الشاب الطيب بكل الحاح أن يهديها لى ، ورأيت فى وجهه أنه لا يحمل غرضا آخر فى نفسه ، ولم أقبلها

بالطبع ، ولكن مجرد تفكيره فى أن يهديها لى غمرتنى السعادة . وواصل الشابان رحلتهما وهما يلوحان لى حتى مسافة بعيدة [١٦] .

على أن صاحبنا فينكلر لم يكن يسترسل فى عملية الجمع هكذا دون توقف أو مراجعة . وانما كان ينتهز بين الحين والآخر فرصة اقامة طيبة مريحة (فى فندق أو دار ضيافة) ليراجع المادة التى جمعها ، ويدرك قبل فوات الأوان اذا ما كانت هناك مادة ناقصة أم لا . وما اذا كانت هناك حاجة الى سد ثغرات معينة فى كشف الأسئلة أصلا . (ولننظر على سبيل المثال مطلع حديثه عن زيارته لأدفو ، على صفحة ٢١ من الكتاب).

هناك نقطة أخيرة أحب أن أشير اليها قبل أن نفرغ من هذا الموضوع . وهى خاصة باعتماد فينكلر بدرجة شبه أساسية على الهدايا فى كسب ود من يتعامل معه من الناس . ولعل الظروف أيامها تختلف عن الأوضاع الآن . فقد كانت السلع الأوروبية شيئا عزيزا . ومن أنواع الهدايا التى أشار الى أنه قدمها : البرتقال والسجاير . ولكنه كان يقول فى أماكن أخرى كثيرة : « قدمت له هدية » دون تحديد لنوعها .

ورأيى أنه بالنسبة لنا نحن أبناء الشعب نفسه فلا داعى لأسلوب الهدايا المكلفة أو تقديم نقود . ولا داعى بصفة عامة لأى سلوك يجعل الدليل يطمع فى الباحث .. وبوسعنا أن نستبدل هذا بالكلمة الطيبة والحوار الذكى المؤثر ، مع امكان تقديم بعض الهدايا الرمزية الرخيصة التى لا تثير أى طمع .

---

(١٦) أنظر فينكلر ، الفولكلور المصرى ، ص ص ٥ ــ ٧ .

٣ ـ المشكلات والصعوبات :

من الطبيعى أن يتعرض العمل الميدانى الشاق الذى قام به فينكلر لكثير من المشكلات والصعوبات • فلا يمكن أن يعفيه من هذه المشكلات والصعوبات اعداد مكتبى جيد للعمل الميدانى ، أو حبه الكبير للشعب المصرى الذى يعمل مع أفراده • والعلاقات الانسانية معرضة دائما لأخطاء سوء الفهم ، والمفاجآت السيئة غير المتوقعة وغير ذلك •

فحدث له فى أكثر من حالة أن لفظه أهل القرية أو عمدتها • فلا يصح أن نتصور مثلا أن الأرض كانت مفروشة أمامه بالورود لأنه « خواجه » أو لأنه يقدم هدايا • وفذكر على سبيل المثال طرده من احدى القرى (١٧) • كما أثار حوله رجل فى البلينا ضجة كبيرة (١٨) • اذ دخل معه فى حوار عن الدين وأصر أنه هو وكل المسيحيين سيدخلون النار • وحاول فينكلر كل جده أن يخفف من غلواء الرجل وتعصبه ، ولكن دون جدوى • فتكهرب الجو الذى كان فينكلر قد مهده فعلا مع بعض الناس هناك • واضطر الى مغادرة المدينة بعد أن انفض من حوله الناس •

كما حدث فى حالات غير قليلة أن كان أهل القرى يسيئون الظن به ، أو يعتقدون أنه يقوم بعمل آخر • فظنوه على سبيل المثال جاسوسا ، أو تاجر أراضى ، أو باحث عن كنوز ، أو مهاجر ، او لاجىء • وواضح طبعا ما يمكن أن يترتب على سوء الفهم هذا من متاعب وتعويق للعمل • وقد عانينا نحن أبناء هذا البلد من صعوبات من هذا النوع • اذ ساهم كاتب هذه السطور فى عام ١٩٥٨ فى اجراء بحث ميدانى عن عمال البناء فى مدينة القاهرة • وكانت الوحدة قد تحققت منذ وقت غير بعيد وشاع

---

(١٧) انظر المرجع السابق ، ص ص ٢١ ـ ٢٢ •

(١٨) المرجع السابق ، صفحة ٣٢ •

بين هؤلاء العمال أننا بصدد اختيار بعضهم للتهجير الى سـوريا • الأمر الذى أدى الى محاولة كثير منهم اعطاءنا بيانات خاطئة عن ظروف حياتهم الاقتصادية وغير ذلك • ويحتاج هذا بالطبع الى مناقشات طويلة بهـدف تصحيح هذه الفكرة ، وخلق جو طبيعي للعمل • وقد يضطر الباحث فى بعض الأحيان الى ترك الحالة تماما اذا تعذر ذلك • كما يحدث اليوم عند محاولتنا التقاط بعض الصور فى الريف أن يظن الناس أننـا صحفيين أو مصورى تليفزيون ، فيحاولون ابعاد الأشـياء « القبيحة » أو « غـير الجديرة بالتصوير » ، وابراز ما هو « جميل » ••• الخ ذلك من الأمثلة التى يتعذر حصرها فى مثل هذا المجال •

وهناك نوع آخر من المشكلات يعرفها حقيقة من سبق له العمـل الميدانى فى الريف • فقد كان يحدث أن يلقى فينكلر فى بعض الأحيـان ــ وخاصة من الأفندية فى المدن والمراكز ــ معاملة طيبة وحفاوة أكثر من اللازم • كانت تتحول الى تعطيل له عن عمله • اذ يصر هـذا الشخص الطفولى على فرض البيانات والمعلومات التى يرى هو أنها صحيحة ، أو أن تلتقط كل الصور له ولأفراد أسرته ولمنزله الجميل وأدواته الأنيقة •• الخ • كما يعمل على الحيلولة بينه وبين رؤية فلاحين أو الحديث اليهم • ونذكر هنا مثلا زيارته لأخميم حيث قضى المدة وغادر المدينـة دون أن يتمكن من تحقيق هدفه (١٩) •

بقى أن أشير الى نوع آخر من المشكلات يمكن القول بأنه لا ذنب فيه للناس الذين نتعامل معهم • ويرجع أصلاً الى انخفاض مستوى بعضهم فكريا وعدم انتمائهم لنفس الاطار التعليمى للباحث ، وعدم القدرة على

---

(١٩) الفولكلور المصرى ، ص ٣٠ •

التجريد بنفس كفاءته . وأذكر هنا مثال محاولته جمع المفردات من أحد الشبان الفلاحين . وأفضل أن أعرض المشكلة بكلمات فينكلر نفسه

« لقد كان شابا طيبا ، ولكن ذا مستوى فكرى منخفض . وكان غبيا عند عملية تسجيل المفردات بصفة خاصة . فكنت اذا سألته ، ما هذا ؟ وأشرت أثناء ذلك الى عينى . أجاب بالكلمة العربية المطلوبة بسهولة . وعندما سألته عن كلمة « مخ » قائلا له : ما هو اسم الشيء الأبيض الذى تجده فى رأس الشاه عندما تفتحها ؟ أجاب بالكلمة المطلوبة قائلا ، « مخ » ، ثم أسأله : ولكن يا على محمود اذا كان هناك كثير منها : فماذا تسميها ؟ ويرد على بابتسامة مهذبة : « أنه لا يوجد فى رأس الشاه سوى مخ واحد فقط » . وأعود الى حكاية الشاه من جديد وأسأله : اذا فتحت رؤوس خمسة خراف ووضعت الأشياء البيضاء الموجودة فيها على لوح ، فماذا تسمينها ؟ « انها خمس ...؟ » . ومن حسن الحظ أن قال صيغة الجمع المطلوبة فعلا . وقد كنت أخشى أن يرد قائلا : أنه لا يمكن أن يفتح رؤوس خمسة خراف أبدا . والحق أننى قد لاحظت هذا العجز عن التجريد فى أسئلتى عن صيغة الجمع فى الأماكن التى درست فيها [٤٠] .

٤ ــ استخدام اكثر من منهج فى دراسة المادة التى جمعت :

عمد فينكلر الى دراسة المادة التى جمعها بالطريقة السابق شرحها مستخدما فى ذلك عدة مناهج . رغبة فى اختبار دقة كل منهج بالآخر والاستيثاق بقدر الامكان من صحة النتائج النهائية العامة .

---

(٤٠) المرجع السابق ، ص ١٦ .

ويمكننا أن نوجز فى كلمات أهم هذه المناهج فى معالجة المادة وهى : طريقة دراسة الأنماط Typology . وهو يعرض هنا فى مقدمة عامة للنمط الذى يعتبر أكثر الأنماط شيوعا فى مصر كلها . ثم يعرض فيما بعد لكل من الأشكال المغايرة الأساسية . مبررا نواحى الاختلاف بينها وبين هذا النمط الشائع ، الذى يعتبر ـ اذا أردنا الدقة ـ نمطا وهميا ، شأنه شأن خط الاستواء فى الجغرافيا ، وضع لتسهيل عملية القياس لا أكثر . ويمكن على هذا الأساس تحديد المناطق الثقافية . فتعتبر الحدود بين منطقة انتشار نمط وآخر ، حدودا ثقافية يمكن اذا تأكدت من دراسة عدة ظواهر (مثلا : أدوات العمل ، والعادات ، والعمارة الشعبية) أن تعتبر مناطق ثقافية ذات شخصية واحدة متميزة . ويجرى تقسيم الشعب أو المنطقة الكبرى بأجمعها الى مناطق ثقافية رئيسية أو فرعية تبعا لمدى كثافة هذه الخطوط ـ أقصد خطوط الحدود الثقافية ـ ونرجىء حديث الخريطة الثقافية الى مقال آخر ، مكتفين هنا بعرض تطبيق فينكلر لفكرة الخريطة الثقافية فى دراسة المحراث . وهو الآلة التى حظيت بأكبر قدر من اهتمامه من حيث الجمع والدراسة .

على أننى أريد أن أؤكد أن دراسة الأنماط هذه ـ على أهميتها الكبرى وفائدتها التى لا يرقى اليها شك أو يقلل منها تحيز وخاصة فى مجال دراسة أدوات العمل ـ لا تمثل سوى جانبا واحدا من جانبى الدراسة الفولكلورية . فالجانب الآخر وهو العلاقة بين الآلة والانسان الذى يستخدمها ـ سواء كان هذا الانسان الفرد الذى يستخدمها أو المجتمع الذى نعيش فيه ـ يجب أن يحظى بنفس القدر من الاهتمام ، فهو قادر على امدادنا بنتائج لها نفس الوزن .

الطريقة الثانية التى اتبعها المؤلف فى معالجة المادة هى دراسة المفردات . وقد أشرنا فيما سبق الى أنه قد خصص فى فقرة المحراث ـ فى الفصل الرابع من الباب الثانى جزءا مستقلا سجل فيه على ست صفحات

١٨ مفردة تمثل أسماء أجزاء المحراث والناف . وقد عرض المادة فى جدول تمييزه الرأسى أسماء الأماكن المدروسة الثلاثة والعشرين ، وتمييزه الأفقى أسماء هذه الأجزاء الثمانية عشرة .

وقد استفاد بنتيجة هذه الدراسة فى تأكيد نتيجة دراسة الأنماط ، وتحديد مناطق فرعية أخرى داخل المناطق الرئيسية . وذلك على أســاس تشابه أكبر عدد من المفردات فى المنطقة . وسنرى تطبيق هذه الطريقة فى حديثنا فيما بعد عن دراسته للمحراث .

وعلاوة على هذا استخدم فينكلر جمع المفردات فى أغراض أخرى. منها مثلا التعرف على المؤثرات الأجنبية . اذ يمكن تحديد أصل أســماء بعض القطع . وقد أشار الى احتمال كون بعضها فعلا تحريفات لأســماء ايطالية ، أو مصرية قديمة أو عربية ... الخ ، على نحو ما سنرى فيما بعــد .

كذلك ساعدته دراسة المفردات فى التعرف على هجرة الأنماط المختلفة من مكان لآخر . وذلك من خلال دراسة انتشار هذه الأسماء ، والعلاقة بينها وبين الأجزاء التى تطلق عليها فعلا . فاذا وجدنا مثلا أن اسما معينا يطلق فى احدى القرى على الجزء « أ » ثم يطلق هذا الاسم نفسه عــلى الجزء « أ » أيضا فى قرية أخرى وان كان له شكل آخر ، معروف تاريخيا أنه أحدث . لدلنا هذا على أن الشكل الأقدم للجزء « أ » كان موجودا من قبل فى القرية الثانية . ثم جاء الشكل الأحدث فغزاه وحــل محله . ولكن الناس احتفظت بالاسم القديم .

وأفضل سبيل فى نظرى لفهم هذه الطرق المختلفة فى الدراســة أن نعرض لها فى التطبيق على دراسة ظاهرة موضوع محدد ملمــوس . وقد اخترت دراسة فينكلر عن المحراث كنموذج تفهم من خلاله هذه المناهج ، على اعتباره الآلة التى حظيت بأكبر قدر من اهتمامه .

ثالثا ـ دراسة المحراث

وقد بدأت هذه الدراسة بعرض أكثر أنماط المحراث انتشارا فى مصر • ويتكون من « الوش » وهو مستو وعريض الى حد ما •ويركب « السلاح » ـ المصنوع من الحديد ـ فى مقدمة الوش • ويثبته بالمسامير • ويزال الخشب من الناحيتين فى مؤخرة الوش ـ فى الثلث الأخير تقريبا ـ بحيث يمكن وضع « الريشتان » (أو الرمح) • ويتم تثبيت الريشتان والوش معا بواسطة أطواق حديدية • وتربط الريشتان معا من أعلى بواسطة قبضة أو « يد » أفقية • وينتهى الطرف الأخير للوش بخابور سميك • ويربط « القوس » (أو القصبة) بهذا الخابور بواسطة طوق حديدى يثبت حوله • كما يثبت القوس بالوش أيضا بواسطة « العمود » (أو البلانجة) • ويوجد فى الطرف العلوى للعمود عادة ثقبان أو أكثر فى اتجاه أفقى بالنسبة للقوس • ويوضع فى هذه الثقوب « وتد » لامكان تثبيت القوس على ارتفاعات مختلفة • ويصنع العمود عادة من الخشب ، أو من الحديد كما هو الحال فى الدلتا مثلا • وهناك خابور أمام العمود وظيفته سند القوس (أو القصبة) • ويوجد بالقوس فى الطرف الأمامى ثقب رأسى • ويتم اطالة القوس بواسطة قطعة من الخشب منحنية قليلا الى أعلا • وتثبت هذه القطعة الاضافية فى القوس بواسطة خابور طولى ويربط بالحبال • ويوجد بالقطعة الاضافية ثقبان أو ثلاثة • ويدخل فى أحد هذه الثقوب خابور عرضى • ويتم تثبيت الناف فى امتداد القوس ـ واذا لم يكن موجودا ففى القوس نفسه ـ وذلك بواسطة أنشوطة خاصة فوق هذا الخابور العرضى •

أما « الناف » فيحمل فى أقصى طرفيه خابور طولى متجه الى أسفل • وبعد مسافة الى الداخل ـ تتسع لرأس الجاموس الذى سيجر المحراث ـ يوجد خابور طولى آخر أقصر منه • ويوجد فى منتصف الناف ـ فى كثير

من الحالات ـ خابور ثالث أو « ابرة » جديدية • وذلك بهـدف منـع الناف من الميل الى ناحية معينة •

ويمكننا أن نوجز فيما يلى الصور المختلفة لهذا الشكل من أشكال المحـراث :

١ ـ المحراث ذو القوس والرمحين • وهو اما :

(ا) أن يكون بعمود واحد كالذى وصفناه بأعلا •

(ب) أو بحبل يصل الرمح بالقوس •

(جـ) أو بعمودين •

(د) أو برمح أمامى بعض الشىء •

٢ ـ المحراث ذو القوس والرمح المشقوق •

٣ ـ المحراث ذو القوس والرمح الواحد • وممـــا هو جـدير بالملاحظة أنه لا هذا النوع ، ولا الذى سبقه يعرف امتداد القوس •

٤ ـ المحراث ذو القوس المتشعب والرمح الواحد • وقد سـجل فينكلر هذا النوع فى قرية كمشوش التى تبعد حوالى خمسين كيلومتر الى الشمال الغربى من القاهرة • ولعلنا لاحظنا فى جميع الأنمـاط التى ورد ذكرها حتى الآن أنها تشد بواسطة حيوانين • أما هـذا النمط فهو الوحيد الذى يقوده حيوان واحد فقط • وهو يصلح بصفة خاصة لأعمال فلاحة الحدائق •

٥ ـ المحراث ذو القوس المنحنى والرمح الواحد • وقد سـجل فينكلر هذا النوع فى بلبيس بالشرقية • ويختلف هـذا النوع اختلافا

كاملا عن الأنواع التى أشرنا اليها حتى الآن • فالقوس هنا ـ ومعذرة لهـذه المفارقة ـ مقـوس فعـلا ، وليس مستقيما كما كان فى الأنواع السابقة • وهو مثبت فى وسط وش المحراث مباشرة أما الرمح فمثبت فى الوش خلفه بكثير[٢١] •

١ ـ النتائج التى ترتبت على دراسة الأنماط :

حاول فينكلر أن يحدد معالم المناطق الثقافية داخل الشعب المصرى على أساس نتائج دراسة الأنماط • فكتب يقول : « اتضـحت لنا على الفور لدى تأمل أنواع المحاريث المختلفة الحدود الفاصلة التى تشـطر مصر الى قسمين كبيرين :

(أ) جنوب القاهرة وعلى طول الوادى الضيق حتى أسـوان نجد المحراث ذا القوس والرمحين •

(ب) شمالى القـاهرة حيث ينتشر فى الدلتا المحراث ذو الرمح الواحد أو الرمح المشقوق ، سواء كان بقوس مسـتقيم أو منحنى » •

٢ ـ النتائج التى ترتبت على دراسة المفردات :

وقد استخدم فينكلر طريقة أخرى لالقاء مزيد من الضـوء على مسائل : الحدود الثقافية ، والمؤثرات الحضارية ، وهجرة بعض أشكال المحاريث من منطقة لأخرى • وقدم جدولا سجل فيه أسماء أجزاء المحراث فى الأماكن التى درسها • وليس هذا مجال الخوض فى مزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع ، ولكننا نود الاشارة بسرعة الى أن المؤلف قد استطاع أن يطبق بنجاح أسلوب دراسة الكلمات والأشياء على الواقع المصرى •

(٢١) وقد أفاض المؤلف فى الشرح بالكلمة والصورة فى حديثه عن هذه الأنواع ، وذلك من صفحة ١٤٦ حتى صفحة ١٦٣ من الكتاب (الفولكلور المصرى) •

وقد استطاع بفضل نتائج هذه الدراسة اللغوية أن يدعم التمييز بين الوجه القبلي والوجه البحري ، وهو الذي توصل الى تحديده على أساس نتائج دراسة الأنماط ، كما تمكن علاوة على هذا من تعيين مزيد من الحدود الثقافية داخل نطاق هذين القسمين الكبيرين .

١ ــ ولنبدأ بجنوب الصعيد ، فنرى بادىء ذي بدء شريطا ممتدا من « بحاريف » حتى « كلح » ذا اصطلاحات متأرجحة ، ويبـــدو ذلك واضحا فى الأسماء التى تطلق على الرمح ، فتوجد الى جانب الاسم : « ريجيل » الاسم « خد » و « غافينه » المعروف من المنطقة الشمالية ، وتتمثل وحدة هذه المنطقة ازاء المناطق الشمالية فى الاسم الذى يطلق على الوصلة بين القوس والناف وهو : « هورا » و « عورا » .

٢ ــ تأتى بعدها منطقة ثانية ذات طابع موحد تقريبا وتمتـــد من « نواصير » الى « أولاد عمران » ، ومما يميز هذه المنطقة اسم الخابور الخارجى فى الناف : « غيلله » ، والاصطلاحات غافينه للرمح ، و «ديره» للوصلة بين القوس والناف .

٣ ــ تأتى بعد ذلك منطقة ثالثة ، وهى تشبه المنطقة الأولى من حيث كونها منطقة انتقال ذات اصــــطلاحات متأرجحة ، وتمتـــد من « العزبة » الى « جولوصانة » ، ومن المسائل التى تســـتلفت النظر الأسماء المختلفة ليد الرمح ، فتسمى : دبه ، بيه ، يد وقبضة ، والعجيب فعلا تحول : كراجه الى قراجه ، وجيله الى قيله ، أى تحـــول الكاف فى الحالة الأولى الى قاف ، وتحول الجيم فى الحـــالة الثانية الى قاف ، وتتحول هنا « قفينه » الى « قبينه » ، وتبدو فى شمال هذه المنطقة آثار منطقة خاصة متميزة : ففى ملوى وجولوصانة يطلق على وصلة القوس اسم « هيم » ، فى مقابل كلمتى كراجه وقراجه المنتشرتين الى مسافات

بعيدة • في اتجاه الجنوب • ويسمى الخابور الطولى في وصلة القوس « أبو القرون » في ملوى ، « وقرين » فى جولوصانة • وتصل الى المنطقة كلها — من ناحية الشمال — الاصطلاحات « باجروم » للعمود و «جنافه» للخابور الخارجى فى الناف •

٤ — بعد هذا تبدو لنا منطقة رابعة شديدة الوضوح من واقع المادة اللغوية • وهي تشمل « منعريش » و « فيديمين » وهى تتميز بالكلمات : « حجر » للقوس ، فى « سفيط » لوصلة القوس « ضنض » للناف • وتصل الى هذه المنطقة من الشمال كلمتا « بصخة » للوش ، و « سلاح » للسلاح •

٥ — ثم تظهر عند « طموه » من جديد منطقة انتقال • وتلتقى هنا كلمتا « ريشة » للرمح « وناف » للناف القادمتين من الدلتا وكلمة باجروم للغمود القادمة من الجنوب •

٦ — وتبدو أخيرا منطقة الدلتا كآخر مناطق وادى النيل ذات حدود شديدة الوضوح تتميز بكلمات « قوس » للقوس المنحنى ، والقوس الطويل ، وريشة « ورمح » للرمح ، وبلانجة للعمود ، « وينتوت » للخابور العرضى فى القوس والناف للناف •

٧ — فلاحظ فى واحة الخارجة أن المحراث لازال يمثل أداة خفيفة وبدائية ، فهو أقل أهمية بالنسبة لفلاحى الواحات عنه فى وادى النيل • ولذلك نجد أن أسماءه ومصطلحاته تتصف بفقر واضح • وتدعونا هاتان الظاهرتان الى اعتبار الخارجة منطقة ثقافية مستقلة •

حقيقة أن الهدف الرئيسى من وراء صف هذه المفردات فى جدول هو القاء مزيد من الضوء على حدود المناطق الثقافية • ولكن لا شك أيضا فى أن هذه الكلمات جديرة بأن تسترعى اهتمامنا فى حد ذاتها •

وقد حاول فينكلر على هذا الأساس استيضاح بعض المؤثرات من حضارات قديمة أو أجنبية . فوجد أن هناك بعض المصطلحات التى تبدو غير عربية . وأشار بصفة خاصة الى الكلمات : « جيلة » و « كراجة » .

ثم هناك علاوة على هذا بعض الكلمات التى تبدو ذات أصل مصرى قديم . مثل « باجروم » التى تطلق على العمود ، « وينتوت » للخابور العرضى فى القوس . ولو أنه يجزم بأن كلمة « ينتوت » هذه لابد وأن تكون كذلك ، اذ توجد بجانبها الكلمة بدون أداة تعريف أى « أتنوت » .

أما الكلمات « بلانجة » و « بيلينجة » فيبدو أنهما صادرتان عن الكلمة الايطالية bilancia أو أى كلمة رومانية أخرى . والحق الذى يجب أن نقرره فى هذا الصدد أن المؤلف كان فى كل محاولاته هذه شديد الدقة والحذر بعيدا كل البعد عن التورط فى أحكام عامة لا قبل له بها .

كذلك استطاع فينكلر من خلال مقارنة المفردات فى جدوله هذا أن يخرج ببعض الملاحظات المفيدة عن هجرة بعض الأنماط من منطقة الى أخرى . وهنا يمكن أن يطلق نفس الاسم على قطع مختلفة فى مناطق مختلفة . من هذا مثلا كلمة « بصخة » التى تدل فى المنطقة شمال منعريش على الوش ، وفى العزبة وفى « أولاد محمد » على الخابور الطولى فى وصلة القوس . ثم كلمة غراب التى تدل فى مناطق واسعة من الجنوب على نقطة وصل القوس بالوش ، وفى « أولاد عمران » على العمود الثانى ، الذى يحل هناك محل نقطة الوصل هذه . وفى الخارجة على وصلة اطالة القوس . ولا داعى للاسترسال فى عرض مزيد من الأمثلة ، اذ أننا نهتم هنا بابراز المنهج فى المقام الأول .

. . وقد لاحظ أيضا أنه يطلق على القوس فى بلبيس اسم « قوس » كما يطلق نفس الاسم على القوس فى ثوب وكمشوش حيث لا نجد قوسا منحنيا ، وانما قوسا مستقيما • وتدلنا هذه التسمية على أن المحراث ذو القوس المنحنى كان موجودا هنا من قبل • ولنذكر فى هذا الصدد أن المحراث ذو القوس المنحنى يسمى فى بلبيس «محراث فلاحى» • بينما يسمى المحراث ذو القوس المستقيم هناك « محراث باشاوى » • الأمر الذى يدلنا على أن المحراث الذى نسبه الفلاح الى نفسه ــ وهو المحراث ذو القوس المنحنى ــ أقدم ، أو على الأقل أوسع انتشارا وأقرب للفلاح من المحراث ذى القوس المستقيم •

ويشير المحراث ذو القوس المنحنى بوضوح الى اليونان وايطاليا حيث يعيش هناك منذ عصور موغلة فى القدم • فاذا وجدنا الكلمة الرومانية « بلانجة » تطلق على العمود ، أمكننا أن نعتقد أنها قد ارتبطت بهذا النوع من المحاريث ، وهو المحراث المميز لمنطقة البحر المتوسط •

ولما كنا نلتقى بهذا المحراث فى جميع أنحاء الدلتا فمعنى ذلك أنه كان منتشرا فى الماضى فى الدلتا كلها • ومما يميز المحراث ذو القوس المنحنى ، ومعظم محاريث الدلتا أيضا كونها ذات رمح واحد • ويعتبر المحراث ذو الرمح المشقوق « توليفة » بين النوع الصعيدى ذى الرمحين والنوع البحرى ذى الرمح الواحد •

ومن الملاحظ بالنسبة للمحراث ذى الرمح الواحد أن ــ الفلاح لايمكن أن يقوده وهو سائر خلف المحراث • فلابد أن يسير بجواره ، ويوجهه بيده اليمنى • ومن العجيب هنا أننا نجد ــ حتى منعريش ــ الفلاح يسير بجوار المحراث كما هو الحال فى الدلتا • فهو لا يستغل ازدواج الرمح هنا بأن يضغط بكلتا يديه • وانما يسير بجواره محراثه

كما لو كان ذا رمح واحد • أليست هذه عادة قديمة ترجع الى عهد كان المحراث ذو الرمح الواحد منتشرا فيه هناك ؟ وألم يكن هذا المحراث ذو الرمح الواحد محراثا ذا قوس منحن ؟

وهكذا يكمننا أن نوجز الصورة العامة : وهو أنه عندما يتغير شيء ما ـ كأن يتحول القوس المنحنى الى « قوس » مستقيم فان الكلمة تظل عالقة بالشيء الجديد • اذ رأينا القوس المستقيم الجديد قد احتفظ بكلمة « قوس » رغم أنه مستقيم • وحتى اذا نسيت الكلمة أيضا ، نجد العادة متشبثة بالبقاء كأقوى عناصر التراث ، كما رأينا فى عادة توجيه المحراث بيد واحدة فقط •

هذا عرض موجز لأهم المشكلات المنهجية فى كتاب فينكلر الذى تميز على كل ما سبقته من الدراسات المكتبية أو الميدانية فى الفولكلور المصرى بشمول النظرة الى التراث الشعبى المصرى • فلأول مرة يجمع بين تناول الثقافة المادية والثقافة الروحية ، ويخضع الجميع لنفس المناهج ويستفيد منها فى تدعيم النتائج العامة لدراسته • ومما هو جدير بالذكر أنه جمع معلومات وبيانات عن الحرف المختلفة ، وعن ألعاب الأطفال وأغانى الأطفال وغير ذلك مما لم يجد له متسعا فى الكتاب • ولعل عدم معالجته مثل هذه الموضوعات يرجع الى نقص الدراسات الأولية فيها •

ولعلنا نذكر لفينكلر بالخير أنه كان يحس بعاطفة حب صادقة نحو أبناء هذا الشعب من الفلاحين ، الأمر الذى حماه هو نفسه من أخطاء التحيز ، ونقائص الكراهية أو الاحتقار التى نعرفها من بحوث بعض المستشرقين الآخرين •

* * *

الدراسة الرابعة

محاولات فينكلر لعمل أطلس فولكلور مصرى

أولا ــ مقــدمة

ثانيا ــ المحاولات السابقة على فينكلر

ثالثا ــ دراسات فينكلر من أجل الأطلس :

١ ــ خطة فينكلر فى دراسة وجمع المادة وعرضها

٢ ــ البعد المكانى والبعد الزمانى كأساس للاختيار ٠

٣ ــ الثقافة المادية والثقافة الروحية كأساس للاختيار فىجمع المادة

٤ ــ طريقة عرض المادة ٠

اولا ـ مقـدمة

أشار محمد الجوهرى فى دراسته لتاريخ الأطلس المصرى الفولكلور الى أن دراسات الفولكلور العلمية الحديثة فى مصر ترتبط أوثق الارتباط بألمانيا دون سائر بلاد القارة الأوربية والعالم الغربى على وجه العموم[1] فبغض النظر عن دراسات الانجليزى وليم لين الرائدة ، ودراسات غيره من الانجليز ومن الفرنسيين للتراث الشعبى المصرى وخاصـة التجميعات القيمة التى خلدوا بهـا أسماءهم ، فان دفعة البحث العلمى الكبرى والمعلم البـارز فى تاريخ البحث الفولكلورى العلمى الحديث ترتبط ولا شك باسم الألمانى هانز الكسندر فينكلر .

ولا يقتصر فضل فينكلر على أنه أخرج لنا مؤلفات ضخمة فى فترة قصيرة نسبيا ، وانما فى أنه كفل لها القدر الأكبر من الحياد وسـعة الأفق والدقة العلمية . حيث ارتقت أعماله الى مسـتوى لم تبلغه دراسات أى من الباحثين الأوربيين من قبله . والذى يهمنا هنا أن فينكلر كان أول من دعا واعيا الى انشـاء أطلس مصرى للفولكلور . واعتبر مؤلفه الضخم « الفولكلور المصرى » ـ الذى عرضنا له فى الفصـل السابق ـ مجرد دراسات تمهيدية لذلك الأطلس . غير أن ظروف فينكلر الخاصة ، وموته المبكر حرم دراسات الفولكلور ، لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع ، من عالم قد كانت ستؤدى جهوده ولا شك الى تغيير مسيرة هذا الفرع من الدراسات فى هذه المنطقة من العالم .

---

(۱) انظر محمد الجوهرى ، أطلس الفولكلور المصرى ، مقال بالمجلة الاجتماعية القومية ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ . ويعتمد هـذا الفصل على دراسة قدمتها المؤلفة بنفس العنوان لهيئة بحث أطلس الفولكلور المصرى الذى أجراه المركز القومى للبحوث الاجتمـاعية والجنائية تحت اشراف الدكتور محمد الجوهرى .

ولم يكتب بالطبع لأفكار فينكلر أن تجد من يتابعها ويعمــل على هــديها ، فلم تتوفر بين المصريين أنفسهم العنــاصر التى كانت تســتطيع الاضطلاع بعبء هذا العمل ، الذى لا يمكن فى الأصـــل أن يتم ويثمر الثمرة المرجوة دون جهودهم •

وفى هذا الفصل سأتناول فى فقرة مستقلة المحاولات السابقــة على فينكلر باشارات سريعة ، ثم أركز فى الفقرة الثالثة على دراســات فينكلر من أجل الأطلس •

***

ثانيا ـ المحاولات السابقة على فينكلر

لم تعرف مصر محاولات جادة فى ميدان علم اللغة لانشاء أطالس لغوية ، كان يمكن الاستهداء بأسس عملها منهجيا وبخبراتها ، أو الاستعانة بنتائجها ومقارنتها بنتائج العرض بالخرائط لعناصر التراث الشعبى . فمجال العرض بالخرائط مفتقر كل الافتقار الى التقاليد والى الخبرات السابقة .

واذا رجعنا بضع خطوات الى الوراء لنصل الى القرن التاسع عشر فاننا نجد كثيرا من العلماء والدارسين الذين سبقوا فينكلر الى الاهتمام بدراسة التراث الشعبى . الا أن بعض هؤلاء كانوا ينظرون الى المجتمعات الشرقية (فى مقابل المجتمعات الغربية) على اعتبارها وحدة واحدة تتميز بخصائص ثقافية متميزة ، مثل الدوق بوكلار Bückler وكثير غيره من الرحالة ذوى الاهتمامات الفولكلورية . فقد كانت تشغل هؤلاء دائما المقابلة بين « المجتمعات الغربية » و « المجتمعات الشرقية » .

تأتى بعد ذلك دراسات العالم الانجليزى ادوارد وليام لين E.W. Lane وأهمها بالنسبة لنا كتابة « المصريون المحدثون . عاداتهم وشمائلهم » ، الذى صدر فى طبعته الأولى فى لندن عام ١٨٣٦ . وبرغم قدم هذا الكتاب النسبى فهو يعتبر مرجعا أساسيا لاستقراء كثير من العادات والممارسات الشعبية والمعتقدات ... الخ بسبب براعة مؤلفه ودقة ملاحظته ، هذا الى جانب انفراده فى هذا المجال . حيث لا يوجد مؤلف مصرى ولا أجنبى زخر بكل هذا الحشد الهائل من المادة الفولكلورية سواه . ولكن ما دمنا نركز هنا على الضبط والاحكام ، فيجب أن نعيب على لين عدم الاهتمام بالبعد المكانى للمادة التى أوردها . فقد ركز دراسته على القاهرة ، وأعتقد بذلك أنه يستطيع أن يعمم

الدراسة حتى تشمل مصر بمختلف أقاليمها . أى أنه اعتبر مصر وحدة واحدة ذات خصائص مشتركة .

أما الباحثة الانجليزية الآنسة بلاكمان Blackmann فقد اختصت الصعيد بدراستها . اذ أصدرت فى عام ١٩٢٧ كتابا بعنوان « فلاحو الصعيد » (٢) . وهى بهذا تمثل نظرة جديدة فى هذا الصدد . فبعد أن كان الكتاب ينظرون الى الشرق كوحدة واحدة ، أصبح بضهم ينظر الى مصر وحدها ، وأخيرا استطاعت بلاكمان أن تنظر الى الصعيد كوحدة واحدة تستحق دراسة مستقلة . ورغم أننا لا نسلم بهذا التقسيم على عواهنه ، الا أن هذه الدراسة قد أوضحت قضيتين أساسيتين : الأولى أن هناك ثقافة خاصة بالفلاحين ، والثانية أن هؤلاء الفلاحين اذا نظرنا اليهم من منظور جغرافى تاريخى فاننا نستطيع أن نميزهم عن سواهم من الفلاحين بحكم موقعهم الجغرافى وظروفهم التاريخية والاجتماعية .

ويجب ونحن بصدد استعراض الجهود التى بذلت فى دراسة الفولكلور دراسة علمية الاشارة الى الباحث المصرى محمد جلال تلميذ عالم الاجتماع المشهور مارسيل موس Mauss والمستشرق الكبير لوى ماسينيون L. Massignon فقد قام بدراسته للشعائر الجنائزية فى مصر المعاصرة ، واستقى مادته من محافظات الشرقية ، والجيزة ، وأسيوط ، واسوان ، والقاهرة (٣) . وقد جمع مادته من المحافظات على اعتبارها أكثر تمثيلا لبقية أنحاء القطر المصرى دون أن يفسر لنا ما هو المقصود بذلك ، ودون أن يشير الى المنهج الذى اتبعه فى هذا الاختيار .

---

(٢) أنظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .

ومع ذلك فان جلال اكتفى بذكر هذه الحقيقة فى المقدمة • أما فى عرضه للمادة فقد وصفها دون تحفظ ، وكأن مصر وحدة ثقافية واحدة ، اللهم الا فى حالات استثنائية • فكان يذكر على سبيل المثال أن هــــذه العادة تمارس فقط فى الصعيد أو فى الوجه البحرى أو غـير ذلك • وقد ترتب على هذا صعوبة تكوين صورة عن عادات الموت فى كل محافظة عــلى حدة • ومن البديهى أيضا أنه لم يوضح الاختــلافات داخل كل من ذلك المحافظات • كذلك لم يحاول جلال الاستعانة بالخرائط فى عرض نتــائج دراسته ، أو استعراض مادته • وفى النهاية يجب الاشارة الى أن هــذه الدراسة الحديثة ــ نسبيا ــ كان يجب أن تأخذ بأحدث المناهج خاصــة وأنها صدرت فى باريس سنة ١٩٣٧ • ولكن للمؤلف بعض العذر حيث كانت دراسة الاثنولوجيا فى هذه الفترة تخضع لتأثير مدرســة دور كيم خضوعا كاملا •

---

(٣) Galal, Moh., Essai d'Observation sur les rites funéraires en Egypte actuelle, relevés dans certaines regions campagnardes, Paris, 1937.

ثالثا ـ دراسات فينكلر من اجل الأطلس

أما العالم الألماني هانز الكسندر فينكلر فقد فطن الى أهمية دراسة الفولكلور دراسة علمية تستند على منهج دقيق يتصف بالضبط والاحكام • ذلك لأن هدفه البعيد كان انشاء أطلس فولكلور مصرى يوضح المناطق الثقافية التى ينقسم اليها الشعب المصرى ، مع محاولة تحديد مؤثرات القارات الثلاث على أرض مصر ، وأثرها هى الأخرى على شعوب تلك القارات • وخاصة وأن مصادر التاريخ المصرى تمدنا بمعلومات ذات عمق تاريخى يمتد الى حوالى الخمسة آلاف سنة • ولا شك أن مثل هذا العمل يساعدنا على تحديد المراحل الكبرى فى التاريخ المصرى ، والتعرف على حركات الشعوب داخل مصر • ولكن هل استطاع فينكلر أن يحقق كل هذه الأهداف ؟ ذلك هو ما سنحاول الاجابة عليه فى سياق هذه الفقرة •

١ ـ خطة فينكلر فى دراسة وجمع المادة وعرضها :

ان من يلقى نظرة على انتاج فينكلر فى الفترة الوجيزة التى عاشها يدرك أن هناك هدفا واضحا كان يحرك كل الدراسات لتى قام بها ، فقد كان يهدف الى انجاز الدراسات التمهيدية لأطلس الفولكلور المصرى على غرار أطلس الفوللور الألمانى • فبدأ يعمل دراسات مونوجرافية حتى يتيسر له فهم مختلف الظواهر الى جانب فهمه للشعب المصرى موضوع الدراسة • فبدأ بدراسة مونوجرافية عن قرية « الكيمان » استطاع من خلالها التعرف على الكثير من خصائص ثقافة المصريين التقليدية (٤) • هذا الى جانب توجيه معظم دراسات فينكلر فى المستقبل • واذا رجعنا الى كلمته فى هذا الصدد وجدناها تؤكد هذه الحقيقة :

---

(٤) Winkler, H., Bauern zwischen Wasser und wusste, Stuttgart, 1934.

« فى عام ١٩٣٢ عشت شهرين من أشهر الربيع فى قرية « الكيمان » من صعيد مصر . وسكنت هناك خلال هذه الفترة فى منزل ريفى ، وكان صاحب المنزل الذى أسكن فيه السنوسى العجوز يجلس الى اليوم بطوله تقريبا أسأله عن المنزل وعن الحقل .. وفى خريف عام ١٩٣٣ رحلت مرة ثانية الى مصر ، وفى ديسمبر من ذلك العام سافرت الى بيت السنوسى مرة أخرى » (٥) .

وتأكد فينكلر فى هذه المرة الثانية أنه استطاع أن يجيب على معظم التساؤلات ، وأنه استطاع أن يوفى الكيمان حقها ، ومن الكيمان انطلق يدرس القرى المجاورة ، فقام بجولات كثيرة فى المنطقة المحيطة وكثر تردده بصفة خاصة على القرية المجاورة « نجع الحجيرى » . وهناك استطاع التعرف بطريقة أكثر عمقا على بعض المعتقدات ، وخاصة أرواح الموتى التى تلبس بعض الأفراد فى أوقات معينة ، فتعطى بعض المعلومات التى تساعد على حل كثير من المشكلات . وقد أفرد لهذه الدراسة كتابه المعنون « أرواح الموتى التى تلبس الانسان » (٦) .

وقد كان فى خطة فينكلر أن يقوم بدراسات مونوجرافية يستطيع من خلالها اعداد كشف الأسئلة وتحديد الموضوعات التى تضمنتها هذه الأسئلة . ولكنه اضطر لأسباب مادية أن يكتفى بهاتين الدراستين ، وأن يبدأ بعد أن يقرر هذه الحقيقة كما يلى :

« على أنه لم يكن من الممكن لى أن أضطلع بهذا العمل كله ، فاضطررت الى الاستغناء عن الدراسات المحلية المستفيضة ، وهى

(٥) Winkler, H., Agyptische Volkskunde. Stuttgart, 1934

(٦) Winkler, H., Die reitenden Geister der Toten, Stuttgart, 1936.

الدراسات التمهيدية لكشف الأسئلة . وقمت بوضع كشف أسئلة صغير تناولت بنوده جانبا من أهم الظواهر فى حياة الشعب المصرى . وأخذت أتجول بهذا الكشف عبر البلاد ، وكانت حصيلته هذا العمل : هذا الرسم التخطيطى الأول للفولكلور المصرى . فقد اتضحت بعض الخطوط الكبيرة وأبرزت معالم صوره » (ص ٤ من كتاب الفولكلور المصرى) .

واذا كان الجمع للأطلس الفولكلورى يعتمد على جمع معلومات عن موضوعات بواسطة كشف أسئلة بهدف عرض نتيجة هذه المادة فى خرائط فولكلورية تتيح تحليل وعرض المادة ، مع مراعاة الأبعاد الثلاثة : البعد المكانى ، والبعد الزمانى ، والبعد الاجتماعى بالنسبة لكل عنصر من عناصر التراث المجموع [٧] . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نقول أن فينكلر قد أنجز بالفعل خطوات واسعة نحو تحقيق هذا الهدف البعيد ، هذا اذا أغضينا الطرف عن البعد الاجتماعى الذى لم يكن موضع اهتمام الباحث. وان كان اقتصار دراسته على المجتمعات الريفية والبدوية والشبه ريفية بدوية قد يعفيه من هذا التقصير ، خاصة وأن المجتمع القاهرى لم يحظ بعنايته ، وهو الذى تتضح فيه الأبعاد الاجتماعية بمختلف مكوناتها ، أما المجتمعات الريفية فالفروق الطبقية فيها لا يمكن أن تتضح أمامه فى خلال تلك الفترة السريعة التى أقامها فيها . ولعلنا نلحظ فى اتجاه فينكلر هذا تأثرا بتيار قوى من التيارات التى كانت تسود ساحة الفولكلور فى المانيا فى ذلك الوقت وتنادى باقتصار دراسة الفولكلور على الفلاحين ، وأعنى

---

(٧) انظر محمد الجوهرى وآخرون ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٢ .

هنا تيار يوليوس شفيترينج ومدرسه ، الى حد أنهم كانوا يطلقون على الفولكلور اسم « دراسة الفلاحين »(٨) .

وربما كان هذا هو ما دعا فينكلر الى الاهتمام بالمناطق الريفية دون المناطق الحضرية . والذى نود ابرازه أن أهمية هذا الباحث بالنسبة لموضوعنا هنا تتلخص فى كونه حدد لنفسه منذ البداية هدفه من البحث، واتخذ خطوات نحو تحقيق هذا الهدف . غير أنه لم يتيسر لجهوده الرائدة أن تتصل وتستكمل ، فتخلف البحث الفولكلورى العلمى عندنا، وسبقتنا الدول التى بدأنا معها نفس البداية بمراحل كثيرة . فأصبح لمعظم دول غرب وشرق أوروبا أطالس فولكلورية تحدد معظم تراثها الشعبى وتساعد على قيام بحوث عديدة فى شتى مجالات هذا التخصص مما يساعد هذا العلم على بلوغ درجة من الدقة تفوق الكثير غيره من سائر العلوم الانسانية .

هذا فيما يختص بجمع المادة . أما فيما يتعلق بعرضها على الخرائط فانه لم يتعرض لهذا المشروع الكبير . ولم يناقش حتى القضايا التى تثار لأول وهلة عندما تبدأ العمل فى الخطوات التنفيذية . فلم يناقش مثلا مشكلات الخريطة الأساسية ، أو شكل المعمور المصرى وما يفرضه من قيود على مقياس رسم الخريطة الأساسية ، أو مقياس الرسم المناسب ،

---

(٨) انظر حول هذا الموضوع محمد الجوهرى ، « الفولكلور ودراسات علم الاجتماع الريفى » دراسة مقدمة للحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة التى نظمها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى شهر مايو ١٩٧٠ . نشرت ضمن الأعمال الكاملة للحلقة ، القاهرة ١٩٧١ توزيع دار المعارف . ، ص ص ١٢٨ ــ ١٥٤ .

وغير ذلك من المشكلات العديدة ، بل اكتفى بذكر تصوره عن هذا العمل على الوجه التالى :

« ••• تستهدف هذه الدراسات القيام بملاحظة دقيقة للحياة اليومية للفلاحين والبدو فى هذه الأماكن • على أن تنتهى الى دراسات مونوجرافية تفتح عيوننا على المشكلات القائمة • ثم يوضع على أساس هذه الدراسات المونوجرافية كشف أسئلة يتضمن أسئلة دقيقة عن كل ظاهرة تمت ملاحظتها أو يتوقع وجودها • ثم يتم طبع هذا الكشف ، ويوزع على الموظفين المصريين والأوروبيين ـ الذين يتصل عملهم اتصالا وثيقا بأبناء الريف ـ رجاء استيفائه • وترسل كشوف الأسئلة المستوفاة الى مركز تجميع واحد • ويقوم هذا المركز بتسجيل الاجابات الواردة اليه من جميع المناطق ، وعرضها على خرائط أو تكون ثمرة هذا العمل فى النهاية أطلس للفولكلور المصرى • ويصبح من الممكن عرض كل أداة عمل ، وكل عادة شعبية فى خريطة مستقلة يتيسر استيعابها على الفور » (٩) •

يتضح من هذا النص أن فينكلر كان يسير وفق خطة محددة ، وان لم يتمكن من انجازها ، الا أنها ساعدته على الاستفادة الى حد بعيد من النظرة الجغرافية التى اكتسبها من مسايرته لأحدث المناهج الأوربية وخاصة الألمانية فى دراسة الفولكلور آنذاك ، الى جانب دراسته الميدانية المتعددة فى مختلف أنحاء القطر المصرى • فانطلق من الكيمان الى قرى مصرية أخرى ، بحيث استطاع أن يكسب هذا الموقف النظرى بعدا عمليا ، وأن يحدد البعد المكانى باختياره القرى المختلفة التى كانت موضوع الدراسة • ونحاول فيما يلى أن نتعرف على الأسس التى اتخذها أساسا لاختيار تلك الأماكن •

---

(٩) هانز فينكلر ، الفولكلور المصرى ، ص ١ من المقدمة .

٢ - البعد المكانى والبعد الزمانى كاساس للاختيار :

نبدأ بكلمات فينكلر التى تلخص لنا الأسس التى استند اليها فى اختياره للمناطق موضوع الدراسة .

« ... كنت أتجول على حدود الصحراء خلال منازل قرية «العزايزة» المبنية من اللبن ، ولقد تملكتنى الدهشة خلال اقامتى الأولى من أمر هؤلاء الناس . فهم ليسوا بفلاحين ، ولكنهم ليسوا كذلك ببدو . ولقد كنت أعتقد فى بادىء الأمر أن الدراسة العميقة لمثل هذه الجماعة شبه البدوية سوف تكون مثمرة ، فقد كنت أعتبرهم يعيشون فى مرحلة حضارية مثل مرحلة انتقال البدو الى الزراعة .. ولقد أدركت على الفور أنه ليس لديهم الكثير يستحق التسجيل اذ أن حضارتهم المادية والعقلية تتسم بالبساطة . ولقد عرضت فيما بعد ما وجدته جديرا بالتسجيل . على أن هؤلاء العزايزة كانوا يمثلون بالنسبة لى دائما أبدا حافزا قويا لتعميق معرفتى بالشعب المصرى فى مجموعه ، الفلاحين فى وادى النيل ، والبدو فى الصحراء ، وأهل الزراعة البسيطة فى الواحات » (١٠) .

وهكذا قرر فينكلر أن تشمل دراسته هذه النماذج المختلفة من أساليب المعيشة . وقد راعى فينكلر عند الاختيار بعض الاعتبارات الأخرى ذات الأبعاد التاريخية الجغرافية مثل المؤثرات الثقافية ، والهجرات البشرية ، الى جانب اندماج بعض الشعوب النازحة مع أهل المنطقة الأصليين ، ومدى امكانية تحديد طابع خاص لكل اقليم من هذه الأماكن فى النهاية .

---

(١٠) فينكلر ، الفولكلور المصرى ، ص ٢ .

ولنعد الى فينكلر لنتقصى من كلمته كيف استطاع أن يحـدد على هذا الأساس القرى والمراكز الثلاثة والعشرين التى اختارها ليجمع منهـا مادته محاولين أن تتلمس الخطوط العريضة سابقةالذكر التى حكمت هذا الاختيـار •

« ••• ومن الجنوب تعرض وادى النيل ولا شك لمؤثرات نوبيـة منذ أقدم العصور حتى الآن • والى جانب هذا تتصف الواحات المتناثرة فى الصحراء الغربية بظواهر خاصة مخالفة تمام الاختـلاف عن المناطق الأخرى •• » • وتساءل فينكلر عما يحـدث للانسان اذا عاش فى وادى النيل الخصيب آلاف السنين • وماذا يحدث له او فرض عليـه أن يهيم على وجهه فى الصحراء المجدبة وماذا يحدث له عندما يستقر أخيرا فى واحة من الواحات ، أعنى فى واحدة من تلك الحـدائق الرغدة وسط هـذه الصحراء الموحشة وحشة الموت • ثم أيضا ما عسى أن يكون عليه الحال فى الفيوم ، تلك الواحة الكبيرة التى نشأت مع وادى النيل ، وكيف عمل هناك جنس من الناس ربما كان ذا طبيعة وخصائص معينة على أن يمتزج بفلاحى وادى النيل • وأخيرا كيف تظهر فى الدلتا المؤثرات القـائمة من البحر المتوسط وفلسطين ، وربما من ليبيا أيضا • أى أنماط بشرية يمكن أن أقابلها فى رحلتى خلال هذه المناطق المتنوعة • والى أى حـد تتضـح بقايا الهجرات والاختلاطات المختلفة • فأحيانا تكون المنـاطق المجـاورة مجرد قناطر لعبور مؤثرات معينة ، فالطاحونة اليدوية (الرحاية) يمكن أن تماثل ـ وهى تماثل فعلا ـ نظيرتها فى الغرب وفى أرمينيا ، بل نظيرتها فى السويد وفى الصين • ونمط معين من المحراث فى مصر يمكن أن يكون هو نفسه ـ وهو فعلا كذلك ـ الذى استخدمه الفلاح الهلليني فى حرث أرض اليونان المقدسة ، والفلاح الايطالى فى حرث أرضه » (١١) •

---

(١١) المرجع السابق ، صفحتى ٢ ـ ٣ •

وهكذا نجد فينكلر قد قرر أن تشمل الدراسة مصر من شمالها الى أقصى جنوبها ومن شرقها لغربها . أما كيفية اختيار هذه القرى والمراكز بالذات دون غيرها فقد راعى فينكلر الاعتبارات السابقة ، أى أن تكون هناك قرى تجيب عن هذه التساؤلات ، هذا مع مراعاة المنطلق الذى بدأ منه وهو أن الفولكلور فولكلور الفلاحين . كما أن هنـــاك اعتبارات عملية وهى معرفته بقرية « الكيمان » وأهل الكيمان . فبـدأ رحلته من أسوان ، وهكذا بدأ بغرب أسوان لاعتقاده بتأثير الثقافة النوبية عليها.. ومنها عبر الى الشاطىء المقابل حيث توجد « بحاريف » .. وأحيانا كان يقابل شخصا فى القطار فينصحه بزيارة بلدة معينة تتميز بخصائص معينـــة كما يستجيب الى هــذه النصيحة . وأحيانا أخرى كان يقــرأ فى دليـــل السواح أن هناك منطقة تتميز بآثار معينة فكان يذهب اليها ويقـــوم بدراسته . ونستطيع أن نقول ان لم يكن هنـــاك سبب واضـــح يحتم التفضيل ، كان فينكلر يخضع خطته لنوع من المرونة يتيح له اتباع نصائح « أهل البلد » كما أنه لم يستطع تنفيذ خطته بجمود اذ أن هنـــاك بعض الصعوبات لم يكن الاعداد المكتبى الجيد يستطيع التنبؤ بها . فحـدث له فى أكثر من حيلة أن منعه أهل القرية أو عمدتها من اتمام الدراسة بل وأصروا على طرده [١٢] . وكثيرا ما كان يثار حوله ضجة أو مشـــكلات تحول دون البدء فى الدراسة . فرغم التمهيدات والجهود التى كان يبذلها قد يتعرض له أحيانا أحد المتحمسين للدين الاسلامى ويثير حـــوله ضجة تعوق الدراسة وتجعل أهل البلد يتخذون منه موقفا عدوانيا مثل ما حدث له فى « البلينا » [١٣] . وكذلك يذكر المؤلف أنه لم يتمكن من الدراســـة فى « أخميم » بسبب الحفاوة الزائدة التى لم تمكنه من رؤية الفــلاحين

(١٢) المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

وظل فى رحاب أصحاب المراكز العليا الذين أصروا على اعطائه المعلومات التى يرونها هم لازمة .

وبعد أن استطعنا تحديد أهم الاعتبارات التى حكمت اختيـــار الأماكن يجب علينا أن نوضح أيضا الاعتبارات التى حكمت اختيـــاره لموضوعات دون الأخرى . وان كانت هذه الدراسة تتصف بالشـمول حيث أنها شملت أهم الموضوعات التى تدخل تحت نطاق علم الفولكلور .

٣ ـ الثقافة المادية والثقافة الروحية كاساس للاختيار فى جمع المادة :

أما عن الموضوعات وعن الأسئلة التى شملتها هذه الدراسة القيمة فيجب أن تتذكر أن الهدف فيها كان الجمع للأطلس وليس الجمع الشامل. ومن ثم كانت عبارة عن موضوعات محددة بأسئلة محدودة يصلح معظمها للعرض بواسطة الخرائط .

أما عن هـــذه الموضـوعات فقد شملت الثقافة بجانبها المـادى والروحى . وان كان من ينظر الى كتاب الفولكلور المصرى يعتقـد أن الجانب المـادى قد حظى بالنصيب الأكبر . ولكن الواقـع أنه كان من العسير على فينكلر كأجنبى أن يدرس بعض جوانب الثقافة الروحيـة . فعندما تعرض لدراســة عادات الموت أكد بأمانة علمية صـعوبة هذه الدراسة اذ قال : « لم يكن الفلاحون الذين أســألهم أشد عـزوفا عن اعطائى معلومات بقدر ما كانوا عند سؤالهم عن الموتى والقبور (١٤) » . ولذلك قصر أسئلته فى هذا المجال على بعض الجوانب المـادية الخارجية كشواهد القبور والجبانات التى قدم لها وصفا مسهبا مفيـدا . كذلك يرجع اهتمامه بأدوات العمل الزراعى أولا الى كونه قد ركز دراسته على الريف دون المدن ، ومما لا شك فيه أن الزراعة تلعب دورا أساسـيا فى

---

(١٤) المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

حياة الفلاحين ، ومن ثم يجب أن يكون لهذا الجانب المادى أثر على الجانب الروحى . هذا الى جانب سهولة دراسة الجوانب المادية ، فمثلا فى دراسته للمحراث فى المناطق المختلفة يستطيع أن يستعين بالملاحظة والوصف دون ضرورة التعمق فى حياة هؤلاء الفلاحين . كما أن البعد الزمانى ، أى العمق التاريخى لهذا المحراث ، يمكن أن يحفظ ويخضع للدراسة التتبعية التاريخية دون مشقة أو عناء كبيرين .. وقد أشاد فينكلر نفسه بأهمية الجانب الروحى من الثقافة فى الكلمات التالية :

« ... وعلاوة على هذا فانه يجب الاعتماد على الثقافة الروحية أكثر مما يجب على الثقافة المادية للتعرف على معالم المناطق الثقافية داخل اطار الشعب المصرى . ومن هذا القبيل العادات المرتبطة بالزواج والميلاد والموت . وأخيرا لا بد أن تعبر لغة الشعب عن نفسها شأنها شأن سائر اللغات فى جميع أنحاء العالم — فى لهجات متنوعة ، تلك اللهجات التى لا نعرف عنها ولا عن انتشارها سوى القليل » [١٥] .

ولكن رغم كل هذه التحفظات فقد شملت دراسة فينكلر دراسة أهم الظواهر الثقافية المادية التى احتوتها خمسمائة صفحة من القطع الكبير علاوة على حوالى مائتى صورة . فشملت أدوات الطحن (الرحاية — الحجر — المدق — أو مهراس طحن الحبوب) من حيث انتشار النمط السائد . ووصف هذا النمط وانحراف الأنماط الأخرى عن هذا النمط الذى يفترض أنه أكثرها انتشارا . كذلك درس أشكال الأفران والمواقد المنزلية وأدوات مياه الشرب وأدوات الزراعة وغير ذلك من مظاهر الثقافة المادية متبعا نفس طريقة دراسة الأنماط .

---

(١٥) المرجع السابق ص ٣ .

وكذلك شملت الدراسة دورة الحيـاة من الميـلاد الى الموت ، والعفريت والأرواح التى تظهر بعد الموت ، والمجـاذيب الذين يتنبـأون بالغيب . والزار وبعض الظواهر الطبيعية فى السماء مثل الطيف وخسوف القمر .. وفى هذا الجانب من الثقافة الروحية استعان بالطريقة الوصفية التحليلية كما سنوضح فيما بعد .

أما فى دراسته عن الطرق الصوفية فقد اكتفى بمجرد ذكر انتشـار الطرق المختلفة كالشاذلية والقادرية فى الأماكن التى درسـها مع عـرض ملخص للفروق بين طريقة وأخرى . كما احتوت دراسة فينكلر على الثأر الى جانب تفسير أهل المناطق التى درسها لأصل ونشأة هذه الوحـدات العمـرانية .

وفى النهاية يجب الاشارة الى دراسته القيمة التى أفردها لبـدو العبابدة والتى اشتملت على معظم الموضوعات سابقة الذكر .

وقد ذيل هذه الدراسة بملاحظات لغوية عن الفـلاحين والبدو ، ساعدته على الوصول الى نتائج قيمة فى مجـال الدراسـات اللغـوية واللهجات .

ولنتساءل الآن كيف استطاع فينكلر عرض كل هذا الحشـد من المـادة المجموعة ، علما بأنه قد اقتصر على أسئلة محدودة عن موضوعات محددة يعتقد أنها مفيدة وحاسمة فى القاء الضوء على كثير من الظـواهر التى خصها بالدراسة والتى لها كما أوضحنا أهمية بالغة فى حياة هـؤلاء الفـلاحين .

٤ ــ **طريقة عرض المادة :**

استطاع فينكلر عرض الجانب المـادى من الثقافة باتبـاع طريقة النمط التصنيفى « موضحا بطريقة وصفية تحليلية أكثر الأنماط شـيوعا بحيث يسهل هذا النمط عملية القياس ، فيكون هذا النمط محكا ويقاس عليه نواحى الاختلاف والتشابه . ليتسنى بعد ذلك عـرض الأشـكال النظيرة ويمكن على هذا الأساس تحديد الحدود بين منطقة وأخرى تبعا لانتشار نمط أو آخر . ومن الجدير بالذكر أن فينكلر قد استعان بكثير من الصور والرسوم لتوضيح عرض هذه النماذج المختلفة ويكفى الاشارة الى أن الكتاب قد احتوى على مائتى صورة ورسم تخطيطى حتى تتبـين مبلغ الدقة التى بلغها هذا العرض » (١٦) .

أما فيما يخص الجانب الروحى من الثقافة فقد استعان فى الدراسات اللغوية والمفردات بالجداول . فجعل تمييز الجدول الرأسى أسماء الأماكن التى جمعت منها المـادة والتمييز الأفقى للمفردات المختلفة كما يلى :

---

(١٦) انظر مزيدا من التفاصيل عن تطبيق هذا المنهج والنتائج التى وصل اليها فى دراسته للمحراث فى الفصل السابق .

اسم القرية أو المدينة	الضفيرة	الشارب
حماطة	ضفيرة (ضفاير)	شارب (شوارب)
بحاريف	جصة (جصص)	شنب (شناب)
بنبان	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
حوش	ضفيرى (ضفاير)	شنب (شناب)
كلح	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
نواصير	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
زينة	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
كيمان (العرب)	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
كيمان (العبايدة)	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
العزايزة	ضفيرة (ضفاير)	شارب (شوارب)
الخارجة	حبكة (حبكات)	شنب (شناب)
اولاد عمران	عقيفى (عقايف)	شنب (أشناب) (أشنبة)
العزبة	عقيفى (عقايف)	شنب (شنبة)
أولاد محمد	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
نزلة عبد الله	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شنبة)
ملوى	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شنبات)
جلوصانة	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شنبات)
منعاريش	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شنبة)
ميدمين	جديلة (جدايل)	شنب (شنبات)
طموه	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب)
بلبيس	جديلة (جدايل)	شنب (شنبات)
نوب	ضفيرة (ضفاير)	شنب (أشناب)
بوصراط	ضفيرة (ضفاير)	شنب (اشنبة)
سنهور	ضفيرى (ضفاير)	شنب (أشباب)
كمشوش	ضفيرة (ضفاير)	شنب (شناب وشنبات)
الحلبية	مضفريش	مشنابيش

ونكتفى بعرض هذا النموذج حتى يستطيع القارىء أن يأخذ فكرة سريعة عن طريقة عرضه لهذا الموضوع • ويجب الاشـــارة الى أن المؤلف قد سجل صيغة الجمع لكى يزيد صيغة المفرد وضوحا • وقد اعتبـــر فى المـــادة المجموعة أن المفرد والجمع هو ما كان الراوية يعتبره مفـــردا أو جمعـــا •

وقد استطاع فينكلر مستعينا بطريقة الكلمات والأشياء الحصـــول على نتائج تفيد فى معرفة أصل كثير من الكلمات وتاريخ دخـــــولها كما استطاع أيضا التعرف على أصل كثير من الأدوات •

أما فيما يخص عرض المـــادة الخاصة بسائر جوانب الثقافة الروحية فقد اتبع الطريقة الوصفية التحليلية مع شىء كبير من الضبط والاحـــكام حيث عرض المـــادة المجموعة تبعا لانتسابها الى المنطقة المجمـــوع منها • كما أنه أشار الى أوجه الاختلاف والتشابه بين المناطق المختلفة محـــاولا تفسير هذا الاختلاف كلما تيسر ذلك •

ولنحاول الآن توضيح طريقة عرض هذا الجانب من الدراسة بعرض نموذج عن عادات الزواج •

فبعد أن أوضح المؤلف أهمية عادات الزواج فى حياة الانسان حيث أن الزواج مرحلة حاسمة يتخلى فيها الفرد عن معظم عاداته الفردية محاولا اكتساب عادات اجتماعية وسيكولوجية وبيولوجية جديدة • وهـــكذا يتكاتف المجتمع ليساعده فى شكل عادات وعرف وتقاليد تستهدف انجاح هذه المرحلة الجديدة الخطيرة فى حياة الانسان •

وقد اقتصر فينكلر على سؤالين فقط لاعتقاده أن لهذين الســـؤالين شأن كبير فى القاء الضوء على كثير من جوانب الحياة العائلية والاجتماعية

من قيم وعرف وتقاليد . فكان موضوع السؤال الأول : أين يتم الاحتفال بالزواج ؟ فى منزل العريس أم فى منزل العروس .. اذ يوضح لنا حـول من كانت تتمركز الأسرة ، حول الرجل أم حول المرأة . كما أن للسؤال الثانى أيضا أهمية فى تحديد قيم المجتمع ، وهو : كيف تتم عمليـة فض البكارة ؟ ومن خلال هذين السؤالين أمكن التعرف على أشياء أخـرى (مثل : ماذا يحدث عند دخول العروس أو العريس المنزل الذى يقام فيه الاحتفال ؟) وقد ضم فينكلر هذه الأسئلة الفرعية الى قائمة الأسئلة بعد ذلك ، أى بعد أن تبين له أهميتها وضرورتها فى التتابع الطبيعى لهـذين السـؤالين .

ولقد عرض فينكلر المـادة التى جمعها عن هذا الموضوع فى القرى والمراكز المختلفة التى اختارها الواحدة تلو الأخرى تبعا للتدرج الطبيعى للموقع الجغرافى لكل منها ، فبدأ من الجنوب الى الشمال بادئا بغـرب أسـوان كما يلى : ـ

غرب اسوان :

يتم الاحتفـال بالزواج فى منزل العروس ، ويأتى العريس محـاطا بأصدقائه الى منزل العروس . العريس يفض البكارة بالاصبع (الابهام والوسطى) ، وفى بعض الأحيان تسـاعده « الداية » وذلك فى حالة شـعور العريس بالدخـول ، أو حينما يخطىء فى اتمـام العمليـة . لا توجد عادة اشهار فض البكارة . يتم الاتصال الجنسى بصورة طبيعية فى الليلة الثانية ، ويبقى العريس فى منـزل العـروس من ثلاث الى أربع سنوات . وبعد ذلك يغادر المنزل مع زوجته وأولاده الى منزل أبيه أو الى منزل زوجية خاص .

بحاريف :

يتم الاحتفال فى منزل العروس ، كذلك يتم فض البكارة عن طريق الاصبع . وتشترك « الداية » فى ذلك أحيانا . وأثناء فض البكارة تدق النساء على الطبول لكى لا يسمع صراخ العروس . لا يتم اشـــهار فض البـــكارة .

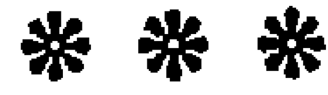
بعد فض البكارة يذهب العريس ليجالس الرجال ، وتذهب العروس لتجالس السيدات . بعد خروج المدعوين يجالس العـــريس عروســـه ، ويحاول أن يكلمها ، ولكنها لا تجيب الى أن يعطيها هدية نقدية وتأخذها ثم تضعها تحت الوسادة . وتسمى هذه الهدية « رضوة » . وبعد ذلك لا تمانع العروس فى الاتصال بالعريس . ويبقى العريس فى منزل العروس سنوات عديدة ، وبعد ذلك يسكن فى منزل والده .

بنبـــان :

يتم الاحتفـــــال فى منزل العـــروس . أمام حجـــرة العـــــروس يتقابل العروسان حيث يحمل العريس كوبا من المـــاء وتحمل العـــروس كوبا من اللبن . ويقذف كل منهما الآخر بالمـــاء واللبن فى وجهه . وتتم عملية فض البكارة بالاصبع . وتحضر « الداية » لتباشر العمليـــة . أما فيما يخص اشهار فض البكارة فهو لا يتم أيضا . ويتم الاتصال فى الليلة الثانية ، ويسبق ذلك اعطاء العريس للعروس هدية نقدية تسمى « جلعـــة التوب » أو « رضوة » . ويبقى العريس فى منزل العروس سنين عـــديدة طالمـــا لم يحدث سوء تفاهم .

وهكذا يعرض لنا المؤلف الاجابة على هذين الســـؤالين فى ثلاثة وعشرين قرية ومركز موضوع الدراسة . وقد اعتمد على نتيجة هـــذه

الاجابات واجابات الأسئلة الأخرى عن مختلف الموضوعات التى درسها، اعتمد عليها فى تحديد الحدود الفاصلة بين منطقة وآخرى من المنـاطق الثقافية الرئيسية والفرعية • وقد عرضنا لهـذا التقسيم الذى انتهى اليه فينكلر بالتفصيل فى البند (٦) من الفقرة « أولا » فى الفصل السابق من كتابنا هذا •



وفى الختام فان لنا على دراسات فينكلر هذه ملاحظات لا تقلل من قيمة هذا العمل العبقرى • فنلاحظ بادىء ذى بدء أن اعتماد فينكلر على جهده الفردى وحده لم يمكنه من أن يغطى مناطق كثيرة • فجاءت شبكة المناطق المدروسة عنده واسعة بشكل مخل تجاوزت بالقطـع كثـيرا من التفاصيل الدقيقة بين المناطق المختلفة •

كذلك أهمل فينكلر ــ ربما عن عمد بسبب مفهـومه عن دراسـة الفولكلور فى ذلك الوقت ــ دراسة المنـاطق الحضرية من مصر ، ومن المقطوع به أن هذا الموقف يمثل قصورا منهجيا فى دراسـته • ذلك لأن هناك بعض الحلقات الثقافية التى لا يمكن أن تبرز فى الدراسة بوضوح الا فى المناطق الحضرية كالثقافة التركية ، أو العنـاصر المستحدثة من الاحتكاك بالأجانب (فرنسيين ، وانجليز ، وأرمن ، الخ) • ونحن نقدر أن هذه المسائل لم تكن تدخل فى صميم اهتمام دراسات التراث الشعبى على أيام فينكلر • فدراسات فولكلور المدينـة والمستحدثات الشـعبية Innovation Research مجال اهتمام جديد نسبيا من مجالات اهتمام دارسى الفولكلور •

أما عن مزايا دراسته فقد أكدنا عليها فى موضعها ، ولا يمنــع ذلك من سردها فيما يلى بشـكل موجز على عجل :

١ ــ انطلق الى العمل وفى ذهنه خطة واضحة للعمل من أجل أطلس فولكلور مصرى . فالنظرة جغرافية ، والوسيلة ــ فى النهاية ــ العرض بالخــرائط .

٢ ــ استعان فى تحديده ــ الذى نعتبره أوليا ــ للمنــاطق الثقافية المصرية بأكثر من متغير ، من المجال الروحى ومن المجال المــادى أيضا ، فجاءت تقريراته أقرب الى الدقة وشمول النظرة .

٣ ــ حرص على أن تغطى دراسته المناطق الرئيسية للثقافة الشعبية المصرية : فلاحية ، وبدوية ، ونصف بدوية .. الخ . وان كان أهمــل المناطق الحضرية كما أشرنا .

الدراسة الخامسة

منهج جديد فى جمع ودراسة التراث الشعبي

أولا ــ مقــدمة

ثانيا ــ الأهمية المنهجية والموضوعية للدراسة •

ثالثا ــ السفر الجليل فى أخلاق وعادات سكان وادى النيل •

رابعا ــ دوافع تدوين الرسالة •

خامسا ــ مراعاة الأبعاد الاجتماعية والتاريخية والجغرافية للمادة المدونة:

١ ــ العادات الشعبية

٢ ــ الثقافة المادية

٣ ــ الأدب الشعبى

٤ ــ المعتقدات والمعارف الشعبية •

٥ ــ الشخصية المصرية

سادسا ــ خاتمة •

اولا ـ مقدمة

تتناول هذه الدراسة الجوانب المنهجية والموضوعية للمحاولة التى قام بها العالم الألمانى أنوليتمان Enno Littmann لتسجيل التراث الشعبى المصرى فى ثلاثينات هذا القرن : وهذه الدراسة عبارة عن تقرير مطول استكتبه ليتمان أحد المصريين فى عام ١٩٣٥ . وقد طلب ليتمان من ذلك المواطن القاهرى أن يصور فى هذا التقرير عادات وأخلاق المصريين ، مع الاهتمام بابراز خصائص المصرى وسماته العامة فى ثنايا الحديث . وكانت ثمرة تلك المحاولة الدراسة التى نعرض لها اليوم بعنوان : « السفر الجليل فى أخلاق وعادات سكان وادى النيل »[1] .

---

(١) المستشرق انو ليتمان (عاش من ١٨٧٥ حتى ١٩٥٨) واحد من ابرز أساتذة اللغات الشرقية المتخصصين فى دراسة الثقافة العربية . تخرج على يديه جيل كبير من أساتذة الاستشراق الالمان والأوربيين والعرب . كما اشتغل لعدة سنوات أستاذا بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) فى الثلاثينات . ومن أشهر اعماله ترجمته لألف ليلة وليلة فى ست مجلدات (من ١٩٢٣ حتى ١٩٢٨) ، وقد ذيلها بخاتمة حول ظروف نشأة الحكايات ؛

"Zur Entstehung und Geschichte von Tausenundeiner Nacht".

كما درس علاقتها بالأدب العربى تأثيرا وتأثرا (صدرت عام ١٩٢٣) . ومن مؤلفاته الأخرى :

* Arabische Geisterbeschwo" rungen aus Agypten (1950).

* Ahmed il-Badawi, Ein Lied auf den Agyptischen Nationalheiligen (1950).

* Islamisch-arabische Heilligenlieder. (1951).

* Kairiner Volksleben, Abhandlungen fur die Kunde des Morgenlandes, =
Leipzig, 1941, pp. 1-79.

وقد نشر ليتمان هذه الرسالة فى أصلها العربى مع ترجمة دقيقة لها الى اللغة الألمانية ، وقدم لها بعض الملاحظات الهامة[٢] . وسوف نتناول محتوياتها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن بعد أن نبرز فى كلمة سريعة الأهمية المنهجية والموضوعية الكبرى لذلك العمل .

(٢) E. Littmann, "Ein Buch, wohlgebitten, uber der Niltalbewohner Eigenscharten Und Sitten", Abdhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Leipzig, 1941, pp. pp. 1-18.

ثانيا ــ الاهمية المنهجية والموضوعية للدراسة

يعتبر هذا التقرير فى ذاته اضافة منهجية لها قيمتها فى ميدان الجهود الرامية الى جمع وتسجيل ظواهر الثقافة الشعبية جمعا علميا أصيلا • فاستكتاب أبناء الثقافة تقارير عن الحياة فى مجتمعهم وعن سمات مواطنيهم وخصائصهم الأخلاقية وسيلة جربها ــ ولكن فى نطاق محدود ــ بعض رواد الدراسات الأنثروبولوجية من قبل • ولكن هذه هى المرة الأولى التى تستخدم فيها هذه الطريقة فى ميدان علم الفولكلور •

ان عرف على الفولكلور حتى الآن ثلاثة طرق رئيسية لتسجيل عناصر التراث الشعبى هى : الملاحظة ، والملاحظة المشاركة أو المعايشة سواء من جانب الباحث الوطنى أو من جانب الدارس الأوربى ، وأخيرا الاستبيان أو كشف الأمثلة (أو الدليل) سواء ذلك الذى يستوفى الباحث اجاباته بنفسه ، أى بشكل مباشر ، أو بارساله الى طائفة من الاخباريين المنتخبين الذى يستوفون اجاباته بأنفسهم ، وهو الشكل غير المباشر •

ولا يقتصر فضل « أنو ليتمان » على أنه كان أول من طبق هذا الأسلوب فى دراسة عناصر الثقافة الشعبية المصرية ، ولكنه ظل متفوقا وفريدا فى هذا الميدان ، حيث لم تعرف دراسات الفولكلور محاولة مماثلة بعد ذلك • وظلت محاولة ليتمان نسيجا فريدا ، ربما بسبب تخلف الدراسات الفولكلورية فى بلادنا شوطا بعيدا بعد التقدم الذى قطعته فى الثلاثينات على يد ليتمان وتلميذه هانز فينكلر[٣] • وربما

---

(٣) وقد ابرز محمد الجوهرى الاهمية المنهجية والموضوعية لجهود الباحث الألمانى الراحل هانز فينكلر فى جمع ودراسة التراث الشعبى =

كذلك بسبب اللغة التي كتبت بها تلك البحوث ــ وهي اللغة الألمانية ــ ولذلك ظلت محجوبة على الغالبية العظمى من الباحثين المصريين والعرب. ونحن نعتقد اعتقادا راسخا أن اللجوء الى هذه الطريقة الجديدة اليوم ، مع الأخذ فى الاعتبار ببعض القيود والضوابط المنهجية اللازمة لصقل هذه الأداة ، سوف يؤدى الى اثراء دراسات الفولكلور المصرى بنبع جديد فياض يمكن أن يقدم عديدا من الاسهامات المفيدة :

ولعل من أهم الضوابط التى لم تلق لنا دراسة ليتمان ضوءا كافيا عليها شخصية هذا الاخبارى ومواصفاته الاجتماعية والشخصية والفكرية ... الخ . هل يحسن أن يكون أميا ، ويملى على الباحث مايعن له حول شتى الموضوعات (حيث يرى البعض أن المعلومات فى هذه الحالة يمكن أن تكون بكرا وأكثر أمانة وتلقائية) ، أم تراه يحسن أن يكون متعلما أخذ بأسباب الدراسة العلمية ، فى هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة الانسانية (حتى يكون أقدر على الرؤية السليمة ، والنظرة العميقة الى تراث مجتمعه ... الخ) ؛ هل يحسن أن يكون الاخبارى شابا حديث السن ، أم عجوزا طاعنا ، حتى تكون قد اختمرت فى صدره تجارب وخبرات نصف قرن من المشاركة الواعية فى حياة مجتمعه .. هل يجب أن يكون ذكرا أم أنثى ، متزوجة ، أم لم يسبق لها الزواج ... الخ)[٤] .

= المصرى . فقد شرع فينكلر فى جمع مادة كتابه (الفولكلور المصرى) وفى يده خطة واضحة ذات أهداف وأبعاد محددة : الا وهى انجاز الدراسات التمهيدية لأطلس مصرى للفولكلور ، على غرار أطلس الفولكلور الألمانى . انظر محمد الجوهرى ، « اطلس الفولكلور المصرى » مقال بالمجلة الاجتماعية للقومية ، العدد الثالث من المجلد العاشر ، سبتمبر ١٩٧٣ ، ص ص ٣٩١ ــ ٤٤٣ خاصة ص ٤١١ وما بعدها .

(٤) ناقشنا فى مقدمة كتاب الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية» بعض الجوانب المتعلقة بشخصية الاخبارى والمرشد ، انظر محمد =

.. الملاحظ بالنسبة لدراسة ليتمان أن ذلك الجانب لم يحظ بالوضوح الكافى ، فنحن لا نعرف شيئا عن الاخبارى (ابتداء من اسمه ، حتى ثقافته وخبراته)(٥) . ولكننا نعرف من مقدمة ليتمان للدراسة أن الاخبارى هو الذى كتب الدراسة بلغته الخاصة ، وبعبارته ، وبخطه ، وأنه لم يتلق من ليتمان سوى توجيهات فى بداية المشروع . ثم قرأ الاخبارى ما كتبه فى النهاية على ليتمان (ليضبط الشكل ، ويتأكد من كل الألفاظ) وناقشه فيه ، وطلب منه المزيد من الايضاحات ولو أن

= الجوهرى وعلياء شكرى وعبد الحميد حواس ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القسم الأول من دليل العمل الميدانى لجامعى التراث الشعبى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ ، ص ص ٣٦ وما بعدها

(٥) تتفق كافة الاتجاهات العلمية فى علم الفولكلور على ضرورة القاء ضوء كاف على شخصية الاخبارى أو صاحب المادة ، سواء كانت تلك المادة معلومات حول بعض عناصر المعتقد أو العادة الشعبية ، أو بعض الأعمال الادبية الشعبية من اغانى ، وحكايات ، والغاز ، وأمثال ... الخ . وان كانت الدراسات ذات الاتجاه السوسيولوجى هى التى تولى هذا الموضوع القدر الاكبر من الاهتمام . وقد الحقنا بكتابنا الذى سبقت الاشارة اليه (الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية) بطاقة بالبيانات الأساسية عن صاحب المادة ، وتتضمن تلك البطاقة بيانات عن اسم الاخبارى ولقبه ، والقرية التى ينتمى اليها ، والسن ، والديانة ، ودرجة التعليم وقراءاته (حيث تلقى هذه النقطة ضوءا كبيرا على حدود عالمه الفكرى) ، والحالة الاجتماعية ، والعمل الرئيسى الذى يتعيش منه والأعمال الاضافية (حيث ان الكثير من أبناء الطبقات الشعبية ، خاصة أولئك الحاملون للتراث يجمعون بين أكثر من عمل ، وبالتالى ينفتحون على أكثر من ميدان واحد من ميادين الحياة وأكثر من مجال من مجالات اكتساب الخبرة الاجتماعية والثقافية) . وكذلك بيانات عن تاريخ حياته وتنقلاته (لأن ذلك يلقى بدوره ضوءا على حدود عالمه الاجتماعى والفكرى ، ومصادر خبرته) ، والمنطقة التى تم فيها الجمع ، والمصدر الذى سمع عنه الاخبارى هذه المعلومات أو النصوص . اما بالنسبة للأنواع الادبية فتستوفى بيانات اخرى بخصوص تاريخ آخر مرة سمع فيها ومن سمع النص الادبى ، وآخر مرة حكاها فيها ، ومناسبة القائها عادة ، وتحديد الراوى نفسه للنوع الفنى لهذه المادة ..

انظر المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

الرسالة التى بين أيدينا لا تتضمن شيئا من هذه الايضاحات وانما تقتصر على تسجيل نص الرسالة كما كتبها الاخبارى أول مرة ٠

ولا شك أن ليتمان بعدم تدخله فى أسلوب الرسالة أو تعديله بأى صورة من الصور قد التزم قاعدة أساسية من قواعد الجمع العلمى لعناصر التراث الشعبى ٠ حيث يحرص الباحث على تدوين الحوار مع الاخبارى بنفس اللغة ونفس الألفاظ التى يستخدمها ذلك الاخبارى ٠ حيث ان هذه الأمانة العلمية تفتح الطريق أمام مزيد من الدراسات فى المستقبل حول دلالة اختلاف الألفاظ والعبارات بين منطقة وأخرى أو قرية وأخرى ٠٠٠ الخ ٠ وقد أكدنا فى ثنايا التوجيهات العامة لجامع التراث الشعبى (فى كتابنا الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، الذى سبقت الاشارة اليه ص ٤٦) أنه : « عند تدوين حديث الاخبارى يجب كتابته بأسلوبه هو قدر المستطاع للمحافظة على روح الحديث ومصطلحاته ولهجته ٠ وفى كل الأحوال يجب التمييز الواضح بين كلام الجامع وكلام الاخبارى » ٠ وهذا هو ما فعله ليتمان فى تقديمه لهذا التقرير ٠

ولكن من الواضح من تحليل لغة الرسالة أن الاخبارى ليس ممن حصلوا تعليما عاليا فى الجامعة أو ما شابه ذلك ، وانما الأرجح أنه حصل تعليما ابتدائيا ، وأنه قد أكمل تلك المرحلة الابتدائية منذ عهد بعيد ، حيث ان لغته اختلطت بالكثير من الصيغ والتركيبات اللغوية العامية والمتفاصحة ٠ ومن هذا أيضا يمكن أن نستنتج دون خطأ ــ أن الاخبارى قد جاوز الخمسين من عمره ، أو حول ذلك ، حيث اكتملت له خبرة عريضة بشتى جوانب الثقافة الشعبية المصرية التى عرض لها ٠

أما من الناحية الموضوعية فتمثل تلك الدراسة اضافة عظيمة

الأهمية . فهى تأتى بعد مائة عام على ظهور كتاب الانجليزى ويليام لين « عادات المصريين المحدثين وشمائلهم »(٦) . الأمر الذى ييسر لنا عقد المقارنات المفيدة عبر هذا الفاصل الزمنى الكبير . ثم هو يصدر تقريبا فى نفس الفترة التى أصدر فيها هانز فينكلر كتابه الجـامع الفولكلور المصرى ، وهو الذى يركز فيه بصفة أساسية على تراث الفلاحين المصريين والبدو . فاذا راعينا أن التقرير الذى بين أيدينا يخص بالاهتمام أهـل القاهرة أساسا ، اتضح لنا حجم الاسهام الذى يقدمه هـذا التقرير فى فهم التراث الشعبى المصرى فى بعض جوانبه .

---

(٦) Lane, Edward William, Manners and Customs of the modern Egyptians, London, 1846.

وقد صدرت لهذا الكتاب الهام ترجمة عربية أنجزها عدلى طاهر نور ، بعنوان : « المصريون المحدثون . عاداتهم وشمائلهم ، القاهرة ، ١٩٥٠ »

ثالثا ــ السفر الجليل

فى اخلاق وعادات سكان وادى النيل

نشر ليتمان النص العربى للتقرير باللغـــة العربية ، جانب منــه مكتوب بالحروف العربية ، والباقى بحروف أجنبية . وأمام كل صفحة عربية الترجمة الألمانية لها : ويقع التقرير فى حوالى الثمانين صــفحة . وينقسم موضوعاته الى اثنى عشر موضوعا عدا « خطبة الكتاب » . وهذه الموضوعات هى :

واضح من استعراض القائمة السابقة أنها تتركز حول معالجة عادات دورة الحياة في المجتمع المصرى بصفة أساسية • كما تعرض الاخبارى علاوة على ذلك لبعض جوانب الثقافة المادية كما يبدو واضحا في حديثة المفصل والمفيد عن أزياء المصريين • كذلك تضمنت رسالته عددا وفيرا نسبيا من النصوص الأدبية ، مما يدخل بشكل مباشر في نطاق اهتمام دارس الأدب الشعبى ، وتطرق في النهاية الى ظاهرة واحدة من ظواهر المعتقد الشعبى المصرى ، وهو الاعتقاد في « النداهة » •

فالرسالة بذلك تضم شذرات من أبواب التراث الشعبى الأربعة الرئيسية : العادات ، والمعتقدات والأدب ، والثقافة المادية(٧) • وان كان موضوع « عادات دورة الحياة » يمثل عمودها الفقرى •

وقد أشرت من قبل على عجل الى الأسلوب الذى كتبت به هذه الرسالة • فهى بصفة عامة مكتوبة بلغة فصحى ، أو يفترض أنها كذلك ، بمعنى أن صاحبها حاول أن يكون فصيحا ، ولكنه لم يوفق في كل الأحوال ، حيث امتزجت أحيانا بالعامية القاهرية الحديثة (حديثة بالنسبة للثلاثينات طبعا) • وخلط المؤلف في بعض الأحيان بين الفاعل والمفعول ، وبين المذكر والمؤنث فيما يخص جمع الغائب ••• الخ • وقد قرر ليتمان في المقدمة التى كتبها للدراسة أنه لم يدخل أى تعديل على النص لضبط لغته ، ولكنه أورده كما هو ، اللهم الا بعض الهمزات التى أضافها ليمكن للمستشرق الأوربى قراءتها دون عناء كبير •

---

(٧) يتبع هذا التقسيم التصنيف العام لموضوعات التراث الشعبى المصرى كما هو متفق عليه الآن ، انظر : محمد الجوهرى ، « التراث الشعبى • وجهة نظر في تحديد موضوعات الدراسة » مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الثلاثون ١٩٦٨ ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٣ ص ص ٣١ ـ ٧٢ •

كذلك ناقش ليتمان بعض الجوانب اللغوية للدراسة (وهي جوانب تدخل فى صميم دراسة الأدب الشعبى ، من حيث انها تلقى ضوءا على تأثير العامية على اللغة الفصحى) فى مواضع أخرى من مؤلفاته ، خاصة دراسته عن « الأمثال والألغاز القاهرية »(٨) ومقاله عن « أغانى الأطفال ولغة الأطفال فى مصر المعاصرة »(٩) .

وسنحاول فى الأجزاء التالية القاء الضوء على محتويات هــــذا التقرير الهام ، مدعمين العرض ببعض الملاحظات النقدية حول المحتويات، وحول تطوير ذلك الأسلوب ليصبح أداة صالحة لجمع وتسجيل عناصر تراثنا الشعبى :

---

(٨) Enno Littmann, "Kairiner Sprichworter und Râtzel", Abhandlungen Für die Kunde des Morgenlandes, XXII, 5, Leipzig, 1937.

(٩) E. Littmann, "Kinderlieder und Kindersprache im heutigen Agypten", in : Mémoires de l'Institut francais, Tome IXVIII, Mélanges Maspere, Vol. III, Le Caire, 1935, pp. 226-231.

رابعا ـ دوافع تدوين الرسالة

حرص الاخبارى على أن يبين فى مطلع تقريره الدوافع التى حدت به الى تسجيل هذا العمل : (بخلاف السبب المباشر بالطبع ، وهو تكليف ليتمان له بذلك) . ويأتى على رأس تلك الدوافع حرصه على اعطاء صورة « صحيحة »(١٠) عن أخلاق المصريين وعاداتهم ، تكون بعيدة عن التشويه الذى قد يظهر فى أعمال المستشرقين نتيجة سوء فهم أو سوء قصد . ويقول المؤلف « ... فقد رأيت كثيرا من سائحى الأوربيين ، وبالأخص بعض علماء المستشرقين منهم ، من وضع كتابا فى أخلاق وعادات سكان وادى النيل مع عدم وجود الزمن الكافى والفرص السانحة لهم لدرس أخلاق هذه الأمة ذات التاريخ المجيد فيثبتون فى مذكراتهم أخلاقا وعادات لا توجد أصالة (أصلا) فى هذه الأمة الكريمة اللهم الا فى مخيلتهم . ولهذا السبب تورط الكثير منهم عن سهو أو قصد بتشويه سمعة المصريين ، فأحببت أن أعمل لجنابكم (يقصد ليتمان) كتيبا صغيرا مع ما تسمح به الظروف »(١١) .

---

(١٠) ولا شك انه يبدو واضحا للقارىء ان وعى المؤلف بهذه النقطة قد يقوده الى اغفال الحديث عن بعض الجوانب غير المشرقة فى عادات المصريين واخلاقهم ، أو الى تاكيده على الجوانب المجيدة فى ثقافة مواطنيه ، وكلا الأمرين يبعده عن روح الدقة العلمية المطلوبة ، ونعتقد ان وضع ضوابط علمية على استخدام هذه الأداة كفيل بالتقليل من أخطار التحيز هذه

(١١) انظر دراسة ليتمان ، ص ٢ .

خامسا ـ مراعاة الأبعاد الاجتماعية والتاريخية والجغرافية للمادة المدونة

الملاحظ للوهلة الأولى أن الحس الاجتماعي كان واضحا عند المؤلف على طول التقرير الذي سجله . فقد كان شديد الحرص على التمييز بين أزياء النساء والرجال مثلا ، وأزياء الفقراء والأغنياء ، وأزياء الصناع والفلاحين ، وهكذا . فهو من هذه الناحية قد استوفى أهم مقدمات النظرة السوسيولوجية الى التراث الشعبي في عملية الجمع(١٢) . ونعتقد أن ادراك تلك الجوانب الفنية الدقيقة بهذه الدرجة العالية من الوضوح كان ثمرة مباشرة لتوجيهات ليتمان المشرف على العملية من بدايتها . وهى تؤكد لنا فى نفس الوقت أن اعداد الاخبارى ، وتلقينه أوليات المنهج العلمى فى الجمع والتسجيل قبل البدء فى خوض التجربة كفيل باحراز مكاسب علمية لها قيمتها الكبيرة .

كذلك كان الحس التاريخي واضحا تماما عند المؤلف قبل أن يشرع فى تدوين تقريره . حيث حدد فى المقدمة تحديدا واضحا الفترة الزمنية التى سيغطيها تقريره . اذ يقول : « ... فتكلمت عن أخلاق وعادات سكان وادى النيل الباقية الآن سنة ١٣٥٢ هـ وسنة ١٩٣٥ م ، واشترطت على نفسى عدم الكلام فيما كان من العادات قبل ١٠٠ سنة أو ٥٠ سنة ، اذ لا شأن لى فيه الآن ، اذ حكمة للتاريخ وحده . ولكن يهمنى الآن التكلم فى سكون وهدوء عن العادات المصرية كما هى الآن ، وعن تطورها السريع »(١٣) .

---

(١٢) انظر مقومات الاتجاه السوسيولوجي فى دراسة علم الفولكلور ، محمد الجوهرى ، « التراث الشعبى بين الفولكلور وعلم الاجتماع » ، مقال بمجلة عالم الفكر ، الكويت ، عدد ابريل ١٩٧٢ ، ص ص ٨٣ ـ ١٣٠ .

(١٣) انظر ليتمان ، المرجع السابق ، ص ٢ .

وواضح بنفس القـدر ــ أو أقل قليـلا ــ أن الكاتب كان يتميز بحس جغرافى واضح ، حيث ينسـب المعلومة التى يأتى بهـا الى بيئة اجتماعية أو مكانية معينة • ويؤكد فى أكثر من مناسبة أن حديثه ينصب فى أغلبه على القاهريين •

وفى ختام المقدمة يشير الاخبارى الى نقطة هامة تتعلق بمصـادر جمع المادة • فهو يقرر بصراحة أنه لم يركن الى اخباريين آخرين ، وانما « اعتمدت فى ذلك على ما تحققته بنفسى من احتكاكى بهم (يقصـد المصريين) ومعاشرتى لهم المدة الطويلة ، خصوصا اختلاطى واشتغالى مع جميع الطبقات »(١٤) •

كذلك حدد فى المقدمة الموضوعات الرئيسية التى انصرف اليهـا اهتمـامه • اذ يقول « ••• وحصرت كلامى فى التكلم عن الأخلاق وعادات الأفراح والأحزان وتربية الأولاد وغير ذلك »(١٥) • ومن هذا التحديد الدقيق نفهم أن الاخبارى شرع فى تدوين رسالة وفى يده خطته تنطوى على تكليفات دقيقة حددها له ليتمان فى الغالب • وكل هـذه الضوابط هى ولا شك من عوامل نجاح هذا العمل ، ومن مصادر قيمته الكبيرة فى الوقوف على بعض عنـاصر التراث الشعبى فى حقبـة من حقبات تاريخنا المعاصر •

وسوف انتقل فيما يلى الى معالجة الموضوعات الرئيسية للكتـاب مقسمة حسب التقسيم الرباعى لميدان التراث الشعبى ، الذى سبقت

---

(١٤) المرجع السابق ، ص ٤ •

(١٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة •

الاشارة اليه . وأبدأ بأهم مكونات التقرير . وهو ذلك القسم الخاص بالعادات الشعبية .

١ ـ العادات الشعبية :

يمثل هـذا الميدان كما أشرت فيما سبق صلب هذا التقرير ، حيث ان ثلاثة أرباع النقاط الاثنتى عشرة التى يحتويها التقرير تنصب على عادات دورة الحياة وعادات تنشئة الطفل وما الى ذلك . ويتضمن هذا الجزء الكلام عن :

* ولادة الطفل .
* السـبوع .
* الختـان .
* تعليم الطفل .
* عادات الأفراح .
* المـآتم .
* المحـازن .
* زيارة القبور .

وينهج الاخبارى أسلوب أسرة السرد السريع المختصر ، مع العناية بالتفاصيل فى بعض المواضع دون غيرها . وتمثل هـذه النقطة احدى أوجه القصور الفنية التى تعيب هذا العمل ، والتى تبرز أهميـة وجـود الدليل المبدئى بوجه الجامع وهو بصدد كتابة تقرير كهذا .

ولكى نضع بين يدى القارىء صورة دقيقة لهذه المشكلة نورد فيما يلى حديث المؤلف عن « ولادة الطفل » : « من العـادات عند المصريين

عنـــدما يقرب ولادة المرأة يحضرون الداية أو الحكيمة • وللداية كرسى من خشب ذات درابزين وترسله الداية للوالدة عنـــدما يقرب ولادتها • فمنهم من يزوق الكرسى بشرايط ملونة (من) الحـــرير والـــورد • وكرسى خصوصى للبكرية ، يعنى أول ولادة بس ، وبعـــده كده يروح الكرسى كالعادة •

من العادات عند بعض المتصوفين عندما يولد الطفل يؤدنون له فى ودنه (أذنه) الأذان الشرعى خوفا عليه من اصابته بمس الجن•ويقولون له فى ودنه : حفظناك من كل عين حاسد ، ومن عين كل عفريت وجن ومارد بحق محمد عليه السلام وابن عمه على بن أبى طالب وبحق عمر بن الخطاب لاعتقاد بعضهم أن الجان والشياطين تهرب عند ذكر اسم على بن أبى طالب أو اسم عمر رضى الله عنهما •

وعادة أمراء مصر وبعض الأعيان عند ولادة الطفل يستدعون بعض الفلكيين لينظروا طالع المولود هل هو سعد أو نحس ، وهل تطول حياته، وما هو مستقبله ••• الخ •

وعادة يميلون الى تسمية الطفل أو الطفلة بأسماء العـــائلة المحمدية الشريفة تبركا كمحمود ومحمد وأحمد وحسن وحسين • ومن النســـاء كفاطمة ورقية وزينب وخديجة ونفيسة وسكينة • أما الآن فتغير كل شىء وأخذوا فى مسميات اشتقوها جديدة حسب ذوقهم •

والولادة دائما تكون بواسطة الداية أو الحكيمة غالبا مندوهة عند الأغنياء ومن عادة الحكيمة عند ولادة المولود يوضع فى حمام المـــاء أولا ثم يلبسوه ملابسه وهكذا كل يوم يحموه لمدة أسبوع •

أما عند الطبقة الوسطى أو السفلى يهتمون بالباسه أولا ملابســه من قميص أبيض ولفافة كبيرة بيضاء يسمونها كفولة ، ثم يأتون بخنفسة كبيرة ويأخذون ريشة من وزة أو حمامة أو فرخة ويغمســـوها فى بطن الخنفسة ويكحلون بذلك عينى الطفل لفكرة أنه بذلك لا ترق عين الطفل وتحفظ صحة عينيه وتصير واسعة • ومنهم من يعصر فى عين المولود قطرة من الليمون فى كل عين • واذا كان الطفل نزل ولا يتنفس يشمموه قطعة من بصلة فيتنبه فورا ويصيح •

ومن العادة عند بعض أغنياء الفـــلاحين اذا ولد لهم مولود ذكر يذبحون له خروف ويفرقوه على الفقراء عند باب أحد الأولياء من مشاهير بلدهم • وتصير هذه عادة كل سنة ما دام المولود حيا ، لاعتقـادهم أنه يعيش وينصلح حاله » (١٦) •

ويمكن أن تتناول هـــذه الفقرة بالتعليق الذى يمكن أن يكون نموذجا يجسد مميزات وعيوب سائر أجزاء الرسالة التى نعـرض لها • فنلاحظ على هذه الفقرة ما يلى :

(أ) تناول المؤلف بقدر معقول من التفصيل موضـوع الأذان فى أذن الطفل ، والممارسات الطبية الوقائية التى تعمـل للحفاظ على عينى الطفل (وكلنا يعرف مدى انتشار أمراض العيون فى الريف المصرى ، وما تسببه من رعب يتجسد أمام كل شخص فى عشرات أو مئات الحالات التى يعرفها • ومن هنا سر احتفال الممارسات الطبية الشعبية بأمراض العيـون وعلاجها) • وكذلك فصل المؤلف بعض الشىء فى ملابس الوليـد ، وفى الأضاحى التى تقدم اكراما له عند بعض الطبقات •

---

(١٦) انظر المرجع السابق ، ص ص ١٢ ــ ١٦

(ب) أشار المؤلف اشارات عابرة أو قدم معالجات ناقصة لبعض الموضوعات مثل : كرسى الولادة ، (فقد وصف زينته فى حالة ولادة البكرية ، ولكنه أغفل وصف شكله «المعتاد » ، لأنه يعتقد أن هذا الشكل « مألوف » للجميع ولم يكن يدرى أن كلامه هذا الذى سجله فى عام ١٩٣٥ سوف يقرأ بامعان وتفحص بعد ذلك التاريخ بأربعين عاما ، حيث لا وجود لكرسى الولادة فى الممارسة اليومية) • كذلك مر المؤلف سريعا بموضوع رؤية طالع الوليد ، والداية •

(جـ) هناك بطبيعة الحال وكما يلاحظ القارىء بنفسه عشرات الموضوعات وآلاف التفاصيل التى لم يتطرق اليها المؤلف ، ويذكرها بكلمة واحدة • وأضرب المثل بالموضوعات التالية ،

- الممارسات الشعبية التى يعتقد أنها تسهل عملية الوضع •
  علامات الوضع •
  مكان الوضع •
- المعتقدات الدائرة حول وقت الوضع ، والتفاؤل أو التشاؤم بما يظهر أثناءه من ظواهر •
- طعام الواضعة أثناء الوضع وبعده •
- حالات الوضع غير العادية •
- العبارات التى يتم تبادلها بعد الوضع •
- التصرف فى الخلاص •
- طريقة معالجة الحبل السرى •
- تأثير جنس الوليد على كافة الممارسات المصاحبة لعملية الوضع •

ـ الأسلوب المتبع فى اعلان جنس الوليد .

ـ الاجراءات المتبعة لاكساب أعضاء الوليد المختلفة جمالا معينـة (وقد اكتفى المؤلف بالكلام عن العيون للأسباب التى تقـدم ذكـرها) .

ـ الممارسات السحرية التى تجرى لوقاية الوليد ، خاصة فى الليلة الأولى للوضع ، والليالى التالية .

ـ موضوع ولادة التوائم ... الخ(١٧) :

ولست هنا بصدد عملية سرد لكافة الموضوعات التى سقط ذكـرها من قلم المؤلف ، ولكنى أضرب مثالا للنقاط التى كان يمكن استيعابها فى حديث عن « ولادة الطفل » .

(د) يعتقد أن المؤلف قد جاوز الحقيقة عندما ادعى أن « بعض المتصوفين » فقط هم الذين يؤذنون فى أذن الطفل عقب ولادته . وأعتقد أن الخطأ هنا ناشىء اما عن خلط لمفهوم المتصوفين نشأ فى ذهن المؤلف مع مفهوم المتدينين بعـــامة ، أو أنه مجرد حكيم قيمى أراد المؤلف ـ لا شعوريا ـ أن يصدره على الفئة التى تمارس هذه العادة . ولم نقصد من الاشارة الى هذه النقطة مجرد هذ الجزئية ، وانما لأنها نموذج لبعض الأخطاء من نفس النوع التى تواترت على صفحات الرسالة .

---

(١٧) انظر محمد الجوهرى وزملاؤه ، الدراسة العلمية للعـادات والتقاليد ، مرجع سابق ، ص ٥٨ وما بعدها ، حيث يجد القارىء عشرات التفاصيل حول كل نقطة من هذه النقاط .

(هـ) أن المؤلف حرمنا من أوصاف بعض الأشـياء والموضـوعات الشعبية التى كانت منتشرة على أيامه ، لمجرد أنه اعتقد أن الأستاذ ليتمان ـ الذى كتب له هذه الرسالة ـ مطلع عليها وعارف بدقائقها . من هذا عدم وصفه لكرسى الولادة ، وعدم ايراده نماذج لأسماء الأشخاص التى كانت مستحدثة وشائعة على أيامه ، وأسلوب الداية ومظهرها والمعلومات المتعلقة بها ... الخ .

٦ ـ نقـدر للمؤلف التفاته الى الأبعاد الطبقية فى ايراد وصـفه لمختلف عناصر التراث الشعبى التى تناولها بالكلام ، ولكننا يجب أن نتوقع أن الحدود والأبعاد الاجتماعية لم تكن واضحة بدقة ، وان كانت سليمة فى خطوطها العريضـة . فهو يتكلم وعينه على طبقتين رئيسيتين هما : الأعيان (وعلى رأسهم الأمراء بالطبع) . وبقية الناس (أو العامة) . وتتأرجح الطبقة الوسطى ـ كعادتها ـ مرة مع الطبقة العليا . ومرة مع الطبقة السفلى ، ولكنها لا تستأثر منه باهتمام مستقل . وقد لاحظنا هذا فى حديثه عن ملابس الوليد عند « الطبقة الوسطى أو السفلى » ، وفى أكثر من موضع من الرسالة .

بعد ذلك ينتقل صاحب رسالة « السفر الجليل فى أخلاق وعادات سكان وادى النيل » الى الكلام عن السبوع فى كثير من التفاصـيل المفيدة فيتكلم عن الطعام الذى يعد فى اليوم الثالث ويوزع على الجيران والأصدقاء والأقارب فيكون بمثابة دعوة لزيارة السيدة الواضـعة ، وعن الممارسات التى تتم ليلة السبوع ، ويوم السبوع نفسه ... الخ .

وربما كان وجه القصور الذى يعيب هذه الفقرة ، ويتردد فى مواضع قليلة أخرى من الرسالة تطوع المؤلف (الاخبارى) بتقـديم تفسـيرات لبعض الدراسات الشعبية . وليس هناك أى عيب فى أن يهتم الجـامع

بسؤال الممارسين أنفسهم من تفسيراتهم للممارسة التى يؤدونها ، ولكن الإخبارى قدم هذا التفسير كما لو كان صادرا عنه هو ، ومنفصلا عن تفسير الممارسين أنفسهم . حيث يتكلم عن الدق فى الهون أثناء احتفال السبوع مفسرا اياه على النحو التالى : « ... فى هذا الوقت (أثناء رش الحبوب واطلاق البخور) تهز الداية المولود : ابقى اسمع كلام أمك وأبوك ، وواحدة من الجيران تدق فى الهون بالقوة والغرض ليعتاد على الأصوات المزعجة خوفا من فزعه »[١٨] . وواضح أن لهذه الممارسة تفسيرا علميا يختلف عن التفسير الذى يقدمه الاخبارى فى رسالته[١٩] .

هذا فى الوقت الذى قدم فيه الاخبارى فى موضع لاحق التفسير الشعبى لممارسة حمل الوليد — أثناء احتفال السبوع — والتجول فى كل حجرات المنزل (أو الزفة) وكذلك دحرجة الغربال خارج المنزل بعد ذلك بأنه رمز لمشى الطفل داخل المنزل وخارجه بعد أن يكبر . وفى هـذا يقول التقرير .

« ... وبعدين تحمل (الداية) المولود بين أيديها والأولاد قدامها بالسمع وتقوله :

برجالاتك برجالاتك ...

---

(١٨) انظر دراسة ليتمان ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(١٩) تمثل الضوضاء — خاصة العالية — وسيلة من وسائل ابعاد الأرواح الشريرة والكائنات فوق الطبيعية التى يمكن أن تنزل ضررا بالانسان . ولما كانت مناسبة السبوع من المناسبات التى يمكن أن تتواجد فيها بعض الأرواح الشريرة — كما يتصور المعتقد الشعبى — لهذا تحرص الأسرة على احداث ضوضاء عالية لطرد تلك الأرواح ، وليس من الضرورى بالطبع أن يقف أفراد الشعب الذين يمارسون هـذه العادة أو غيرها على التفسير التاريخى الحقيقى . فالوقوف على التفسير « الحقيقى » هو واجب الباحث الأنثولوجى .

ويدوروا بيه فى كل أوده فى البيت ، وينزلوا بيه للحوش فتفتح الداية باب السكة (الباب الخارجى للمنزل) وتدألج الغربال خارج الباب لفكرة أنه يعيش المولود ويبقى يجرى فى الحارة كجرى الغربال »[٢٠] •

ويتناول التقرير تحت عنوان السبوع أيضا بعض الممارسات الأخرى التى كانت جديرة بفقرات مستقلة مثل : التصرف فى شعر البطن (عند الأولاد والبنات) وحمل الطفل ، ورضاعة الطفل •

تعليم الأطفال وتربيتهم :

ويخصص الاخبارى فقرة مستقلة للكلام عن نظم تعليم الأطفال وتأديبهم عند الطبقات الاجتماعية المختلفة • وأبرز ماتتضمنه تلك الفقرة انتباه الاخبارى الى ابراز ملامح التغير الذى طرأ على هذا الجانب من جوانب الثقافة الشعبية • فهو يشير الى نظام الكتاتيب (فى الماضى) ثم الى التطوير الذى طرأ عليها : « ولكن الآن صار غالبها منظما تحت اشراف وزارة المعارف ويجلسون على مقاعد من الخشب فى أمكنة صحية ، ويتعلمون الحساب والقرآن والجغرافيا والخط والرسم وعلوم الصحة »[٢١] •

ولعل من الأمور الهامة التى اعتنى الاخبارى بالكلام عنها كذلك المحتوى التعليمى للكتاتيب : « ••• ومن عادة هذه الكتاتيب أن الطفل اذا تعلم فك الخط يحفظوه أسماء الله الحسنى وهى ٩٩ اسما ، ثم يحفظ بعد ذلك القرآن الشريف كله • وكان يعتنى جدا بتحفيظ القرآن للأطفال حتى كان بعضهم يتم حفظه وتجويده وعمره لا يبلغ الاثنتا عشرة سنة •

---

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٢٨ •

(٢١) المرجع السابق ، ص • ص ٣٨ ــ ٤٠ •

غير أن الآن بسبب الحاق هذه الكتاتيب بوزارة المعارف صار يقتصر على تحفيظهم جزىء عم وتبارك مع بعض العلوم العصرية كما سبق ذكره »[٢٢]

عادات الأفراح :

بعد أن فرغ التقرير من الكلام عن تنشئة الطفل وتأديبه انتقل الى تناول عادات ومراسيم الأفراح عند المصريين • فيبدأ بمناقشة موضوع الخاطبة ويعرض لطبيعة عملها والمهن أو المهنة التى تمارسها عادة (كأن تكون بلانة فى الغالب) ، وخطتها فى مباشرة مهمتها ••• الخ • ونراه يدقق فى تحديد ملامح الصورة ، فلا يخرج القارىء بانطباع أن الخاطبة هى وسيط كل زواج يتم فى المجتمع • وانما تستخدمها بالطبع الأسر التى تعيش بعيدا عن بلدها الأصلى ، أو ذات الأقارب المحدودين • حيث انه فيما عدا هذا من الظروف تكون دائرة العلاقات الاجتماعية من السعة بحيث لا تجعل هناك احتياجا الى استخدام الخاطبة •

وبعد أن يفرغ من استعراض الاجراءات التمهيدية لعقد الزواج ينتقل الى الكلام عن « جهاز » البيت الجديد فى فقرة مستقلة بعنوان « صفة الجهاز »[٢٣] ويلاحظ أن الاخبارى قد استرسل فى وصف الجهاز عند الطبقات الموسرة ، وأغفل تماما الكلام عن جهاز الفقراء ، ربما بسبب بساطته الشديدة : أو خجلا منه من استعراض مكوناته القليلة • ويهمنا أن نشير فى هذه النقطة بالذات الى حديث الاخبارى عن بعض أشكال وأحجام وأوزان قطع الأثاث النحاسية والوصف المفصل لبعض أدوات المطبخ • ولا شك أن استكمال هذا الوصف الجيد باستعراض الفروق

---

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٢٨

(٢٣) المرجع السابق ، ص ص ٣٨ ــ ٤٠ •

بين الطبقات كان سيثرى هذه المعالجة ، خاصة وأن هـذه الفروق تبدو سهلة الملاحظة يسيرة التناول فى كل ما يتعلق بالأشياء المادية المنظورة .

ويقودنا استعراض السـياق بعد الاعداد للزواج الى الكلام عن احتفال الزواج ومراسيمه واجراءاته . ومن الطبيعى أن الكاتب لا يمكن أن يحيط بكل الاجراءات والممارسات ، والا لاحتاج الى كتاب مستقل يتناول فيه احتفالات الزواج وحدها . وكان من العادات الطريفة التى أغفل الكلام عنها عادة « زفة الحمام »[٢٤] ولكنه يتكلم مع ذلك بقدر معقول من الدقة عن احتفالات الزفاف ، وعن « زفة الجهاز » فيتناول موعدها ،

---

(٢٤) الاشارة هنا الى الزفة التى تصحب العريس من الحمام (العام) الى المسجد . وقد وصفها ـ على سـبيل المثال ـ وليام لين فى كتابه « المصريون المحدثون » ص ص ١٠٥ وما بعدها وكانت تنطوى عنـد الطبقات العليا على كثير من البذخ ومظاهر الترف . وقد تحولت تلك الصلاة التى تنهى الزفة فى المسجد الى مجرد طقس شكلى كاد أن يفقد معناه الدينى تماما .. حيث يقول لين : « . . ان الصلاة تقام للاحتفال فقط ، وفى أكثر الأحيان لا يصلى العريس مطلقا ، أو يصلى من غير وضـوء ، مثل المماليك الذين يقيمون صلاتهم خوفا من سادتهم فقط . (ص ١٠٨)

وقد لاحظت ـ فى رسالتى للدكتوراه ـ نفس الملاحظة الشكلية فيما يخص الصلاة على الميت . حيث فقدت الصلاة ـ أو كادت ـ معناها الذى كان سائدا أيام الرسول صلى الله عليه وسلم . اذ كانت تقام بهدف التخفيف على الميت وحبا له واعزازا . أما فى العصر الحديث ـ بل ومنذ عدة قرون ـ أصبحت تمارس منفصلة عن معناها الأصـلى ، أى أن الشعب احتفظ بالشكل دون المضمون . وهناك أكثر من دليل على ذلك ، حيث نلاحظ أن الكثيرين من المشتركين فى الجنازة لم يعودوا يشاركون فى الصلاة على الميت، فينصرفون قبلها ، أو ينتظرون خارج المسجد للانضمام الى موكب الجنازة بعد الصلاة ... انظر :

Aliaa Shoukry, Wandlung and Konservierung des Totenbrauches in Agypten von der Mamlukenzeit bis zur Gegenwart, Bonne, 1968.

علياء شكرى : « الثبات والتغير فى عادات الموت فى مصر منذ العصر المملوكى حتى العصر الحاضر » .

وترتيب قطع الأثاث التى تستعرض فيها ، وصفة المشتركين فيها ، ومظاهر الفرح المصاحبة لها ... الخ . وبنفس التفصيل يستعرض الاخبارى زفة العروس (ص ٥٨) ، وان كانت المعلومات التى أوردها حول هـــذا الموضوع تقل كثيرا عما أورده كتاب آخرون ، وأبرزهم ويليام لين على سبيل المثال .

وقد أسهب المؤلف فى الكلام عن حفل الزفاف نفســـه ، فوصف الاستعدادات الخارجية من الصوان ، والرايات ، والأنوار ، وغير ذلك . كما تناول بتفصيل كبير الغناء فى الحفل من حيث التخت ، وأسماء المغنيين. ويلاحظ أن الاحتفال ينقسم فى الحقيقة الى احتفالين أحدهمـــا خاص بالرجال ، والآخر خاص بالنساء .

ويفيض الاخبارى فى الكلام عن أغانى العوام واستعراضاتهن ، وهى من الظواهر التى كانت ذات أهمية بارزة فى احتفالات ذلك العصر . وقد خصص لذلك فقرة مستقلة سماها « أغانى العوالم » أورد فيها نصوص بعض الأغانى التى تتردد عادة فى هذه المناسبات ومن أشهرها : « غنوة زفة العروسة » و « غنوة العريس والعروسة » ... الخ .

والشىء الذى يلفت النظر فى هذه الفقرة أن الاخبارى نفسه انساق وراء هذه المظاهر البراقة لاحتفالات العوالم ، فأغرق فى عرض كل هذه التفاصيل ، (حتى انه أورد أسماء مشاهير العوالم على أيامه) ولكنه لم يشر بكلمة واحدة الى الأغانى التى كان يرددها الشـــعب فى مثل تلك المناسبات . من المقطوع به أن العوالم لم تكن تغنى لكل الطبقات ، ولا تحيى أفراح كل الناس . ولذلك فانه من المؤكد أيضـــا أن الناس كانت ــ وما زالت ــ تردد فى مثل هذه المناسبات أغانى شعبية خاصـــة بها . ولا شك أنه كان أجدى بالأستاذ ليتمان أن يوجه الاخبارى الى تسجيل

تلك الأغانى من أفواه الناس ، ومن خلال المناسبات الحية ، حيث ان أغانى العوالم ، شأنها شأن أغانى أى فئة محترفة ، ليس من المتعذر جمعها فى أى وقت ، وحتى خارج المناسبة الأصلية نفسها .

وقد أغفل كاتبنا الاشارة الى عدد من الاحتفالات والممارسات المتعلقة بالزواج ، والتى نجد لها وصفا تفصيليا فى بعض المصادر الأخرى ، مثل الاحتفال بسبوع العروس ، وأربعين العروس[٢٥] . كما أغفل الحديث عن بعض القيود التى تفرض على العروس كامتناع المرأة المتزوجة حديثا عن الخروج من المنزل الا بعد أن تلد طفلها الأول[٢٦] . وربما كان محتملا أن مثل هذه القيود قد خفت أو تلاشت كلية بمرور الزمن ، بحيث انه لم تكن هناك مناسبة واقعية للاشارة اليها .

عادات الموت والحداد :

وننتقل الى المآتم فنجد الكلام أكثر احاطة بالتفاصيل الغنية ، حيث يبدأ الوصف بالتفرقة بين مآتم الطبقة العليا ومآتم الطبقة الدنيا . ويشير الى صيوان المآتم ، وعناصر الاحتفال ، وأسماء بعض مشاهير المقرئين فى ذلك الوقت ، وعدد ليالى الاحتفال ، وتحولها فى الغالب الأعم الى ليلة واحـدة فقط .

ولكنه مع ذلك يعدد مزيدا من التفاصيل عنـد كلامه عن مخـازن النساء ، فيصف سلوك المحيطين بالميت فور حدوث الوفاة وصفا تفصيليا ، وهو فى معظمه ــ أو فى مجموعه ــ سلوك النساء اللائى يحطن بالميت . ولذلك فانه من خلال الصراخ والبكاء يتم فى اللحظات الأولى الاعلان عن وقوع حالة الوفاة .

---

(٢٥) انظر ويليام لين ، الترجمة العربية ، المرجع السابق الاشارة اليه ، ص ٤٠٨ .

(٢٦) لين ، نفس المرجع ، ص ٤١٠ .

وقدم الاخبارى تفاصيل قيمة فى وصف « محزنة النســاء » تتعلق بدور الندابة والمعددة والشيخة ، حيث تغنى المعددة شعرا حزينا مسموعا ، أما الندابة فتغنى « أدوارا » فى ندب الميت ومحاسنه يصاحبها سـيدتان أو ثلاث سيدات ، ويستمر (الدور) حوالى ربع الساعة .

وتستمر محزنة النساء ثلاث ليال ، واختلاف مدة المحـزنة من حالة الى أخرى تبعا لسن المتوفى أو درجة اعزازه ... الخ . ويحظى الاحتفال بيوم الأربعين بمكانة خاصة لدى كافة الطبقـات والمسـتويات ، وما يتم أثناء ذلك الاحتفال من ممارسات .

وفى النهاية يستعرض الاخبارى مناسبات زيارة القبر ، أو «الطلعات» التى تزور فيها الأسرة قريبها المتوفى . وأبرز تلك المناسبات : « طلعة أول جمعة من شهر المحرم ، وطلعات شهر رجب الثلاثة ، وطلعة نصف شعبان وآخر شعبان (طلعة الوداع) وطلعة العيد الصغير ، وطلعة العيد الكبير .

والملاحظة العامة على عرض ليتمان لعادات الموت أن الاخبارى الذى استعان به قد أغفل اغفالا كاملا تقريبا عددا من الممارسات والعادات الهامة التى تلعب دورا خطيرا عند المصريين . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض العادات المتعلقة بالغسل ، وتكفين الميت ، والجنازة ، والصـلاة على الميت . وكان الكلام عن هـذه العادات سييسر لنا الكشف عن مظـاهر التغير وعوامله وعملياته فى واحد من أهم مجالات العـادات الشـعبية المصرية .

ففيما يتعلق بالغسل مثلا نجد حـديث لين المفصل يمدنا بالأسس اللازمة للمقارنة لمـا كان يحدث فى العصور السابقة ، خاصة فى صـدر العصر الاسلامى ، وفى عصر المماليك . حيث كان الغسـل فى العصـور الاسلامية الأولى من الأعمال التى يقوم بها أقارب المميت أو أصـدقاؤه

المقربون تعبيرا عن حبهم للميت واعزازهم له • أما ويليام لين فيحدثنا عن المغسل المحترف الذى أصبح يؤدى هذا العمل لقاء أجر نقدى • وما يقال عن الغسل يمكن أن يقال عن التكفين وغيرهما من عمليات اعداد الميت للدفن ، وكذلك عن ممارسات الحداد وغيرها •

كذلك لم يشر التقرير الذى نعرض له من قريب أو بعيد الى بعض الأساليب والوسائل الحديثة للاعلان عن الوفاة • والواقع أنه كان من المفروض أن يتعرض الاخبارى لذلك الجانب من عادات الموت الذى لا يرتبط بالتراث بقدر ما يرتبط بتوفر واتاحة الأساليب والمخترعات الحديثة ، كالتليفون ، والتلغراف ، والصحف •••• الخ ، كما ترتبط تلك العمليات باتساع نطاق شبكة العلاقات وتعقدها • اذ أنه من البديهى أن الصراخ والعويل ربما كان يكفى للاعلان عن وقوع الوفاة فى دائرة القرية الصغيرة فقط ، ولكنه لم يعد يكفى اذا نمى حجم القرية واتسع نطاقها • فما بالك اذا انتشرت دائرة الأقارب والمعارف نتيجة الحراك الجغرافى الواسع الذى صاحب التطورات الحضرية (٣٧) •

٢ ـ الثقافة المادية :

تناول الاخبارى بالعرض بعض عناصر الثقافة المادية فى المجتمع المصرى على أيامه • وقد انصب معظم حديثه على الأزياء ، وعلى بعض قطع الأثاث • فخصص فقرة مستقلة للأزياء « الكلام عن ملابس المصريين » (ص ص ٨ ـ ١٢) • أما حديثه عن بعض قطع الأثاث ومعدات المطبخ فقد جاء فى ثنايا حديثه عن الجهاز كما سلف الاشارة فى الجزء الخاص بعادات الزواج •

---

(٣٧) انظر مزيدا من التفاصيل حول هذا الموضوع عند علياء شكرى ، الثبات والتغير فى عادات الموت فى مصر من العصر المملوكى حتى العصر الحاضر ، رسالة دكتوراه منشورة ، مرجع سابق ، الفقرة الرابعة من الفصل الأول •

والملاحظة الأساسية عن حديث المؤلف عن الأزياء أنه قد راعى البعد الاجتماعى فى عرضه لمادة هذا الفصل . فصنف الملابس الرجالى الى خمس فئات ، كما راعى البعد الجغرافى على نحو ما سنوضح فيما بعد .

١ ــ وكانت الفئة الأولى فى ملابس الرجال هى ملابس الرجال الأغنياء . ويكتفى بالاشارة الى أن ملابس هذه الفئة تتكون غالبا من الملابس الأوربية . وما زالت هذه الحقيقة تصدق على المصريين حتى يومنا هذا . وان كانت الملابس الأوربية الحديثة قد عبرت حدود الزمان والمكان ، وأصبح الطابع القومى غير واضح على الاطلاق سواء فى أوربا أو خارجها .

٢ ــ أما الفئة الثانية فهى ملابس أعيان أهل البلد الوطنيين .

٣ ــ والفئة الثالثة هى ملابس الصناع . ويهتم على ذلك فى هذه الفقرة بالاشارة الى التغيرات التى طرأت على ملابس الصناع من حيث الألوان ، ونوع القماش الذى تصنع منه تلك الملابس ، وصفة بعض القطع كالمركوب الأحمر . وفى هذا يقول التقرير : « ... ملابس الصناع : قفطان غزلى أو جلابية بيضاء أو سوداء مصبوغة ، وتكون من البفتة . وفى القدم مركوب أحمر .. ولكن الآن كثير من الصناع غيروا ملابسهم ، وصاروا يلبسون الجلاليب من الزفير على جميع الألوان ، وفوقه بلطو أسود أو كحلى أو رصاصى ، وعلى الرأس اما طربوش أو طاقية حرير بيضاء ، وفى القدم جزمة ملونة » . (ص ٨ ــ ١٠) .

٤ ــ والفئة الرابع هى ملابس الفقراء ، اذ يلبسون جلابية زرقاء ، ويمشون حفاة الأقدام ، الا فى الأعياد ، فانهم يلبسون « بلغة أو مركوب بدون شراب » .

٥ ـ أما الفئة الخامسة والأخيرة من ملابس الرجال فهى ملابس الفلاحين . وبعد أن يستعرض المؤلف قطع الملابس الأساسية عند هـذا القطاع من الشعب ، يورد ملاحظة لها قيمتها فى مجـال دراسـة التراث الشعبى وهى على بساطتها أثبتتها البحوث الحديثة فى علم الفولكلور ، خاصة تلك ذات الاتجاه السوسيولوجى .

يقول الاخبارى : « ... الا أنه الآن زى بعض أعيان الفـلاحين يقلدون أعيان أولاد البلد فى ملابسهم ، واتخذوا الجزم بدل المراكيب ، وأخذوا فى التمدن وتركوا مزارعهم واستوطنوا مصر وتزوجوا من نسائها . وتركوا أزواجهم (يقصد زوجاتهم) الفلاحات بالبلاد لخـدمة الدوار والمواشى واشتروا الأوتومبيلات ، وعاشوا عيشة الأمراء »[٢٨] (ص١٠) .

أما ملابس النساء فيصنفها هى الأخرى الى خمس فئات على النحو التـالى :

١ ـ الفئة الأولى هى ملابس النساء الفتيات ، وملابسهن كالسيدة التركية تماما . كما يشير الى أنهن يلبسن أيضا بعض قطع الزى الأوربية كالقبعات وغير ذلك .

٢ ـ أما الفئة الثانية فهى ملابس نساء الطبقة الوسطى ، التى يصفها بأنها محافظة على تقاليدها . وتلك هى الأخرى من الحقـائق التى دلل

(٢٨) أثبتت دراسات علم الفولكلور ان حركة التراث الشعبى من أعلى الى أسفل تمثل أهم مظاهر حركة التراث الثقافى داخل الكيان الاجتماعى ، وهى الظاهرة المعروفة فى المؤلفات الأوربية « بنزول » التراث من الطبقة المثقفة الى « الطبقة الأم » أو «الطبقة الدنيا» للشعب وقد قام هانزناومان H. Naumann بشرح هذه الظاهرة باستفاضة ، بعد أن كانت قد ظهرت دراسة جزئية حولها من قبل ، مثل تلك التى أثبتت « نزول » بعض الأغانى من الطبقات المثقفة الى الشعب

عليها البحث الفولكلورى المعاصر ، خاصة تلك التحليـلات ذات الطابع السـوسيولوجى • حيث المؤكد الآن أن الطبقـة الوسـطى هى أكثر الطبقات حفاظا على التراث ، وتبدو هذه الحقيقة بأوضح صـورها اذا استشهدنا بالجانب المـادى المتمثل فى الملابس •

٣ ــ والفئة الثالثة هى ملابس « الطبقة الفقيرة » على حد تعبيره : « ••• فغالب ملابسهن جلاليب شيت وتحتها قميص أبيض أو جـلابية بفتة سوداء مصبوغة ، ويلبسن فى أقدامهن شبشب بلدى ثمنه تقريبـا خمسة قروش صاغ » • (ص ١٢) •

٤ ــ أما ملابس الفلاحات الأغنياء • فمنهن من تلبس « الجـلاليب الحرير على كل لون اما الأسـود السـادة أو الجلاليب الملونة بالورد والأزهار الكبيرة • ولباسهن من الشاهى والبرقع قصبة عروسته كبـيرة من الذهب لا يقل ثمنها عن ٨ جنيهات مصرية • ومنهن من تضـع عليه الخريات الذهبية على طوله صفين على جانبى البرقع ، والخريات منهـا مايساوى ثمن الخرية ١٠ أو ٥ صاغ • وتصنع هذه الخريات فى استامبول وفى قدمها جزمة اذا كانت أكثر تمدنا ، أو بلغة صفراء فاس لا يقل ثمنهـا عن ٤٠ صاغا » •

٥ ــ وفى هذه الفئة الأخيرة يعدد المؤلف مكونات لبس الفـلاحات الفقـيرات •

وقد ظهر البعد الطبقى بشكل واضح فى أزياء النساء ، كمـا ظهـر كذلك تأثير البعد الجغرافى (أو بعد الريف والحضر) فى اختيـار قطـع الزى • وقد اعتمد المؤلف هـذين المعيارين أسـاسا لتصنيف ملابس المصريين • وقد جاءت هذه الفقرة من أغنى ما كتبه المؤلف فى تقريره •

أما الجانب الآخر من حديث الاخبارى عن قطع الأثاث ، وخاصة بعض الأوانى ، فقد وردت الاشارة الى طبيعته والى حجمه فى ثنايا حديثنا عن عادات الزواج . ولذلك لا نجد مبررا للخوض فيه هنا مرة أخرى .

٣ ـ الأدب الشعبى :

أشرنا فى مقدمة حديثنا الى أن التقرير الذى نعرض له قد ركز بشكل رئيسى على العادات والتقاليد الشعبية . وقد حال هذا التركيز بينه وبين الكلام بالقدر الواجب عن أدب الشعب . ولعل هذا التركيز فى الاهتمامات كان ثمرة توجيهات مباشرة من الأستاذ ليتمان نفسه . ذلك أن ليتمان قد نشر قبل هذه الدراسة وبعدها دراسات أخرى عديدة عن بعض الأنواع الأدبية الشعبية . وهى دراسات تعد من أبرز وأهم ما كتب فى موضوعها عن الأدب الشعبى المصرى الحديث . ولا ينسى العالم المثقف ترجمة ليتمان ودراساته وتعليقاته على حكايات ألف ليلة وليلة . كما نشر دراسة عن الأغانى والأناشيد التى تؤدى فى مناسبات الاحتفال بالأولياء ، وكذلك دراساته عن الأدعية والنصوص التى تستخدم لاستحضار الأرواح وتسخيرها لأداء أغراض معينة . وأخيرا وليس آخرا دراسته عن القصص الفكاهية والنوادر ، وهى كلها تؤكد أن ليتمان كان يهتم اهتماما فائقا بالأدب الشعبى المصرى ، ولذلك لم يرد أن يثقل على كتابه بالتعرض لبعض تلك الجوانب الفنية ، التى كانت تتطلب فى المقام تسجيلا دقيقا وملاحظة حاذقة للجو والملابسات التى تصاحب أداءها . وهو ما كان يفضل أن يقوم به ليتمان بنفسه ، وقد أحسن القيام به كما أشرنا[٢٩] .

---

(٢٩) ليرجع القارىء الى قائمة مؤلفات ليتمان التى أوردناها فى مطلع هذا المقال ، حاشية رقم (١) .

ومع ذلك فقد تضمنت الرسالة التى نعرض لها فى هذا المقال قدرا غير قليل من النصوص الأدبية الشعبية ، وان كانت نصوصا خاصة بطائفة معينة هى طائفة العوالم • فقد عرضنا فى ثنايا حديثنا عن أفراح الزواج الى أبرز الأغانى التى دون الاخبارى نصوصها فى تقريره • وليرجع القارىء الى ذلك الجزء •

٤ ـ المعتقدات والمعارف الشعبية :

لم يخصص ليتمان فقرة مستقلة من تقرير كاتبه للكلام عن المعتقدات الشعبية أو المعارف الشعبية • ولكن ذلك لا يعنى أن التقرير قد أغفل ذلك الجانب الهام من جوانب التراث الشعبى لأى شعب من الشعوب • فقد اهتم الاخبارى فى بعض المواضع باستعراض معتقدات الشعب حول موضوع أو ممارسة معينة فى ثنايا حديثه عن العادات • فاذا كانت العادة هى التجسيد الحى المشخص لمعتقد أو عدد من المعتقدات ، واذا كان الاخبارى قد ركز الجانب الأكبر من اهتمامه على العادات ، فلابد وان تكون المعتقدات قد حظيت بالقدر الواجب من الاهتمام • وهذا هو نفس السبب الذى لن يسمح لنا بأن نقدم استعراضا مفصلا للمعتقدات والمعارف الشعبية التى ذكرها المؤلف • لأن ذلك سيقودنا الى تكرار جانب كبير من حديثنا فى الفقرة « أولا » عن العادات والتقاليد الشعبية •

والفقرة الوحيدة التى خصصها المؤلف صراحة للكلام من أحد موضوعات المعتقد الشعبى ، هى الفقرة الأخيرة من التقرير (ولعل هذا يلقى الضوء على احجام المؤلف عن الخوض صراحة فى موضوعات المعتقد الشعبى ربما بسبب خجله منها ، أو اعتقاده هو شخصيا أنها خرافات لا تستحق الذكر فى سياق كهذا) • وعنوان هذه الفقرة ، « خرافة النداهة » • والشىء الذى يلفت النظر أنه لم يتناول بالعرض صورة

« النداهة » عند الشعب ، أو بعض الحوادث التى لعبت فيها فكرةالنداهة دورا معينا .

والنداهة صورة من الكائنات الخرافية أو الكائنات فوق الطبيعية التى يعرفها المعتقد الشعبى المصرى . فهى بذلك صورة مقاربة للجن ، أو « القرينة » ، أو « الأخت » ، أو الأرواح .. الخ ، وان كانت أقرب ما تكون الى « القرينة » أو « أم الصبيان »(٣٠) .

ولكن كاتب التقرير الذى نعرض له يقص حكاية عصابة من اللصوص تستخدم احدى النساء المحرمات تطلق عليها اسم «النداهة». وتظهر المرأة للشخص ليلا ، أو تدخل البيوت ليلا ... الخ وتنادى الرجل باسمه ، فيقترب منها ، حيث يكون أفراد العصابة بالقرب منها ، فتضربه ضربة تفقده وعيه ريثما تتم سرقة منزله أو نهب محتويات جيوبه...الخ. فهذه العصابة حاولت فى الحقيقة أن تتستر وراء معتقد شعبى معين ، الى حد أنها ظلت ترتع فى اجرامها والناس تخشى التصدى لها ، فاذا دخلت أحد المنازل ليلا ، ونادت صاحب البيت باسمه ، ارتعد هو وأسرته ،.

---

(٤٠) أم الضبيان أو القرينة أو التابعة من الشخصيات التى يعرف المعتقد الشعبى الكبير عنها ، وعن أفعالها ، وكذلك عن طرق علاج أضرارها التى تنزلها بالانسان . وتظهر قرينة الأم بالذات مدفوعة بدافع الحسد. والغيرة (نظرا لأنها لم توهب قدرة الأم الانسية على الانجاب) اما لكى تقتل جنينها فى بطنها أو تهددها فى حملها ، أو حتى بعد أن يتم الوضع تهاجم الطفل وتسبب له امراض الأطفال ، والضعف ، ونحولة الجسم . ويرى محمد الجوهرى أن هناك تطابقا كاملا بين الدور الذى تلعبه « الأخت » ودور القرينة ، بحيث ان الباحثين يميلون الى اعتبارهم تسميات مختلفة لنفس الشخصية . قارن : محمد الجوهرى « الجن فى المعتقد الشعبى المصرى » ، مقال المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الأول من المجلد التاسع ، يناير ١٩٧٢ ، ص ص ٩٥ — ١٣٠ ، خاصة ص . ص ١١٠ — ١١١ ، وكذلك المراجع الواردة هناك ، ومازال الأمر يحتاج الى مزيد من الدراسات الميدانية على الواقع المصرى التى تمكننا من القاء الضوء الكافى على حقيقة تلك الظواهر وازالة مايعلق بها من غموض وأبهام حتى فى كتابات الدارسين.

وأقفلوا دونهم أحد الأبواب ، ريثما تتصرف النداهة وأصحابها ومعهم كل ما غلا ثمنه وخف حمله .

وقد نبه الاخبارى فى بداية تلك الفقرة الى أن هـــذه القصة قد نشرتها احدى الصحف القاهرية مؤخرا لتحذير سكان المـدينة من تلك العصابة ، وعدم الاعتقاد بأن تلك الشخصية هى النـداهة حقيقة . ولا أدرى هل أورد الاخبارى تلك القصة لكى يقنع ليتمان أن الخرافات هذه لا أساس لها ، وأن هناك بعض الأشخاص الذين يتســترون وراءها . أم أنه يريد بذلك أن يدلل على سعة انتشارها وعمق تأثيرها فى قلوب الناس ولكن المهم على أى حال أن كاتبنا لم يحاول أن يرسم لنا صورة النداهة فى أذهان الناس ، ومفومهم الفعلى عنها ، دون محـاولة اثبات خطـأ أو صواب ذلك التصور الشعبى ، لأن تلك قضية قد تشغل المصلح الدينى أو الفيلسوف ولكنها بعيدة عن دائرة اهتمام الباحث العلمى ، خاصة فى ميدان المعتقدات الشعبية .

٥ ـ الشخصية المصرية

اذا كان الكلام عن شخصية شعب من الشعوب أمرا عسيرا عـلى المتخصصين والعلماء أنفسهم ، فانه من البديهى أن تكون أشد عسرا على كتاب مثل الاخبارى صاحب الرسالة التى نعرض لها اليــوم . ذلك أن ملامح شخصية شعب من الشعوب لا يمكن أن يتحدد من خـلال بعض الأحكام المتضاربة على شخصية العامة والانطباعات الشخصية وأصـدق مثل على هذا الأحكام المتضاربة على شخصية الفـلاح المصرى (٣١) .

---

(٣١) أوضحت دراسات سابقة أن محاولة تحـديد شخصية الفلاح المصرى دون الاعتماد على دراســة تراثه الشعبى يقود الى اطلاق احكام متضاربة أشد التضارب عن الفلاح المصرى . ذلك أن اغفال تلك الحقيقة قد انتهى بكثيرين من دارسى المجتمع القروى فى مصر ، بل من مثقفينا الذين =

ولذلك فان قيمة كلام المؤلف عن « أخلاق المصريين » ليست من طبيعة موضوعية ، وربما كانت أقرب الى الدلالة على شخصية صاحبها لا على شخصية الانسان المصرى .

فنجده يصف المصريين بأنهم «على جانب عظيم من الذكاء» ، كما لو كانت هناك شعوب ذكية وأبرى أقل ذكاء . ويجد المؤلف أن كلامه هذا يتعارض مع واقع التخلف الذى كان يعيش فيه المصريون ، فيفسر ذلك بأنه لا ينقصهم سوى « الرجل المربى أى المعلم فى كل فن » . (ص ٤) . ويمكن أن نستعرض فيما يلى أبرز سمات المصريين كما يصورها التقرير .

١ ـ فيما يتعلق بالقدرات العقلية للمصرى : « ... ومن أخلاقهم عدم استقصائهم فى بحث الفنون حتى النهاية ، ولذلك النبغاء منهم قليلون. وهم ميالون بفطرتهم للعلوم الرياضية على أنواعها ، ولهم شغف زائد فى

= تناولوا ـ فى مناسبة أو أخرى ـ بمسائل فكرية وثقافية عامة متصلة بمجتمعنا المصرى كله الى فكرة شوهاء عن الفلاح ، وبالذات فى الجانب الاعتقادى من ثقافته . وهو أصعب الجوانب فى الدراسة وأبعدها عن التناول السطحى أو السريع » . أنظر مقال « الفولكلور ودراسات علم الاجتماع الريفى » فصل فى محمد الجوهرى وزملاؤه ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، الكتاب الرابع عشر من سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، القاهرة ، دار الكتب الجامعية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ، ص ص ٢٦٤ وما بعدها ، خاصة ص . ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩

كذلك عقدت الدكتورة حكمت أبو زيد فى كتابها عن التكيف الاجتماعى فى الريف المصرى الجديد ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ، عقدت فصلا بعنوان . « الفلاح المصرى بين القديم والحديث » ، ص ٢١ وما بعدها . وقد أوردت فيه بعض الأمثلة التى تظهر غموض التعريف من ناحية ، والتضارب من ناحية أخرى . انظر المرجع الذى سلفت الاشارة اليه ، حاشية رقم ٦٧ .

تعلم عدة لغات ، ولكن مع عدم اتقانها جميعا • وذلك راجع على ما أظن لعدم ملكة الصبر فيهم اذ يغلب على معظمهم الضجر والملل ، وهي خلة رديئة جدا اذا اعترضت الرجل الباحثة أقعدته عن الطموح الى مراقي الفلاح ، وكانت حائلا عظيما ضد ما يرغبه ويتمناه » (ص ٤) •

٢ ــ أما عن الجمال والقيم الجمالية عند المصريين فيقول كاتب الرسالة : « والمصريون شديدو الغيرة على نسائهم كما هي العادة الشرقية، ولهم ولع عظيم بالجميلات خصوصا السمينات منهن اذا كن غير مفرطات في السمنة » • (ص ٤) •

٣ ــ أما عن الكرم والعادات الاقتصادية فنقرأ أن : « ••• من طبعهم القناعة والاكتفاء بالرزق القليل ، ولو رزق يوم ولا يهمهم الغد • وميالون الى السخاء والكرم ، وقلما نجد بخيلا ولو كان فقيرا • وربما يستدين الرجل لأجل عمل الواجب نحو مضيفه ، ويتفاخرون ويتباهون في ذلك » • (ص ٦) •

٤ ــ وفيما يتعلق بعلاقة المصريين بالغريب : « ويحبون الغريب ، ويؤهلون به كفرد محبوب من عائلتهم • وسرعان ما يستسلمون للغريب حتى ولو في ذلك فقد ثروتهم ، وذلك راجع لحسن ظنهم بالغير» •(ص٦)•

٥ ــ ومن سماتهم النفسية الأخرى أنهم : « بطبعهم غير ماكرين • وهم ميالون الى مصداق كل ما يلقى عليهم ، ولذلك تراهم دائما مخدوعين تحت تأثيرات الأجنبي • محبون لتعاطي الصناعات والتجارة ولو على غير قانون وأساس • مكتفين بالرزق الحلال ولو قليلا • سريعو الغضب قريبو الرضا لأن قلوبهم نقية مثل الثلج • يغلب عليهم الاستحياء ، فهم لا يرفضون

لأحد قولا ولو فى غير مقدورهم • قوالون من غير فعل ، أى أن أقوالهم أكثر من فعالهم • مجبون للمروءة ولو تعود عليهم بالضرر ، رقيقو العواطف حتى يتملكهم البكاء عند رؤيا احدى المؤثرات • يتألمون لمصاب الجار أكثر مما يتألمون لأنفسهم وذلك لرقة طباعهم » • (ص ٦) •

٦ ــ وعن حبهم للفكاهة يقول التقرير : (كثيرو البشاشة دائمو الابتسامة يكاد ألا تراه كئيبا ولو فى حزن ، وذلك لسماحة وجوههم وتناسق شكلهم • ظرفاء فى المعاشرة حتى لا يمل حديثهم ، قليلو الحيلة عند نزول المصائب ، وذلك لشدة جزعهم وقلة صبرهم ••• يستسهلون كل صعب اعتمادا على ما يأتيه الغد • غير بصيرين بالعواقب لطيش فيهم • ولعون بالغناء والمرح لميل غريزى فيهم » (ص ٨) •

ويمكن أن تطول قائمة السمات ، ولكننا رأينا الاكتفاء بما عرضناه منها ، وان كان الاخبارى نفسه يختم تلك الفقرة قائلا : « •• ولو أردت أن أعدد بعض خصالهم لطال الكلام ، وفى ذلك الكفاية على ما أظن » •
(ص ٨) •

سادسا ـ خاتمة

ولعل الفقرات السابقة تكفى لكى توضح لنا أهمية المادة العلمية التى تحتويها تلك الرسالة ، والتى أتاحت لنا اجراء مقارنات واسعة النطاق بالقياس مع الدراسات السابقة التى احتوتها كتابات المؤرخين والعلماء والرحالة والأوربيين • وهى كذلك تتيح لنا قياس التغير فى بعض جوانب ثقافتنا الشعبية • وهى قبل هذا وبعد هذا أداة أثبتت كفاءتها فى جمع مادة غزيرة عن الثقافة الشعبية لأى مجتمع ، ويمكن اذا وجهنا القدر الواجب من العناية والتدريب للاخبارى الذى سيقوم بها أن يتوفر لنا حشد هائل من المادة عن شتى جوانب حياتنا التى ما زلنا حتى الآن نجهل الكثير عنها للأسف الشديد •

* * *

الدراسة السادسة

دراسة فولكلورية حديثة للأولياء فى مصر

أولا ـ المفاهيم والأسس العامة لتكريم الأولياء

ثانيا ـ تكريم الأولياء فى مصر

ثالثا ـ الملاحظات المنهجية على الكتاب

١ ـ مشكلات دارسى الفولكلور الأجنبى

٢ ـ الاقتصار على دراسة مشاهير الأولياء

٣ ـ التعميم على غير أساس •

٤ ـ مشكلة نقص الدراسة باللغة العربية •

٥ ـ أخطاء الترجمة •

رابعا ـ الملاحظات الموضوعية

١ ـ أهمية وضع دليل لدراسة الأولياء

٢ ـ التحليل السوسيولوجى التاريخى لظهور الأولياء فى مصر •

٣ ـ الجانب الاقتصادى للموالد

٤ ـ ملاحظة ختامية

أولا ـ المفاهيم والأسس العامة لتكريم الأولياء

الدراسة التى نعرض لها فى هـذا الفصل عن الأولياء فى مصر هى جزء من كتاب يعد موسوعة حديثة فى دراسة المعتقدات الشعبية فى بعض البلاد الاسلامية . وأود قبل أن أعرض للفصل الخاص بالأولياء فى مصر فى هذا الكتاب أن أجمل عنه فكرة سريعة .

هذا الكتاب من تأليف العالمين الألمـانيين رودلف كريس وهوبرت كريس ـ هينريش ويحمل عنوانا فضفاضا بعض الشىء ، « المعتقـدات الشعبيـة فى العالم الاسلامى »[1] . وقد صدر الـكتاب فى مجلدين ضخمين ، صدر أولهما عام ١٩٦٠ ويدور حول « الأضرحة وتقـديس الأولياء » . وصدر المجـلد الثانى عام ١٩٦٢ ويدور حول السـحر والتمائم والزار .

وعنوان الكتاب فضفاض من ناحيتين ، أولا من حيث أنه لا يغطى كافة موضوعات المعتقدات الشعبية ، فقد لاحظنا أنه اقتصر على دراسـة موضوعى الأولياء والسحر فقط ، على حين أن المعتقدات الشعبية أوسع

---

(١) Rudolf Kriss und Hubert Kriss-Heinrich, Volksglaube im Bereich des Islam, Band I : Wallfahrtswesen und Heiligenverehrung, 1960. Band II : Amulette, Zauberformeln und Beschworungen, 1962, Wiesbaden, Otto Harrassowitz.

ويقع المجلد الأول فى نحو اربعمائة صفحة ، والمجلد الثانى فى حوالى مائتين وخمسين صفحة ، عدا الصور والأشكال ذات القيمة العلمية الكبيرة

نطاقا من هـذا بكثير[٢] . والناحية الثـانية أنه لا يغطى حتى هـذين الموضوعين : الأولياء والسحر فى كل العالم الاسـلامى ، وانما فى عـدد ضئيل جدا من البلاد الاسلامية . ومن الواضـح أن اعتبارات الناشر

---

(٢) حددنا ـ بالاشتراك مع زملاء لنا ـ موضوعات المعتقدات الشعبية الواجب دراستها فى مصر فى مقدمة الدليل الذى وضع لها (وذلك ضمن بحث الفولكلور الكبير الذى أجراه المركز القومى للبحوث الاجتمـاعية والجنائية عامى ١٩٧ ـ ١٩٧١ . وتلك الموضوعات هى :

١ ـ السحر
٢ ـ الأولياء
٣ ـ الأحلام وتفسيرها
٤ ـ الكائنات فوق الطبيعة
٥ ـ الانطولوجيا الشعبية
٦ ـ المعارف الشعبية المتصلة بالانسان
٧ ـ الطب الشعبى
٨ ـ المعتقدات الدائرة حول الحيوان
٩ ـ المعتقدات والمعارف المتصلة بالنبات
١٠ ـ الزمن فى المعتقد الشعبى
١١ ـ المعتقدات المتصلة بالأحجار والمعادن
١٢ ـ المعتقدات المتصلة بالأماكن
١٣ ـ المعتقدات المتصلة بالألوان
١٤ ـ المعتقدات المتصلة بالأعداد
١٥ ـ الروح فى المعتقد الشعبى
١٦ ـ الطهارة والنجاسة
١٧ ـ أوائل الأشياء وأواخرها
١٨ ـ الاتجاهات
١٩ ـ النظرة الى العالم

أنظر تفصيل عرض تلك الموضوعات فى : الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، اشراف د. محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

والحرص على رواج الكتاب هى التى دفعت الى اختيار هـذا العنوان الفضفاض ٠

وسوف أقصر حديثى عن الجزء المتصل بالأولياء فى مصر فى المجلد الأول من هذا الكتاب ، وسأشير الى محتويات هذا الجزء بسرعة ، ثم أناقش فى الفقرة الثانية من هذا الفصل أهم الملاحظات المنهجيـة على أسلوب معالجة المؤلفين للموضوع ٠ وغنى عن البيان أن هذه الملاحظات لا تنصب على الجزء الخاص بالأوليـاء فى مصر فقط ، ولكنهـا تتصـل بمنهج الكتاب فى مجمله ٠ وأتناول فى الفقرة الثالثة من هذا الفصل أهم الملاحظات الموضـوعية على دراسة الأولياء نفسها ، وهى تصلح فى نفس الوقت لكى تكون بمثابة اطار عام أو خطة أولية لدراسة هـذا الموضوع الهام من موضوعات المعتقد الشعبى المصرى ٠

ويتكون المجلد من هذا الكتاب من مقدمة مسهبة تتناول بالمعالجة أسس المعتقدات الشعبية الاسلامية وتلقى الضوء على أهم المفاهيـم المحورية فيها ٠ ثم تتوالى بعد ذلك فصول الكتاب التى تغطى موضوع الأولياء فى بعض البلاد الاسلامية ٠ فيدرس الفصـل الأول الأولياء فى مصر ، ويعالج الفصل الثانى تكريم الأولياء فى كل من : الأردن ، وسوريا، ولبنان ٠ وهذا تقسيم منطقى أولا لأنه يضم فلسطين الى الأردن باعتبارهما وحدة بشرية واحدة ، ثم يضم اليهما كلا من سوريا ولبنان باعتبار هذا الرباعى يكون وحدة ثقافية واحدة هى بلاد الشام ٠ ذلك أن كثيرا مما يرد الحديث عنه فى ثنايا هذا الفصل مشترك بين تلك البلاد الأربعة التى يمكن القول دون مبالغة بأنها تكون وحدة ثقافية أو منطقة ثقافية متميزة داخل العالم العربى الكبير ٠

ويغطى الفصل الثالث والأخير من فصول الكتاب تكريم الأولياء فى بلدين اسلاميين غير عربيين هما : تركيا ويوغوسلافيا • ومن هذا يتضح أن الكتاب لم يتعرض سوى لعدد ضئيل من البلاد الاسلامية ، ولا يمكن لباحث مهما كانت قدراته ومهما كانت امكانياته أن يغطى موضوعا على مستوى العالم الاسلامى الكبير ، خاصة اذا كان هذا الموضوع مما يتصل بالمعتقدات الشعبية ، التى تعتبر من أصعب وأعقد جوانب التراث الشعبى فى الدراسة • لأن الاقتراب منها وفهمها حق فهمها يتطلب من الباحث الأجنبى اقامة طويلة والوصول الى تعمق الثقافة التى يدرسها • وهو الأمر الذى لم يتيسر لمؤلفى هذا الكتاب كما سنفصل القول فيما بعد •

ويضم هذا المجلد علاوة على هذه المقدمة والفصول الثلاثة المشار اليها قائمة ممتازة لأهم المؤلفات التى صدرت عن المعتقدات الشعبية فى تلك البلاد الاسلامية التى يتناولها • وفى رأى أن تلك القائمة البيليوجرافية تعد من أهم أجزاء الكتاب وأجدرها بالتنويه لأنها توفر على أى باحث فى المعتقدات الشعبية لتلك البلاد جهدا كبيرا ، وتدفعه خطوات حاسمة على طريق النجاح • ويكفى أن أذكر أن تلك القائمة تضم نحو ثلاثمائة كتاب عن المعتقدات الشعبية فى هذه البلاد الاسلامية •

كما أن من أبرز اسهامات المؤلفين أنهما ضمنا كتابهما عددا ضخما من الصور الممتازة التى تتوفر فيها أغلب المواصفات العلمية للصورة الأنثروبولوجية • ومن الواضح أن عددا كبيرا من الصور الدقيقة قد تكلف جهدا يفوق الخيال • ناهيك عن التكاليف الباهظة التى تطلبها انجاز تلك الصور وطبعها بهذا الشكل الفاخر الذى خرجت به • ويمكننى القول دون أى مبالغة أن مجموعة الصور التى تضمنها هذا الكتاب بجزئية تعد أفضل وأدق ما عمل من صور لهذه الموضوعات سواء من جانب علماء أجانب أو محليين • وهى نموذج يحتذى فى التصوير

الأنثروبولوجى الدقيق . وكل من تمرس بالبحث الأنثروبولوجى الميدانى يدرك الجهد البالغ الذى أنفقه الباحثين لعمل هذه الصور . ويكفى أن أقول ان عدد الصور المنشورة فى المجلد الأول وحده تبلغ ١٨٢ صورة[٣] .

ومن أهم مميزات هذا الكتاب علاوة على ما سبق أنه قد اتخذ مدخلا حيا « لوصف عدد محدود من المزارات وأضرحة الأولياء » ، وذلك من خلال الوصف الدقيق لخبرات الباحثين مؤلفى الكتاب ورؤيتهما للمزارات التى يتحدثون عنها ، علاوة على تغطية كل ما كتب عنها فى التراث الأوربى كله ، بلغاته الرئيسية : الألمانية ، والانجليزية ، والفرنسية، والايطالية . ومن الواضح أن المؤلفين قد بذلا جهدا بدنيا ونفسيا وعلميا هائلا فى التردد على عدد كبير من تلك الأضرحة والمزارات . وقد غطيا خبراتهما وانطباعاتهما وملاحظاتهما على تلك الزيارات بأسلوب شيق أخاذ يتميز بالحيوية والصدق . ونذكر لهما بالتقدير أنهما نجحا فى المشاركة فى عدد كبير من حفلات الذكر ، وحفلات الزار ... الخ . كما أن الشىء اللافت للنظر حقا والذى يضيف على عمل المؤلفين قيمة خاصة أنهما نجحا فى زيارة عدد كبير من المزارات والأضرحة القديمة وان لم يعد بعضها معروفا لأبناء البلد نفسه . فقد استدلا من المراجع على أهمية مثل هذه المزارات والأضرحة ، وبذلا جهدا جهيدا للبحث عنها وزيارتها والكتابة لنا عن مكانتها الحالية فى نفس الشعب . وقد استطاعا التقاط عدد كبير من الصور النادرة تحت تلك الظروف الصعبة ، التى لم تخلو كثيرا من الحرج ، بل وأحيانا من الخطورة .

---

(٣) غنى عن البيان ان عدد ضخما من الصور لابد وأن أختير من بين عدد أضخم بكثير من الصور ، لاننا نعرف انه ليست كل الصور التى تلتقط تنجح ، ثم انها ليست كلها صالحة للنشر لسبب أو لآخر . وهذا مما يدلنا على ضخامة الجهد الذى بذل فى عملية التصوير

وسنحاول أن نلقى فيما يلى نظرة سريعة على أهم محتويات الكتاب لتتوفر لنا خلفية مشتركة تصلح أساسا للمناقشة فى الفقرات التالية من هذا الفصل . ونعرض فيما يلى لأبرز المفاهيم والأسس العامة لتكريم الأولياء كما تناولها المؤلفان فى مقدمة الكتاب . فقد خصصا تلك المقدمة لعرض أسس المعتقدات الشعبية . ويبدأ الحديث باستعراض طبيعة علاقة التفاعل الدائمة والخصبة بين المعتقدات الشعبية والدين الرسمى بصفة عامة ، وعند المسلمين بصفة خاصة . وتلك قضية على جانب كبير من الأهمية لأن الدين الاسلامى ــ شأنه شأن أى دين ــ قد تعرض لكثير من المعتقدات الشعبية الجارية واتخذ منها موقفا ، يتراوح بين الرفض القاطع ، وبين المهادنة . ومع ذلك فان المعتقدات الشعبية باقية ومستمرة ومتطورة ، رغم رفض الدين الرسمى القاطع لجانب منها .

وانتقل المؤلفان بعد ذلك الى استعراض وتقييم أبرز الدراسات التى صدرت عن المعتقدات الشعبية فى بعض البلاد الاسلامية . على اعتبار أن تلك الدراسات هى الخلفية التى انطلق منها المؤلفان فى رحلاتهما الميدانية الى البلاد الاسلامية التى زارها ، وكذلك على أساس أن تلك الدراسات هى مصدر المادة المكتبية التى حشدها المؤلفان فى كتابهما . ومن تلك الدراسات ما ارتبط منها ببلاد معينة بسبب تفوقها الفائق فى عرض مادتها ، بحيث دخلت التاريخ العلمى كسجل حافل لثقافة تلك الشعوب . فذكر بالنسبة لمصر ــ مثلا ــ دراسات وليم لين ، وفنكلر ، وباول كاله P. Kahle ــ ذكر بالنسبة لفلسطين دراسات توفيق كنعان الكثيرة الغنية بالمادة الميدانية . وذكر بالنسبة للمغرب دراسة ادموند دوتيه E. Doutte ... الخ .وقد وزن الاسهام العام الذى قدمه كل مؤلف من تلك المؤلفات فى وصف ثقافة الشعب الذى يتعرض له ، ثم وزن بالتفصيل اسهام ذلك المؤلف فى القاء الضوء على المعتقدات الشعبية بالذات .

وبعد أن استعرض المؤلفان تلك الكتب أوضحا أن المصــدر الثانى الرئيسى للدراسة هو الدراسة الميدانية التى قاما بها الى بعض البــلاد الاسلامية على امتداد الفترة من ١٩٥٥ حتى ١٩٥٩ • وهى عبــارة عن زيارات متقطعة تتفاوت مدة كل منهــا من حيث المدة • وسنناقش هــذه القضية تفصيلا فيما بعد •

وقد أورد المؤلفان ملاحظة موضوعية فى سياق تحديدهما لمجــال الكتاب مؤداها أنهما سوف يغفلان الاشارة كلية الى منطقة شمال افريقيا • ووجهة نظرهما فى ذلك أن تلك البلاد قد صدرت عنها مجموعة كبيرة من الدراسات الفرنسية والانجليــزية التى غطت أغلب جــوانب المعتقدات الشعبية فى تلك البلاد ، بحيث أنهما قدرا أنهما لن يستطيعا اضافة مادة جديدة الى المواد المنشورة فعلا عن تلك المجتمعات[٤] •

أما عن النظرة العامة للكتاب والاطار الذى تتم فيه الدراسة فقد أوضح المؤلفان أن دراستهما تأخذ بمناهج ومفاهيم عــلم الفولكلور • وأنهما يهدفان من ورائها الى تقديم اسهام فى موضوعات هذا العلم ، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب • (صفحة ٢ من الكتاب) •

بعد تلك الاشارات والملاحظات العــامة ينتقل المؤلفــان فى القسم الثانى من المقدمة الى مناقشة المفاهيم الأساسية وراء المعتقدات الشعبية• فيتناولان رحلة الحج السنوية الى مكة المكرمة ، وأثرها على فكرةزيارة المزارات والأضرحة عند المسلمين • هذا رغم الموقف الاسلامى الصريح من رفض زيارات الأضرحة والتبرك بها والتوســل الى أصــحابها • (صفحة ٣ من الكتاب) • أما المفهوم الرئيسى الثانى فهو « البركة » التى تعــد مفهــوما محوريا فى المعتقد الاسلامى الرسمى والشعبى على

---

(٤) انظر كريس ، المعتقدات الشعبية فى العالم الاســلامى ، المجلد الأول ، صفحة ٢ .

السواء . ولكنهما يهتمان بالقاء الضـــوء الأكبر على دلالاتها الشعبية . وقدما تعريفا للبركة بأنها تلك القوة التى ترتبط ببعض الأشـــياء وبعض الأشخاص . فاذا انتقلت تلك القوة الى شىء معين فانها تكتسب فى تلك الحالة قوة ملموسة ظاهرة ، ويصـــبح من الممكن استخدامها استخداما ايجابيا فى العلاج وغيره من الأغراض النافعة (كالحفظ ، والاكثـــار ، وما الى ذلك) . أما اذا انتقلت تلك القوة الى الأشخاص ، فان صاحبها يصبح فى هذه الحالة وليا ، أو يصل الى مرتبة الأولياء(٥) .

ولم يكتف المؤلفان بشرح الدلالة العامة لهذا المفهوم ، ولكنهمـــا حاولا القاء بعض الضوء على الاستخدام الحديث لهذا المفهوم فى الحياة اليومية . كما عالجا أصل تلك الكلمة ، ومعناها الاشتقاقى ، وقابلية هذه القوة للتوريث ، وامكانية نقلها من شخص الى آخر وهكذا .

وقد أشارت الأستاذة أنا مارى شيمل Schimmel فى عرضها الممتاز لهذا الكتاب الى أن المؤلفان لم يكونا بحاجة الى الاســـهاب فى مناقشة مفهوم « البركة » واستعراضه بهذا الشكل . اذ يجب التنبيه الى أن « البركة » ليست مفهوما قاصرا على الثقافة الاسلامية وحدها ، ولكنه ــ بمعناه ــ وار فى أغلب الثقافات الانسانية المعروفة ، البـــدائى منها والمتطور ، والقديم منها والمعاصر . وأنها أقرب ماتكون فى طبيعتها الى مفهوم المانا Mana (٦) .

---

(٥) ترجمت كلمات المؤلفين بتصرف بسيط ليلائم الاستخدام العربى ، ولكن المعنى الوارد فى المتن هو المعنى الوارد عندهما بكل دقة ، أنظر كريس ، المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى ، مرجع ســـابق ، الجزء الأول ، صفحة ٤ .

(٦) قدمت الأستاذة أنا مارى شيمل عرضا مختصرا ــ ولكنه ممتاز ــ لهذا الكتاب الذى نتناوله بالعرض فى هذا الفصل ، وذلك فى مجلة «الاسلام» التى تصدر عن جمعية المستشرقين الألمانية ، أنظر :

Annemarie Schimmel, Besprechung des Buches Kriss Volksglaube im Bereich des Islam, in : Der Islam, Vol. 38, 1963, pp. 177-180.

وينتقل المؤلفان بعد ذلك إلى مناقشة مشكلة تكريم الأولياء فى رأى الدين الاسلامى ، حيث يرفض الدين الصحيح تلك الظاهرة رفضا صريحا وقاطعا ولا لبس فيه • وقد دعا ذلك الى أن تتحول الظاهرة الى مستوى المعتقد الشعبى ، حيث وجدت فيه ملاذا من تحريم الدين الرسمى ، فعاشت على المستوى الشعبى وازدهرت ازدهارا كبيرا • (أنظر الكتاب، صفحة ٦) •

وبعد أن ينتهى المؤلفان من ذلك ينتقلان الى التعريف بطبيعة الولى فى المعتقد الشعبى الاسلامى ، ويستعرضان التعبيرات العربية المختلفة الدالة على الولى ، وأعداد الأولياء وكثرتهم الظاهرة ، وتصنيفات الأولياء (حسب مراتبهم ، أو حسب أنواعهم ، أو حسب الأغراض التى يلجأ الناس اليهم فيها — أى حسب وظائفهم — الى آخر ذلك من أسس التصنيف) • ويشيران الى ظاهرة الأولياء من النساء ، ورؤساء الأولياء أو الأولياء الكبار ذوى المراتب الخاصة ، ومعجزات (كرامات) الأولياء وذلك من خلال استعراض أحد الأولياء من المتصوفة •

ومن الطبيعى أن يتصدى كل من يدرس الأولياء للكلام عن أضرحة الأولياء ، عن مكانتهما فى تكريم الولى والدور الذى تلعبه فى تعبير مريديه وأتباعه عن حبهم له وتقديرهم اياه ، وعن مظهرها الخارجى ، وزينتها ، ومواعيد زياراتها ••• الخ • وكذلك يفعل العالمان كريس فى هذا الفصل التمهيدى من كتابهما الضخم • ويلخص كريس أهمية الأضرحة فى تكريم الأولياء فى النتيجة التالية التى انتهيا اليها ، والتى تقول : « ان تكريم الأولياء الأموات المسلمين قد تحول بشكل ظاهر — وفى كل البلاد الاسلامية — الى تكريم للضريح (أو تكريم فى الضريح) • بحيث أننا لا يمكن أن نتصور مقاما لتكريم ولى مسلم دون قبر يمثل محور هذا المقام والحلقة الأساسية فيه » (صفحة ١٠١ من المجلد الأول من الكتاب) •

وفى ختام عرض المفاهيم والقضايا الأساسية يقوم المؤلفان بتقــديم عرض مفصل لتاريخ أحد الأولياء المشاهير ومعجــزاته (كــراماته) (٧) وذلك كنموذج لتوضيح هذا الكلام العام . وقد اختارا لهـــذا الغرض الكلام عن « سيدنا » عبد القادر الجيلانى أحد مؤسسى الطرق الصوفية الهامة ، وكممثل للأولياء الأموات . ثم اســـتعرضنا بنفس الأســلوب تاريخ(٨) ومعجزات ولى آخر ما زال على قيد الحياة ، هو « ســيدى » سعد الدين كنموذج للأولياء الأحياء . (على صفحة ١٤ من الكتاب) . واختتم المؤلفان هذا العرض بالقاء نظرة عامة على الأضرحة والمزارات التى يتردد عليها الشعب ليكرم فيها أولياءه ، مع محاولة تقــديم تصنيف عام لها . (أنظر صفحة ١٦ من الكتاب) .

---

(٧) كلمة معجزة فى الحقيقة هى ترجمة خاطئة لكلمة « كرامة » من وجهة نظر الدين الرسمى ، ذلك أن المعجزات كما يرى الاسلام الصــحيح هى من عند الله يجريها على أيدى الأنبياء فقط ، لكى تســاعد على اقناع شعوبهم بصدق رسالاتهم وأنهم من عند الله . فحتى الأنبياء لا « يفعلون » المعجزات ، ولكن الله يجريها على أيديهم ، ولكن الاستخدام الشائع لكلمة « كرامه » فى اللغات الأجنبية (الانجليزية Miracle ، والألمانية Wunder هو الذى يجعلنا نصفها بهذا الوصف ، ونحن واعين باختلافهــا مع الدين الاسلامى الرسمى ، شأن كل تكريم الأولياء الذى يصطدم مع العقيــدة الصحيحة

(٨) المقصود بالاستخدام الفولكلورى العلمى الصحيح أن نقول «أسطورة الولى » وليس تاريخ الولى ، وذلك لأن أغلب ما يحكى عن حياة الولى ليس « تاريخا » ، أى ليست أحداثا حقيقية وقعت بالفعل ، ولكنها أحداث تتناقل على يد اتباع الولى وجمهوره لكى تزيد اعتقــادهم فى مكانته وفى « سره الباتع » ، وهى تتعرض شأنها شأن كل المرويات الشعبية الشــفاهية للمبالغات والتعديل والاضافة وغير ذلك ، فهى فى وصفها وبنائها وطبيعتها أقرب الى « الأسطورة » منها الى « التاريخ » . ولكننا استخدمنا هــذه الكلمة كما جاءت فى الكتاب الألمانى الذى نعرض له ، ونحن نعى مخالفتهــا لأصول العلم الفولكلورى الصحيح .

أما الموضوع الرئيسى التالى على ذلك فهو موضوع الأضاحى التى تقوم على الأضرحة ، أو تذبح فى أى مكان آخر ويوزع لحمها عند الضريح ، أو أحيانا تذبح بعيدا وتوزع بعيدا عن الضريح ولكنها «توهب» لصاحب الضريح « سيدى فلان » . فيستعرضان مفهوم الأضحية بصفة عامة فى المجتمعات الاسلامية ، ومنها تلك الأضاحى التى تذبح لدفع الأرواح الشريرة (الجن مثلا) أو لاسترضائها ، أو تلك الأضاحى التى تذبح كنذر يكون الشخص قد قطعه على نفسه اذا خدمه الولى وساعده فى تحقيق رغبة معينة . (٩) وتتضمن مناقشة الأضاحى عرضا لأهميتها ، وطقوس أدائها ، ووجبة الضحية (التى تقام أساسا على لحم الضحية المذبوحة) ... الخ .

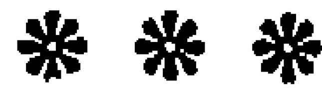
ولا تقتصر الأضاحى التى تقدم للأولياء على الحيوانات أو الطيور المذبوحة ، كما أن النذور لا تقتصر على مثل هذه الأشياء المذبوحة ، ولكنها تتعدى ذلك الى أشياء كثيرة من أنواع عديدة . ومن أهم الأشياء التى تنذر للولى أو يضحى بها لأجله تلك التى تستخدم فى الحفاظ على الضريح وصيانته ، كالمكانس ، والقدور ، والجلود والسجاجيد ، وزيوت الاضاءة ، والمصابيح ، والبخور ، والشموع ... الخ (ص ٣٨ من الكتاب) وكلها مما يستخدم فى الضريح لاضاءته أو تجميله أو صيانته .

والموضوع الرئيسى التالى على القبور (الأضرحة) والنذور ، هو موضوع طقوس أو آدب زيارة الضريح . حيث تحتشد تلك الآداب بعدد من القواعد الدينية (الشعبية) والسحرية وغير ذلك . ومن عناصر

---

(٩) انظر تفاصيل هامة حول هذا الموضوع على صفحة ٣٣ وما بعدها من المجلد الأول ، وبعض المعلومات الواردة فى هذا الجزء تحتاج الى تصحيح ومناقشة ، حيث وردت بها أخطاء راجعة الى نقص خبرة المؤلفين بالواقع الثقافى الشعبى فى البلاد الاسلامية التى يتحدثون عنها .

طقوس الزيارة — على سبيل المثال — الوضوء قبل بدء الطواف حول الضريح ، ثم الطواف نفسه ، والنوم أمام الضريح أو بالقرب منه (حسب الظروف) ، وأداء (حلف) اليمين على قبور الأولياء . والأخير من العناصر الهامة التى تعكس تكريم الأولياء فى عين الشعب ، اذ أن اليمين الذى يؤدى فى مكان آخر [١٠] . ومن عناصر الزيارة الأخرى عملية تقديم النذور لقبر الولى . وبذلك يكتمل عرضنا للفصل التمهيدى الذى قدم به المؤلفان للجزء الأول من كتابهما عن المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى ، والمخصص لمعالجة موضوع « تكريم الأولياء » .



---

(١٠) والمعتقد الشعبى وراء ذلك أن الولى نفسه يكون فى هذه الحالة شاهدا على صحة اليمين ، بحيث أنه اذا كان الذى يحلف كاذبا فى يمينه فان الولى هو الذى سينتقم منه بأن يشل يده أو لسانه أو يصيبه بأى ضرر آخر تعبيرا عن معاقبته له على كذبه فى اليمين . وفى بعض الأحيان يؤدى الشخص اليمين فى مكان آخر ، ولكن المستحلف يصر على أن يأخذه لأداء اليمين على قبر أحد الأولياء واشهاده على ذلك .

ثانيا ـ تكريم الأولياء فى مصر

وقد خصص المؤلفان الفصل الأول من كتابهما الضخم لمعالجة تكريم الأولياء فى مصر (ص ص ٥٣ ـ ١٣٦) ، وهو ما سنعرض له عرضا مختصرا فيما يلى • وقد أوضح المؤلفان فى بداية هذا الفصل أنهما لا ينويان تقديم دراسة مونوجرافية لكافة الأولياء والمزارات المعروفة فى مصر ، ولكنهما سوف يختاران بعض نماذج ممثلة لتلك المزارات لكى يتناولا فى سياق حديثهما عنها أهم الممارسات والمعتقدات الشعبية المتعلقة بتكريم الأولياء فى مصر • كما أنهما سوف يعملان ـ بقدر الامكان ـ على ابراز الاختلاف والفروق الاقليمية بين منطقة أخرى فيما يختص بتكريم الأولياء •

وذلك تحديد متواضع وضرورى فى نفس الوقت • ذلك أننا نعتقد أنه لا يمكن لباحث مهما أوتى من علم أو جلد أو وقت أو مال أن يضمن دفتى كتاب واحد دراسة مونوجرافية لكل الأولياء المعروفين فى مصر ليسوا « أهل البيت » ، ولا كبار الصحابة ، أو السلاطين المتصوفين • حقيقة أولئك هم جزء هام من الأولياء • ولكن كل قرية مصرية وكل حارة فى مصر تعرف وليا أو عددا من الأولياء « المغمورين » ، الذى يختلفون فى مدى انتشار شهرتهم • فالبعض منهم معروف على مستوى المنطقة أو الاقليم (مستوى محافظة أو عدة محافظات متجاورة مثلا) ، وبعضهم معروف على مستوى عدة قرى ، وكثرة منهم لا يتجاوز انتشار الاعتقاد فيهم حدود القرية التى يوجد مقامهم فيها • ولذلك أصاب المؤلفان حين التزما جانب الحرص والتواضع ، لأنك لن تستطيع أن تحيط بكل الأولياء فى مصر ، الا اذا أقمت شهورا فى كل قرية من قرى مصر • وتلك ليست مهمة باحث فرد (مهما أوتى من امكانيات) ولكنها مهمة مركز بحث على المستوى القومى أو هيئة ذات طبيعة عامة (كجمعية نشطة للتراث الشعبى تعمل بهمة وامكانيات على المستوى القومى كله) •

أما عن مشكلة اختيار « نماذج ممثلة » فتلك قضية خطيرة معقدة لا يمكن أن يحسمها المؤلفان بعبارة سريعة متعجلة فى صدر الفصل لكى يبررا لنا اختيارهما بعض الأولياء دون سواهم • ان مشكلة النموذج فى العلوم الانسانية مشكلة صعبة وخلافية وما زالت محورا لعديد من الآراء والاجتهادات(١١) • وهى لم تحسم حتى الآن لا على مستوى العلوم الانسانية ، ولا على المستوى السوسيولوجى ولا الانثروبولوجى ، ومن باب أولى لا يمكن أن تكون قد حسمت على مستوى علم الفولكلور • ولذلك يجب أن نحكم على اختيار المؤلفين بأنه ليس لنماذج (وليست العبرة بالنية الطيبة) ، ولكنه اختيار ذاتى خضع لمعايير شخصية ورؤية خاصة لا نعرفها • ومع ذلك فاننا ونحن فى مرحلة البحث الأولية لتراث بلادنا لا نملك سوى أن نرحب بكل جهد مخلص لدراسة هذا العنصر الثقافى الشعبى أو ذاك ، دون أن نسمح لصاحبه ـــ مع ذلك ـــ بأن يخرج من هذا البحث المحدود بتعميمات تتجاوز الحدود العلمية المفروضة على مادة بحثه •

وأخيرا فاننا نرحب كل الترحيب بادراك المؤلفين للبعد الجغرافى فى معالجة موضوعهما ، وذلك من خلال اشارتهما الواضحة الى محاولة الكشف عن الفروق والاختلافات الاقليمية فى ممارسات تكريم الأولياء • وان كنا نسجل بنفس القدر من الوضوح أن المؤلفان لم يكشفا لنا (مثلا

(١١) انظر حول هذا الموضوع : محمد الجوهرى ، فكرة النمط فى العلوم الاجتماعية ، فصل فى كتاب من تاليفه (بالاشتراك) بعنوان : طرق البحث الاجتماعى ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ ، ص ص ٣٣ ـــ ٤٩ •

وقد ناقش المقال فى احدى فقراته موضوع أنماط التصنيف Classification Types بوصفها احد تطبيقات فكرة النمط التى تفهم الانماط على انها فئات ، أو انواع Classes كما أشار الى أبرز المشكلات المرتبطة بهذا النوع من تطبيقات فكرة النمط ، انظر على وجه الخصوص صفحتى ٣٥ ـــ ٣٦ •

بنفس الوضوح الذى كشف عنه فينكلر) تلك الفروق الاقليمية • اذ من الطبيعى أن تبين مثل هذه الفروق يحتاج الى اقامة أطول فى مجتمعات البحث ، واحاطة أشمل بمفردات البحث نفسه أى الأولياء الذين كتبوا عنهم •

بعد تلك الملاحظات العامة على أسلوب المؤلفين فى الكتابة عن تكريم الأولياء فى مصر ، نحاول فيما يلى أن نتأمل مزيدا من التفاصيل التى أورداها فى الفصل الخاص بمصر • شملت مجموعة الأولياء الذين عالجوهم بعض « أهل البيت » ، وبعض كبار الأبطال الاسلاميين الذين يحتلون مكانة خاصة فى التاريخ الاسلامى ، وطائفة أخرى من الأولياء المشاهير أساسا وقلة من المزارات غير الشهيرة • ويمكن أن تزداد هذه الصورة اتضاحا اذا استعرضنا جانبا من أسماء الأولياء الذين شملتهم الدراسة فى هذا الفصل :

- الحسين (القاهرة)(١٢)
- السيدة زينب (القاهرة)
- السيدة نفيسة (القاهرة)
- الامام الليثى (القاهرة)
- الامام الشافعى (القاهرة)

---

(١٢) الاشارة الى أن مقام الولى المذكور فى القاهرة واضحة القصد ، لان الولى الواحد قد يكون له أكثر من مقام (أو مزار) فى مصر ، فكثير من القرى أو المدن المصرية الأخرى بها مزارات لمثل هؤلاء الأولياء الكبار (الذين يسمون « المؤشرين » أحيانا) . حيث يظهر أحدهم لمواطن فى المنام ويطلب منه أن يقيم له مزارا فى القرية . وهكذا نجد مثلا للحسين أو للامام الشافعى مقاما فى أسوان ، وفى قرى عديدة . هذا بالطبع بخلاف تلك المقامات الموجودة فى بلاد عربية واسلامية كثيرة خارج مصر •

ـ عمرو بن العاص (القاهرة)

ـ المغــاورى (القاهرة)

ـ الجيــوشى (القاهرة)

ـ أحمد البدوى (طنطا)

ـ اسماعيل امبابى (القاهرة)

ـ الــرفاعى (القاهرة)

ـ الطشـــطوشى (القاهرة)

ـ السلطان أبو العلا (القاهرة)

ـ المتــولى (القاهرة)

ـ سيدى أبو السعود (القاهرة)

ـ الشيخ ابراهيم المطراوى (القاهرة)

ـ برسوم العريان (القاهرة)

ـ مار جرجس (والخضر) ... (القاهرة)

ـ خليل الرباط ، عبد الحافظ ... (أسيوط)

ـ الشيخ هريدى (الريانية)

ـ سيدى أبو الحجاج (الأقصر)

ـ سيدى عبد الرحيم القناوى (قنا)

ـ أبو ســيفين (صوص)

ـ الشيخ عثمان (أسوان)

ـ سيدى بخيت وعبد الراضى (الكيمان ـ الصعيد)

ـ الشيخ الطيب (القرنة ـ الأقصر)

ـ الأربعين شيخ والسبعة والسبعين شيخ (أسوان)

ـ أبو زينه (أبو رنيمه) (سيناء) وعدد آخر من أولياء سيناء

ـ وعلاوة على هؤلاء الأولياء المصريين غطى هذا الفصل عددا من الأولياء السودانيين (كالمهدى ، وابراهيم الكبشى ، والشيخ عبد الوهاب ، والشيخ برغوث ببور سودان)(١٣) .

وقد التزم المؤلفان فى معالجة كل ولى من هؤلاء خطة واحدة تقريبا تتمثل فى تقديم تعريف عام موجز بالولى ، وتاريخ الشخصية التى يتعرض لها (فى ضوء الحقائق التاريخية الثابتة) ، ثم عرضا لأسطورته ، وهى صورة هذا التاريخ فى المعتقد الشعبى . والموضوع الرئيسى عن كل واحد من هؤلاء الأولياء هو دائما وصف تفصيلى للضريح أو المزار الخاص بكل بذلك الولى ، وهو المسجد الخاص به والضريح الملحق بهذا المسجد . ويفيض المؤلفان فى الكلام عن الاحتفال بمولد ذلك الولى ، وذلك من واقع معايشتهما الشخصية لذلك المولد ، خاصة وقد أتاحت لهما الظروف حضور عدد من موالد كبار الأولياء . وتبريرهما لذلك منطقى ومقبول على اعتبار أن المولد يمثل بؤرة الاحتفال بالولى والمحور الأساسى الذى تدور حوله كل مظاهر التكريم أو معظمها .

---

(١٣) لم يقدم المؤلفان توضيحا محددا لسبب تضمينها للأولياء السودانيين الفصل الخاص بمصر ، سوى أن ذلك امتداد طبيعى للبيئة المصرى . (ص ١٢٩ وما بعدها من الكتاب) . وذلك تبزير نرحب به ونقر المؤلفين عليه ، ونعتبره تأكيدا للوحدة الثقافية لأبناء وادى النيل .

كما تطرق المؤلفان علاوة على هذا الى الكلام عن الأشجار المقدسة، فيستعرضان تاريخ الشجرة محور الحديث ، وأسطورة الولى الذى يرتبط أحيانا بتلك الشجرة ، ومناسبات زيارة تلك الشجرة ٠

ولم يغفل العالمان كريس فى الاشارة الى موالد القديسين المسيحيين ومظاهر التكريم الشعبى لهم ٠ وقد برر المؤلفان معالجتهما للقديسين المسيحيين فى كتاب عن المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى تبريرا مقبولا ، قالا فيه : « ان الاعتبار الأول فى ذلك أن الاحتفال بتكريم أولئك القديسين يتم تماما بنفس الطريقة التى تتم بها الاحتفالات بالأولياء المسلمين ٠ والاعتبار الثانى أن رواد تلك الموالد من المسلمين بنفس كثرة عدد الرواد الأقباط ، ان لم تكن نسبة المسلمين تفوق نسبة الأقباط »(١٤) ٠

أما الموضوع الثالث والأخير المتميز فى هذا الفصل فهو تكريم الثعابين ، أو الاعتقاد بقواها وقدراتها الخاصة ، بحيث أن الشعب قد بنى لبعضها أضرحة ومزارات يترددون عليها للتبرك أو العلاج بنفس الطريقة التى يترددون بها على أضرحة الأولياء ، بل يقدمون لها النذور ، ولها خدام للمزار ٠٠٠ الخ وقد تناول المؤلفان هذه الظاهرة بالتفصيل، وعرضا لبعض النماذج الحية حتى الآن فى المعتقد وفى الممارسة الشعبية على السواء (أنظر صفحة ٨٨ وما بعدها من المجلد الأول من الكتاب) ٠

تلك لمحة سريعة عن محتويات هذا الفصل الخاص بتكريم الأولياء فى مصر (وفى السودان أيضا ــ كما أشرنا) ٠ وأرى من المجدى أن

---

(١٤) أنظر كريس ، المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى ، المجلد الأول ، صفحة ٨٥ .

نقصر مناقشتنا التالية للجوانب المنهجية والموضوعية على هذا الفصل • ويرجع هذا التحديد الى اعتبارات متنوعة ، فقد صرح المؤلفان بوضوح بأن هذا الجزء عن مصر يضم أهم وأغزر مادة مكتبية أو ميـدانية عـلى السواء • فاقتصارنا على هذا الجزء ليس فيه ظلم للمؤلفين ولا تقليل من شأن المجهود المضنى الذى بذلاه • (ليس المـادة المكتوبة فقط ، بل ان العدد الأكبر من الصور والأشكال مأخوذ من مصر ويصور موضـوعات مصرية) • ثم الاعتبار الثانى أن هذا الجزء هو الذى تتوفر لدينا الخلفية اللازمة لمناقشته والحكم عليه باطمئنان • وغنى عن البيان أن كل مناقشاتنا وتحليلاتنا هذه لا تستهدف مجرد عرض الكتاب بقصد ما تهدف الى اثارة رغبة الباحثين المصريين وتشجيعهم على دراسة ظواهر المعتقدات الشعبية المصرية • ومن هنا فالمتوقع أن تخدم هذه المناقشة تخطيط واجراء المزيد من البحوث حول هذه الموضوعات ، خاصة فى النواحى والاتجاهات التى أغفلها المؤلفان أو قصرا فى معالجتها واعطائها حقها الواجب من المعـالجة العلمية ، أو أساءوا فهم بعض معالمها •

والملاحظة الجديرة بالتسجيل قبل الدخول فى عرض ملاحظاتى على الكتاب ومادته أن هذا الكتاب بمجلديه هو أشمل وأضخم مصدر منشور باللغات الأجنبية عن المعتقدات الشعبية الاسلامية • فملاحظاتنا لا يمكن أن تهدف الى التقليل من شأن صاحبيه أو التقليـل من قيمـة الجهـد والاخلاص الذى بذلاه لاخراج هذا العمل الكبير بهذه الصورة العلمية المشرقة • ولكن لا شك أن دراسة المعتقدات الشعبية ليست بالدراسـة الهينة على باحث أجنبى عن المجتمع ، فهى تلمس موضوعات متأصلة بعمق فى صدر الناس العاديين ، ليست مبسوطة فى الكتب ، ولا تجـد سبيلها دائما الى التعبير الظاهرى المباشر ، ولكنها كامنة فى عقولهم وقلوبهم ، ولا بد لاستخراجها من معايشة طويلة والمـام كفؤ بمختلف عنـاصر

التراث الشعبى الموجود فى هذا المجتمع ، بل وبتاريخه وبنائه ومشكلاته ... الخ . فوجود هذه الملاحظات ضرورى وبديهى فى أى عمل من هذا النـوع .

وسأقسم هذه الملاحظات كما قلت الى قسمين رئيسيين أضمن أولهما الملاحظات المنهجية على الكتاب ، وأضمن الثانى الملاحظات الموضوعية .

***

ثالثا ــ الملاحظات المنهجية على الكتاب

٢ ــ مشكلات دارس الفولكلور الأجنبى :

فى أى دراسة فولكلورية لبلد ذى ثقافة عريقة ــ مثل مصر ــ لا يستطيع الباحث أن يحقق غايته من الاقتراب من الناس الا من خلال التفهم ، والصبر ، والاقامة الطويلة . ومن الواضح أن تلك الشروط تصبح أكثر الحاحا وأخطر وزنا فى حالة اجراء مثل هذه الدراسة بواسطة باحث أجنبى ، ورغم أهمية تلك الشروط فاننا نسجل مع ذلك بأسف شديدا أن كثيرا من الباحثين الأجانب يحصلون على خبراتهم ويسجلون مادتهم خلال الرحلات السريعة المتعجلة والمشاركة فى المناسبات الشعبية والحوار مع الناس فى أقصر مدة ممكنة (فيما عدا بعض الحالات النادرة التى لا تقلل مع ذلك من صحة هذا الحكم العام) . أما من حيث أفراد الشعب أنفسهم فالملاحظ أنهم كثيرا ما يتخذون من الباحث الأجنبى موقفا عنيدا متصلبا ، يتسم بالحذر أو اللامبالاة ، أو النفور أحيانا . وهكذا توجد مثل هذه البحوث من شقى الرحى : تعجل الباحثين الأجانب وتسرعهم ، وتحفظ أبناء الشعب وانغلاقهم ، خاصة عندما يتصل الأمر بالمعتقدات الشعبية(١٥) .

---

(١٥) أريد ان الاحظ بهذه المناسبة ان المؤلفين كريس قد قاما ببعض الرحلات السريعة القصيرة الى بعض انحاء مصر والبلاد الاسلامية على مدى سنوات قليلة . ففى عام ١٩٥٤ زارا تركيا ، وفى عام ١٩٥٥ زارا مصر ، وفى ١٩٥٦ قاما برحلة الى مصر والسودان ، وفى عام ١٩٥٧ زارا مصر ولبنان وسوريا ، والأردن . وكانت رحلتهم الأخيرة ــ قبل نشر الكتاب ــ الى مصر فى عام ١٩٥٩ . والمشكلة الاساسية هنا ليست فى عدد الرحلات وانما فى قصر المدى الزمنى لكل رحلة من تلك الرحلات المشار اليها ، بحيث لا تسمح لهما فى النهاية بالاقامة الممتدة والمعاملة المكثفة والمعايشة الحميمة مع أفراد المجتمع موضوع الدراسة .

وأكرر ما لاحظناه فى دراسات أخرى على التراث الشعبى المصرى، خاصة ميدان المعتقدات الشعبية ، من أن المؤلفين قد نصحا أحيانا ، ومنعا صراحة أحيانا أخرى ، بعدم دخول مقصورة هذا الولى أو ذاك ، أو بعدم الاقتراب من حفل ذكر معين ، أو دخول بعض المساجد أو عدم دخولها فى أوقات معينة . وفى بعض الأحيان لم يكن يسمح لهما بأكثر من المشاهدة العابرة السريعة ، وذلك حتى لا يلتفت أحد من المتعصبين اليهما ويلاحظ وجودهما . حقيقة أنهما نجحا فى مقابل ذلك فى دخول بعض المساجد ، والاشتراك أحيانا فى بعض حفلات الذكر ، ودخول بعض مقصورات الأولياء ، ولكن المنع السابق قد قلل ولا شك من شمول التجربة ولم يعمل على تعميق الملاحظات ، أو انضاج الأفكار المستخلصة من تلك الملاحظات على النحو المطلوب .

ونحن لم تتعسف تلك الملاحظة أو نفترضها من عندنا ، وانما نحن نقرؤها صراحة فى كثير من مواضع الكتاب . من هذا مثلا ما أشارا اليه عندما حظر عليهما دخول مقصورة أحد الأولياء ، حيث قيل ، بمناسبة الحديث عن مولد سيدنا الحسين ، ـ « ... وعلى أبواب المسجد الرئيسية الأربعة يشتد زحام الخارجين والداخلين . ولما لم يكن من المسموح به لنا فى الأيام العادية زيارة مقصورة الحسين ، لم نحاول فى ذلك اليوم اطلاقا الدخول الى المقصورة » . (صفحة ٥٧ من المجلد الأول) . وفى موضع آخر أشار المؤلفان الى أنهما نصحا بألا يبقيا فى أحد المساجد أثناء تأدية الذكر ، وذلك بسبب كونهما أجنبيان ، ومن ثم نصحهما مرافقوهم المصريون بمغادرة المكان . هذا مع أنهما يلاحظان أن حضور حفل الذكر ليس ممنوعا فى ذاته ، حيث يفسح لهما بعض الناس أحيانا ، ويدعونهما عن طيب خاطر الى الوقوف والمشاهدة . ولكن فى الموقف المشار اليه لم يكن الجو يسمح بمثل هذا الكرم ، فاضطرا الى

مغـادرة المسـجد مسرعين • ولكنهما يشيران بوضـوح الى السبب قائلين : ــ « لأنه من الممكن أن يحدث فجأة أن يتصادف وجـود أحـد المتعصبين ، فتصدر عنه كلمات مثيرة لابعاد المتفرجين • ولا يعرف الا الله ما اذا كانت هذه العدوى يمكن أن تمتد الى غيره من الموجـودين . ويتحول الموقف الى مأزق » • (صفحة ٥٦ من الكتاب) • ومن المؤكد أن مثل هذه الصعوبات يمكن التغلب عليها ــ خاصة وسط شعب طيب ودود كالمصريين ــ من خلال التفهم والصبر وطـول الاقامة لكسب ود الناس وثقتهم •

٢ ــ الاقتصار على دراسة مشاهير الأولياء :

الملاحظ أن العالمان كريس قد سارا على نهج علمـاء الاستشراق القدامى حيث قصرا دراساتهما على كبار الأولياء وأكثرهم شهرة وأعرقهم تاريخا • وهؤلاء هم الفئة الموجودة فى المدن الكبرى أساسا • وكان حريا بعالمين محدثين ألا يقعا فى هذا الخطأ الفادح الذى أصبح نقصا معيبا فى الدراسـة •

وقد أشرنا من قبل الى أن المؤلفين قد حددا فى صدر الفصل الأول من كتابهما أنهما لا ينويان تقديم دراسة مونوجرافية لكل أولياء مصر ، ولكنهما سيقدمان مجموعة منهم فقط تمثـل بعض النماذج الممثلة لكى يلقيا من خلال ذلك الضوء على الممارسات والمعتقدات الشـعبية المتصلة بتكريم الأولياء ، وليوضحا بعض الفروق والاختلافات الاقليمية فى هذا الميدان • ولكننا نعلق على ذلك برأى قاطع وصريح ، وهو أن الأضرحة والمزارات الشهيرة والضخمة ليست هى طبعا النمـاذج الممثلة لتـكريم الأولياء على المستوى الشعبى فى مصر • ففى القرى المصرية وفى الأحياء

المختلفة من المدن المصرية مئات ـ بل آلاف ـ من الأضرحة والمزارات التى يبدى الشعب نحوها كثيرا من مظاهر التكريم ، والتى تؤدى وظيفة محددة فى مجال الاعتقاد والحياة الاجتماعية •

والجدير بالذكر أن آلاف الأولياء الذين أسقطهم المؤلفان من اعتبارهما لا يمثلان نمطا واحدا ، ولكنهم يمثلون عدة أنماط متنوعة ، وهى تمثل تحديا مثمرا وهاما لكل من يتصدى لدراستها • ولكن من المؤكد أن دراسة « عينة » ـ ولو صغيرة ـ من هؤلاء الأولياء يتطلب المعيشة فى ظروف شاقة (أبسطها أنها ظروف غير صحية) فى قلب تلك القرى ، ويتطلب الاقامة مددا طويلة فى البلاد لكى يتسنى الاقتراب الصحيح من الناس وتكوين العلاقة المثمرة معهم التى تجعلهم يكشفون عن طيب خاطر عن مكنوزهم من التراث • ولا شك أن تلك الظروف الصعبة هى التى جعلت قدامى المستشرقين (من جيل الرواد) يحجم من عن الاقدام عن مثل هذه المخاطر • أما اليوم فقد تبدلت الظروف كثيرا ، بحيث لم يعد هناك من مبرر يسوغ للمؤلفين اغفال الاشارة الى هذه الأعداد الهائلة من الأولياء •

ويقينى أن دراسة هذا العدد الضخم من الأولياء بأنماطهم المتنوعة تمثل ثقلا أكبر من وجهة نظر علم الفولكلور الحديث • فالصور المحلية المتميزة تبدو فى مثل هذه الحالات أكثر وضوحا ، كما نلمس عند تلك الأضرحة الممارسات والمعتقدات الأكثر بساطة وبدائية وصدقا • ونحن نعلم أن كثيرا من الممارسات التى تتم عند أضرحة كبار الأولياء ومشاهيرهم قد تعرضت للتبديل والتغيير سواء بشكل تلقائى (نتيجة عوامل متعددة ومتباينة) أو بشكل عمدى (من خلال تدخل الأجهزة الحكومية المختصة ، كالأمن والثقافة ، والاعلام ••• الخ) •

٣ ـ التعميم على غير اساس :

تستند المــادة التى عرضها المؤلفان فى المقدمة وفى الفصــل الأول الذى نناقشه هنا الى الدراسات المونوجرافية السابقة التى صــدرت عن المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى (خاصة فى مصر) • كما تعتمــد المــادة المعروضة علاوة على ذلك على الملاحظات التى قام بها المؤلفان فى الميدان • واللافت للنظر هنا أن المؤلفين قــد اعتبــرا بعض الحقـــائق والتفاصيل الخاصة ببعض البلاد الاسلامية حقائق عامة وسمات شائعة فى كل العالم الاسلامى • وذلك ولا شك خطأ منهجى ليس بالهين ، لأنه قاد المؤلفين الى الوقوع فى مجموعة من التعميمات الخاطئة كليــة أحيانا أو جزئيا أحيانا أخرى • كما أن من شأن هذه التعميمات غير الدقيقــة أن تعطى الانطباع بأن هناك قدرا كبيرا من التشابه بين عنـــاصر التــراث الشعبى فى البلاد الاسلامية ، الأمر الذى ليس له وجود فى الواقع •

ونسوق مثالا على ذلك من واقع الوصف الذى قدماه لبناء الأضرحة وزينتها وشكلها الداخلى ، حيث يقول الكتاب : « الشائع فى الغالب الأعم من الأحوال أن يوجد قبر الولى الرئيسى تحت القبة ، أما قبور أبنائه أو أتباعه ممن جاءوا بعده فتوجد خارج القبة عادة • ولكنا نجــد فى بعض الأحيان أكثر من قبر واحد تحت القبة ، بل اننا قد نجدها جميعا مجتمعة داخل شاهد واحد • وتضم تلك القبور الفرعية أقارب الولى ، أو زوجاته أو أبنــاءه » (أنظر المجلد الأول ، صفحة ٢٤) • وقد استمد المؤلفــان هذه المعلومة من مؤلفات طبيب فلسطينى يتحدث فيها عن التراث الشعبى.

في فلسطين[١٦] • واذا كانت تلك المعلومات تصدق على فلسطين ، الا أنها لا تصدق بهذه الصورة على مصر • فربما نجدها صحيحة بالنسبة لأولاد الشيخ وأقاربه الذكور ، ولكنها خاطئة فيما يتعلق بالزوجات •

---

(١٦) الطبيب الفلسطيني الذى أعنيه هو الدكتور توفيق كنعان ، الذى نشر عدة مؤلفات بالانجليزية والالمانية عن التراث الشعبى الفلسطينى (العربى اساسا) فى الربع الأول من القرن العشرين ، ولا يعرف القارىء العربى عنها اليوم الشيء الكثير للأسف . ومن أهم مؤلفات توفيق كنعان التى أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها نذكر الدراسات التالية :

1. Canaan, Tawfiq, Aberglaube und Volksmedizin im Lande der Bibel, Hamburg, 1914.

الخرافات والطب الشعبى فى أرض الكتاب المقدس ، ١٩١٤ .

2. ——————: Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine, London, 1927.

3. ——————, Dämonenglaube im Lande der Bibel, Leipzig, 1929.

الاعتقاد فى الأرواح الشريرة فى أرض الكتاب المقدس

4. ——————, Haunted Springs and water-demons, 1921.

5. ——————, Tasit er-radjfeh, 1923.

طاسة الرجفة (أو مانعرفه باسم طاسة الخضة)

6. ——————, The Child in Paléstinian Arab Superstition, 1927.

7. ——————, Water and Water-of-life, 1929.

8. ——————, Studies in the topography and folklore of Petra. 1929.

9. ——————, Moder Palestinian beliefs and practices relating to God, 1934.

10. ——————, The curse in palestinian folklore, 1935.

كما أن الكتاب أغفل الاشارة الى أن أقارب الشـيخ هؤلاء لم يدفنوا مع الولى أو بجواره لمجرد كونهم أقاربه ، ولـكن لأن جماهير الشعب تعتبرهم تلاميذ ومريبن مخلصين للشيخ ارتقوا الى مرتبة تجعلهم جديرين بهذا التكريم •

كما يرتبط بالنقطة السابقة ملاحظة أخرى ، حيث نجد أن المؤلفين قد وجها الجانب الأكبر من زياراتهما لمقصورات وأضرحة كبار الأولياء ، وقدموا لنا الوصف التفصيلى لتلك المقصورات باعتبـارها الأضرحة الشعبية سواء من حيث البناء أو من حيث الزينـة والأثاث • ولا أنسى وصفهم للكسوة بأسلوب رومانسى مبالغ فى رومانسيته أحيـانا ، كمـا لو كانت كل الأضرحة الموجودة فى مصر كذلك • ولكننا نعرف أن هناك آلاف الأضرحة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها والتى لا يصـدق عليها ذلك الوصف الرومانسى الجميل لا بالنسبة للبناء ولا بالنسبة للأثاث أو الزينـة •

٤ ـ مشكلة نقص الدراية باللغة العربية :

من الواضح أن أى دراسة فولكلورية بصفة عامة ، ومن باب أولى الدراسة الميدانية ، تتطلب تمكن الباحث من لغة مجتمع الدراسة (طالمـا أنه لا يعتمد على مترجم جيد) ، ومن الواجب فى حالتنا أن يكون العالمان كريس على دراية ممتازة باللغة العربية ، الفصحى والعامية المصرية على السواء • ولو كانا على دراية أفضل لأخرجا لنا دراسات ميدانية وتحليلات لغوية أفضل بكثير مما طلع علينا فى الكتاب •

والنتيجة المؤكدة التى يخرج بها القارىء المدقق لكتاب كريس أن المؤلفين لم يدخلا طوال اقامتهما ورحلاتهما المتكررة الى البلاد الاسلامية فى علاقات كثيفة وعميقة مع أفراد من الشعب • اذ من الواضـح أنهمـا

استغلا رحلاتهما وأسفارهما الطويلة ليقدما لنا وصفا وملاحظات دقيقة للمبانى بأنواعها (البيوت ، والمقابر ، والأضرحة والمساجد ... الخ) ، والشوارع ، والصحارى ... الخ . حقيقة أن تلك معلومات مفيدة ، ولكنها لا يمكن أن تقنع الباحث أو تشبع حاجته الى الرؤية العلمية المتكاملة للظاهرة المدروسة ، خاصة وهى ظاهرة غير متجسدة وغيرمادية، ولكنها كما أشرت مرارا مخبأة فى أفئدة الناس لا يخرجها الا الحوار الجيد والاتصال الانسانى الودود العميق .

ولهذا لا نطالع على صفحات الكتاب الكثيرة حوارا أو تقريرا بلقاء مع أفراد الشعب ، وان حدث فبشكل نادر ومتفرق جدا ومليء بالأخطاء اللغوية التى تؤثر على سلامة التفسير والتحليل . ولن أتعرض فى هذا المقام لمناقشة تلك الأخطاء اللغوية ، لأن ذلك يخرج هذا الكتاب عن طبيعته وعن القصد الذى حددناه له ، وعلى من يريد الإستزادة أن يرجع الى الكتاب الأصلى .

٥ ـ اخطاء الترجمة :

وتتصل قضية الترجمة إتصالا واضحا بالقضية السابقة ولكنها ليست مترادفة معها أو مطابقة لها . ذلك أن الشخص الذى لا يجيد العامية ولا يستطيع اجراء حوار حر تلقائى دافىء مع أحد المواطنين قد يستطيع ـ بل يتحتم عليه ـ أن يترجم نصا أو مصطلحا فى هدوء وهو جالس أمام مكتبه وبين مراجعه وقواميسه . ولو أبحنا له الخطأ أو التقصير فى الأول ، فلا يمكن أن نبيح له التقصير فى الترجمة .

وقد طالعتنا صفحات الكتاب بأخطاء واضحة فى ترجمة بعض المصطلحات والأسماء والتعبيرات (خاصة وأن المؤلفين قد نشرا صورا زنكوغرافية لبعض الأحجبة واللوحات ، وقدما لها ترجمة ألمانية مقابلة) .

وسواء تم هذا الخطأ بشكل مقصـــود أو عفوى ، فمن المؤكد أنه يمكن أن يقود القارىء الأوربى الى مجموعة من المبالغات والتفسيرات الخاطئة. ولكنى أرجع تلك المبالغات والأخطاء الى نقص معرفة المؤلفين باللغـــة العربية ، فصحى وعامية على السواء .

وأشير فيما يلى بسرعة الى مثالين اثنين فقط . عندما ترجم المؤلفان مصطلح « قطب » كتبـــا يشرحانه قائلين ، « القطب يعنى قطب Pole أو محور Achse العالم ، فقد منحه الله القـــدرة عـلى التحـكم فى العالم »[١٧] . وواضح مدى المبالغة والانحراف عن الصواب فى الترجمة، فالقطب ليس بالضرورة قطب العالم . ولو كانت تلك الاضافة بقصـــد التوضيح (وليس المبالغة والخطأ) فالواجب أن يضيف المؤلفان أن ذلك لا يتفق والمعتقد الاسلامى اطلاقا . فالاسلام دين التوحيد الصارم المطلق الذى لا يعرف متحكما فى العالم سوى الله وحده .

كذلك نصادف أخطاء أخرى فى تعريف الأضحية فى الاســـلام ، فيشير المؤلفان الى أهمية الأضحية فى عيد الأضحى باعتبـارها الختـام الاحتفالى للحج ، ويعرفونها بأنها « فرض » على كل مسلم ســواء أدى

---

(١٧) ليس هذا الانحراف فى الترجمة راجعا مثلا الى صعوبة حصول المؤلفين على مصادر بلغتهم الأم تقرب لهما هذا المفهوم ، فلو اجتهدا ودققا بالرجوع الى دائرة المعارف الاسلامية على سبيل المثال لوجدا فيها مدخلا كاملا عن الموضوع . ويقدم المقال تعريفا للمفهوم أقرب الى الاكتمـــال ، ولكنه صواب تماما ، ولا يمكن لمن يقرأه أن يقع فى خطأ كهذا . انظر كريس ، المرجع السابق ، صفحة ٨ من المجلد الاول ، وانظر كذلك
Enzyklopadie des Islam

وهى تصدر باللغتين الانجليزية والالمانية ، ويجرى حاليا أصـــدار طبعة عربية من اعداد اراهيم زكى خورشيد والدكتور عبد الحميد يونس ، عن دار الشعب بالقاهرة .

الحج أم قضى العيد فى بيته • ولا يصح لمستشرق أن يخلط فى تعـريف الفروض الدينية بهذه البساطة •

وأود أن أشير فى نهاية هذه الفقرة الى أن الأستاذة شيمل قد قدمت فى عرضها لكتاب كريس الذى سبقت الاشـــارة اليه جملة من الأخطاء اللغوية والأخطاء فى ترجمة المفاهيم ، وهى تؤدى بنا الى نفس الانطباع، ولذلك لا نرى بنا حاجة الى سردها هنا[١٨] •

وبذلك أصل الى ختام ملاحظاتى المنهجية على الكتاب ، وانتقل الى مناقشة بعض الملاحظات الموضوعية والتى ضمنتها تصورا خاصا لمعالجة موضوع تكريم الأولياء فى المجتمع المصرى •

***

---

(١٨) أنظر عرض الأستاذة Annemarie Schimmel الذى سبقت الاشارة اليه فى مجلة Der Islam المجلد ٣٨ ، ١٩٦٣ ، ص ص ١٧٧ — ١٨٠ •

رابعا ــ الملاحظات الموضوعية

من الأمور التى تصطدم القارىء المدقق لهذا الكتاب أن المؤلفين لم يقدما مادة جديدة كثيرة فى الموضوعات التى عرضا لها . فالمادة الجديدة فعلا (أعنى تلك المستقاة من الدراسة الميدانية) ضئيلة متناثرة على طول الكتاب . والصورة العامة هى تلخيص ما جاء فى التراث الوفير المتاح حول تلك الموضوعات ، تكمله وتسد بعض ثغراته بعض الملاحظات الميدانية أو الصور الممتازة التى ينفرد بها الكتاب عن أى نظير له .

وقد رأينا أن المؤلفين لاحظا فى مقدمة الكتاب أنهما سوف يستبعدان منطقة شمال افريقيا بسبب كثرة الدراسات التى نشرت عنها باللغتين الفرنسية والانجليزية ، مما جعلهما يعتقدان بأنهما لن يستطيعا تقديم جديد عن تلك البلاد . (صفحة ٢ من المجلد الأول) . معنى ذلك مباشرة أنهما قد أعدا العدة لتقديم مادة جديدة عن البلاد التى اختصوها بالدراسة . ولكنهما لم يفعلا للأسف ، ولم يحققا الوعد الذى قطعاه للقارىء .

وفى اعتقادى أن النقاط التالية تمثل بعض الموضوعات التى كان يجدر بالكتاب أن يتصدى لها ، والتى غابت عن فكر مؤلفيه ، أو لم نجد لها صدى على صفحات هذا المؤلف الضخم ، لا فى الجزء الخاص بمصر ولا فى بقية الأجزاء . وسوف أشير اليها على عجل ، على اعتبار أن مناقشتها تفصيلا تتطلب عملا يوازى فى ضخامته وأهميته حجم كتاب كريس ووزنه .

١ ــ اهمية وضع دليل لدراسة الأولياء :

كان جديرا بكتاب كريس أن يضطلع بدور ريادى فى دراسة الأولياء ، وذلك من خلال تقديم دليل أو مرشد لدراسة هذا الموضوع

الهام من موضوعات المعتقد الشعبى فى البلاد الاسلامية • وكنا ننتظر منه اذا لمس العجز عن تحقيق تلك المهمة الرائدة ، أن يشــير على الأقل الى أهميتها وضرورة أن يضطلع بها بعض أبناء المجتمع نفســه • وهدف مثل هذا الدليل أن يكون بمثابة أداة لجمع الممارسات والمعتقــدات المتصلة بالأولياء جمعا علميا منظما •

ذلك أن الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع لا يمكن أن تكتب دون هذا الجمع الشامل المنظم الذى يأخذ بأحدث أساليب وأدوات البحث فى علم الفولكلور ، ويستفيد بتجارب البلاد التى سبقتنا فى هذا المضمار • ولا يمكن أن نخلص الى ملاحظات أو أحكام ذات شأن بمجرد الاقتصار على الملاحظات والزيارات الجزئية والعابرة • ورأيى الخاص أن مهمــة الجمع الشامل المنظم هى واجب أبناء المجتمع أنفسهم ، ولن يستطيع أن يقوم عنهم أحد بهذه المهمة الخطيرة • ولكن المؤكد أن الغير يستطيعون أن يمدوهم بالتوجيه والقدوة والارشاد • وهــــذا ما لم يفعله للأسف العالمان كريس فى هذا الكتاب • ولا ننسى أن كتاب كريس صادر فى عام ١٩٦٠ ، وهو تاريخ ليس بعيد ولم يكن من العسير على مؤلفيه أن يضمناه أحدث مشكلات وموضوعات علم الفولكلور[١٩] •

---

(١٩) من حسن الحظ ان هذه المهمة التى كنا ننتظر تحقيقها من كريس قد تحققت على يد باحثين مصريين ، انتبهوا الى اهمية الجمع الشامل المنظم، وصمموا الأداة العلمية المناسبة لذلك . فقد صدر أخيرا دليل العمــــل الميدانى لدراسة المعتقدات الشعبية المصرية ، الذى اشتركت فى وضعه مع بعض الزملاء والتلاميذ ، والذى يضم بابا كاملا عن الأولياء يضم سؤالا . أنظر ، محمد الجوهرى (مشرف) ، الدراسة العملية للمعتقدات الشعبية ، الجزء الأول من دليل العمل الميدانى لجامعى التراث الشعبى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٢ ــ التحليل السوسيولوجى التاريخى لظهور الأولياء فى مصر :

لم يجتهد كتاب كريس فى تقديم تحليل سوسيولوجى تاريخى لظهور الأولياء فى مصر ، بمعنى الكشف عن بعض الانتظامات أو القواعد والظروف العامة التى تفرز هذه الشخصيات فى المعتقد الشعبى المصرى. اننا نعتقد ــ وقد يكون اعتقادا خاطئا ــ أن ظهور الأولياء على مسرح الحياة الشعبية المصرية قد اتخذ وما زال يتخذ شكل الموجات . حيث نجد أن جانبا كبيرا من الأولياء المعروفين قد ظهروا فى فترة زمنية معينة . أو يمكن القول بعبارة أخرى أن تكريم الأولياء يتخذ مظهرا مكثفا ويلقى اهتماما شعبيا أوسع فى فترات معينة . كما يمكن التعميم أكثر من هذا ــ اذا نظرنا نظرة أشمل الى التاريخ الثقافى لمصر ــ فنقول ان ظهور الأولياء فى مصر يتخذ ايقاعا معينا ، اذا جاز هذا التعبير . معنى ذلك أن ظهور هذا الولى أو ذاك أو ظهور مجموعة من الأولياء يرتبط ببعض الظروف الاجتماعية العامة أو ببعض الشروط المعينة . فما هى تلك الظروف وما هى هذه الشروط ؟ ذلك ما لم يخطر على بال المؤلفين التفكير فيه .

ولكننا اذا تأملنا تاريخ الأولياء فى مصر من وجهة النظر هذه ، فسوف نلاحظ أن أغلب الأولياء قد ظهروا خلال العصر الأيوبى والعصر المملوكى . وتبدأ تلك الحقبة الزمنية بعام ١١٩٦ م وتنتهى فى عام ١٥١٧ (تاريخ الغزو العثمانى لمصر وانتهاء دولة المماليك البرجية) ، أى أنها اتصلت لفترة بلغت حوالى ٣٥٠ سنة .

وسأحاول فيما يلى ايراد بعض النماذج التى تؤيد صحة هذا الرأى ، ولكنى أعتبر تلك الملاحظات بمثابة دعوة الى المشتغلين بدراسة التراث الشعبى المصرى لكى يولوا هذا الموضوع الهام شيئا من اهتمامهم وجهدهم وتأملاتهم .

يمكن أن نصنف الأولياء الذين ينتمون الى تلك الفترة الزمنية الى فئتين كبيرتين . تضم المجموعة الأولى أولياء من أنواع مختلفة ، عاشوا خلال الفترة المشار اليها (من ١١٦٩ حتى ١٥١٧) وأظهروا « كرامات » معينة خلالها . ومن أولياء هذه المجموعة سيدى عبد الرحيم القناوى أشهر أولياء الصعيد الأعلى . حيث تحكى أسطورته أن معجزته الكبرى (وهى ظهور النبى له) قد حدثت فى عام ١١٩٦[٢٠] . وكذلك سيدى أبو الحجاج ، وهو الآخر من مشاهير الأولياء فى الصعيد . حيث تحكى أسطورته أنه قد حقق معجزاته الكبرى فى الفترة من ١٢٢١ حتى ١٢٤٤[٢١] . وأذكر فى ختام هذه الأمثلة سيدى الرفاعى الذى ولد عام ٥٠٠ هـ (الموافق سنة ١١٠٦ ميلادية) وتوفى عام ٥٧٨ هـ (أى ١١٨٣م) . وهناك عديد من الأساطير والحكايات التى تدور حول حياته وتحكى معجزاته . ولكن أبرزها وأطرفها على الاطلاق تلك التى تحكى أن الرسول (ص) قد مد له يده من قبره فى المدينة ليقبلها الرفاعى ، وذلك عام ٥٥٥ هجرية[٢٢] .

أما المجموعة الثانية فتضم طائفة من الأولياء الذين كانوا خلال حياتهم سلاطين أيوبيين أو مملوكيين . ومن أولياء هذه المجموعة الملك الصالح نجم الدين أيوب . ولقد كان الملك الصالح بطلا مجيدا فى ساحة القتال أبدى بسالة فائقة فى التصدى للصليبيين ، وقد طردهم من دمشق والقدس وأسر الملك لويس ، كما يحكى التاريخ وتحكى الأسطورة أيضا . ثم قضى أواخر حياته فى ناسكا متصوفا ، يعيش من صناعة

---

(٢٠) انظر كريس ، مرجع سابق ، المجلد الاول ، ص ص ١٠٦ وما بعدها .

(٢١) المرجع السابق ، المجلد الأول ، ص ص ٩٦ — ٩٧ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ص ٧٢ — ٧٣

السلال . وتوفى عام ١٢٤٩[٢٣] . ومن أولياء هذه المجموعة أيضا المملوك أحمد قلاوون . ويحكى الكتاب أن تكريم ذلك الولى يتميز ببعض السمات الشعبية الظاهرة . وتخصصه الأساسى هو تحقيق رغبات الأمهات اللائى يسعين الى الحمل ، ويزرن ضريحه لهذا الغرض ، فيتحقق لهن المراد . ونجد أن أغلب زواره من النساء اللائى يتمسحن بالمحراب الموجود هناك ويعدينه جيئة وذهابا كى يرزقن بالأطفال . أما الرجال الذين يترددون على الضريح فيمسحون بأيديهم رأس شاهد الضريح لكى يشفوا من الصداع والحمى . واذا أعطى الأطفال حجرا مبللا بعصير الليمون ليلعقونه ، فانهم يشفون من أمراض الكلام أو يتكلمون اذا كانوا تأخروا فى الكلام عن السن المعتاد . ونحن نعرف أن السلطان المملوكى المذكور قد أسس فى حياته بيمارستانا (مستشفى) كبيرا فى عام ١٢٨٣ .

وآخر نماذج هذه المجموعة من الأولياء السلطان أبو العلا ، الذى ينتشر تكريمه بين سكان القاهرة ، خاصة حيث يوجد ضريحه فى بولاق قرب شاطىء النيل . ويتردد الزوار على ضريحه فى غير أوقات مولده بكثافة ملحوظة . وقد توفى السلطان أبو العلا عام ١٤٨٥ . ولكن جمهور أبو العلا الحقيقيين يتركزون فى حى بولاق الذى يوجد فيه ضريحه ، فهو بذلك نموذج واضح للولى المحلى (الذى يقابل فى هذه الحالة الولى المحلى فى قرية من القرى) . وتحكى الأسطورة عن هذا الولى أنه بمثابة حامى النيل ، الذى كان يعمل فى الماضى على منع التماسيح من السير فى النيل شمالا ، ويجبرهم على العودة أدراجهم جنوبا .

ولندع أولئك الأولياء بكراماتهم وحكاياتهم ، ونحاول أن نلقى نظرة على الخلفية الاجتماعية التاريخية التى عاشوا فيها أو اتجه اليهم تكريم

---

(٢٣) انظر المرجع السابق ، مجلد ١ ، ص ٧٩ .

أبناء الشعب المصرى . والملاحظات القليلة التالية ثمرة اجتهاد فى قراءة مصادر التاريخ الاسلامى فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وهى تحتوى على شواهد عظيمة الدلالة كبيرة الأهمية تساعد فى القاء الضوء على مختلف أبعاد الموضوع الذى نحن بصدده . ومما يؤسف له أن مؤلفى كتاب « المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى » لم يفكرا اطلاقا فى الافادة من هذه المادة الغزيرة حول هذا الموضوع والمتضمنة فى مصادر التاريخ الاسلامى الكثيرة حول تلك الفترة والمتاحة أمامهما ومعروفة لأى مشتغل بالاستشراق (٢٤) .

وأرى أن هناك بعض الحقائق المتصلة بهذه الفترة الزمنية ذات الدلالة الاجتماعية الثقافية الخاصة والتى يجدر أن نتنبه اليها ونوجه النظر فيما يلى :

(١) لقد كان هم سلاطين الأيوبيين والمماليك العمل على تدعيم الدولة والحفاظ عليها من الأخطار التى كانت تتهددها فى ذلك الوقت . وكان أبرز أعداء مصر والعالم العربى حينئذ هم ، التتار بقيادة هولاكو ، والصليبيين . وقد أبلى الأيوبيون والمماليك بلاء حسنا فى رد عدوان هاتين الفئتين وتطهير الأرض العربية منهما . كما قام أولئك الحكام بدفع جحافل المغول بقيادة جنكيز خان ثم بقيادة تيمورلنك بعد ذلك . والذى نود أن نلفت النظر اليه هنا أن تلك الحروب المتصلة والشاقة لا بد وأن تكون قد أضرت بالظروف العامة للدولة فى ذلك الوقت ، والظروف الاقتصادية بالذات . ولا بد أن تكون جماهير الشعب العريضة قد ذاقت المرارة والجوع لكى تمول كل تلك الحروب .

---

(٢٤) وقد انتبهت الى هذه النقطة ايضا الأستاذة انا مارى شيمل فى عرضها الممتاز الموجز لهذا الكتاب فى مجلة « الاسلام » ، والذى سبقت الاشارة اليه فى موضع سابق من هذا الفصل .

(ب) حرص سلاطين الأيوبيين والمماليك على تدعيم ورعاية رجال الدين بصفة عامة ، والمتصوفة بالذات ، والتعبير عن تلك الرعاية • فأوقفوا عليهم الأوقاف الضخمة ، ومنحوهم التكايا يعيشون فيها ويحصلون فيها على الغذاء والكساء وكل ألوان الرعاية ، ويؤمنون لهم فرصة الحج الى مكة ••• الخ •

(ج) ومن الطبيعى أنه لم يتم تطوير أو تحسين لمستوى معيشة جماهير الشعب آنذاك ، مع أننا نقرأ ونسمع عن ثراء مصر فى تلك الأيام• ولكنه كان بالقطع من ثراء القلة الحاكمة ، على حين كان شعب مصر من الفلاحين يقاسى مرارة الحرمان والاضطهاد • ولقد قرأنا عن المجاعات القاسية ، والأوبئة الفتاكة (من أشهرها وباء ١٣٤٨ و ١٣٤٩) • ونتيجة مثل هذه الأوبئة الشديدة نقص فى موارد الغذاء ، وكثرة هائلة فى عدد الضحايا • ويقدر المقريزى عدد الوفيات اليومى فى ذلك الطاعون بعشرة الى عشرين ألف حالة وفاة فى القاهرة وحدها[٢٥] •

اننى أضع معالم تلك الصورة أمام بصر كل من يريد أن يزداد تعمقا فى الموضوع ، ويدرك ما أعنيه من أن الظروف الاجتماعية (الاقتصادية والسياسية والعسكرية والصحية ••• الخ) فى المجتمع المصرى فى فترة معينة كانت من السوء بحيث أنها أفرزت مناخا معينا يحبذ وجود الأولياء ويفسح مكانا كبيرا للاعتقاد فى المعجزات والخوارق • فالأولياء هم أبطال تلك الحروب ، وهم أبناء الطبقة العسكرية الحاكمة أو صنيعتها ، وهم المنقذون من الجوع والمرض والظلم •

---

(٢٥) انظر على سبيل المثال المقريزى ، السلوك .. ، المجلد الثانى ، الكتاب الثالث ، طبعة القاهرة ، صفحة ٧٧٢ .

ولكنى أقرر مع ذلك أننى أقدم تلك الملاحظات بكل تحفظ وأضعها تحت الاختبار والفحص أمام من يرغب ، لأنها ليست ثمرة اشتغال طويل بهذا الموضوع ، ولكنها حقائق تجمعت تحت يدى ، ولفتت نظرى وتوقفت عندها طويلا ، وأردت أن أشرك غيرى فى مناقشتها • ولعلها تنجح فى لفت الانتباه الى الاشتغال بهذا الموضوع الخطير من زاوية التحليل الاجتماعى التاريخى •

٣ ـ **الجانب الاقتصادى للموالد :**

من الملاحظ أن أغلبية المستشرقين الذين تناولوا موضوع تكريم الأولياء فى مصر قد تجاهلوا بشكل واضح دراسة الجانب الاقتصادى للموالد ، خاصة الموالد الرئيسية • وربما كان لهم بعض العذر فى ذلك ، فربما كانوا يعتقدون أن التجارة والترفيه وغيره ليست له صلة مباشرة بموضوع تكريم الأولياء الذين يتحدثون عنهم • ولكن الحقيقة أن ذلك النشاط الاقتصادى فى الموالد ليس نشاطا هامشيا على الاطلاق ، فهو يتم فى اطار المولد ، وهو عامل جذب للناس تماما بنفس قوة العامل الدينى فى جذبهم • بل ان الملاحظ أن قوة جذبه لجماهير عريضة من الشعب تزداد يوما بعد يوم بعد ضعف المشاعر الدينية المتعلقة بالأولياء لدى جيل الشباب • ثم أن هناك اعتبار هام وهو أن ذلك النشاط الاقتصادى هو الذى يخلع على المولد طابعه المميز • بل هو الذى يسمح لمهرجان كهذا أن يستمر أسبوعين أو ثلاثة ، وأكثر من ذلك أحيانا •

وانى أكاد أعتقد أن أولئك المؤلفين الأوربيين ربما أرادوا ألا يفسدوا الصورة الرومانسية التى يودون تقديمها للقارىء الأوربى عن ثقافة تلك الشعوب ، وذلك بالحديث عن البيع والشراء والمطاعم وغير ذلك •

وتبدو أهمية النشاط الاقتصادى للموالد فى الحقـائق والملاحظات التالية ، التى أوردها فى ايجاز : ـــ

(ا) انشاء أعداد ضخمة من الخيام التى تكون بمثابة محال تجارية ومطاعم من شتى الأنواع والمستويات • ولا يقتصر الأمر على تلك المحلات الجديدة ، انما نجد أن المحلات والأماكن الموجودة بالفعل على مقربة من مكان المولد يمكن أن يعاد تجهيزها بحيث توظف بكفاءة لهذا الغرض ، وهو تلبية الاحتياجات التجارية لرواد المولد • ولا ننسى أن تلك المحلات التى تنشق عنها الأرض بين يوم وليلة يتحتم عليها أن تخـدم عشرات ، وأحيانا مئات ، الآلاف من الرواد طوال فترة المولد •

(ب) انشاء خيام للسيرك ، والألعاب المختلفة ، وألعاب الحظ ، وقائمة لا تنتهى من فنون الترويح والتسلية • وتلك الأنشـطة هى التى تجعل للاحتفال طابعه المميز وتجذب اليه أعدادا غفيرة من الزوار •

(جـ) علاوة على هذا تشيد خيام كثيرة لأغراض أخرى متنوعة ، لقراءة القرآن ، واقامة حلقات الذكر ، والغناء والرقص ، وانشاد شـعر الربابة ••• وكلها أنشطة محببة لرواد المولد من كل المستويات • كمـا لا ننسى أنشطة التمثيل وغيرها مما يخدم فى نفس الاتجاه •

(د) ثم هناك نقطة فائقة الأهمية وتحتاج الى تناول دقيق وحذر قبل أن تنفق عليها ، لأنه سوف تترتب عليها نتائج ذات دلالات بعيدة • ومؤدى هذه الملاحظة ذلك التوافق العجيب أو قل التنسيق الواضح بين مواعيد الموالد المختلفة ، سواء على المستوى القومى ، أو المستوى المحلى والاقليمى • ان درجة هذا التنسيق لا يمكن أن تكون وليدة الصـدفة وحـدها •

ولكن الرأى الذى يبـــدو أقرب الى العقل والمنطـق أن طوائف المحترفين (على اختلاف أنواعهم : متصوفة ، وتجار ، وأصحاب ألعـاب التسلية ، ومنشدين ... الخ) الذين يضطلعون بالعبء الأكبر فى احياء تلك الموالد (من الاسكندرية الى أسوان) هم المسئولين عن هــذا التنسيق بين المواعيد . فهم بذلك يضمنون لأنفسهم فرص عمل متصلة على مدار العام . ينقلون أمتعتهم وأدواتهم من مولد الى آخر يمارسون نفس النشاط ويخدمون نفس الغرض .

ولا شك أن تمحيص هذه الملاحظة يتطلب اجراء دراسات موسـعة وذكية بهدف التعرف على جماعات المحتـرفين الذين يمارسـون هــذه الأنشطة ، وما اذا كانوا ينتمون الى تنظيم مهنى معـين ، والوسيلة التى يستطيعون من خلالها فرض هذه الخطة الزمنية الدقيقة المتكاملة على كل أنحاء مصر .

ومن الواضح أن دراسة موضوع كهذا لا يخرج اطلاقا عن حدود دراسة الأولياء ، وهو ليس بالموضوع الثانوى فى هــذا السياق . فمن الواضح أن كثيرا من الانحرافات الدينية والأخـلاقية والاجتماعية التى تتم فى اطار المولد سوف تلقى عليها مثل هذه الدراسة ضوءا كافيا،يكون أداة فعالة لضبطها والتحكم فيها وتوجيهها الى مسالك أفضل .

ومعروف أن الدولة قد اجتهدت ــ من خلال وزارات الثقافة المتعاقبه طوال الخمسينات والستينات وحتى الآن ــ فى تطوير الأنشطة الفنيـة والثقافية والاجتماعية داخل الموالد . علاوة على تقـــدم أجهزة الأمن والصحة وغيرها فى أداء دورها فى رعاية تلك المناسبات الشعبية .

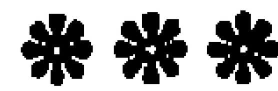
***

٤ ــ ملاحظة ختامية :

اننا اذا اتفقنا على الأسس الضرورية أو الخطة المفصلة لدراسة الأولياء ، كما جاء فى دليل دراسة المعتقدات الشعبية[٢٦] ، فسوف نلمس بوضوح أن مؤلفى كتاب « المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى » ــ الذى نعرض له اليوم ــ قد أغفلا أغلب تلك الأسس وأهم تلك العناصر الضرورية • وقد شغل اهتمامهم الأول الكلام عن الضريح وهندسته وزينته وأثاثه ، والحديث عن المولد والنشاط الدينى فيه ، ولكن ما عدا هذا فاما أنهما أغفلاه اغفالا ، أو أشارا اليه على عجل ودون القدر الواجب من التعمق •

اننى أقول دون تحفظ أن المؤلفين كريس قد درسا موضوع الأولياء « من الخارج » وليس « من الداخل » • لقد أثارتهم الأضرحة ، والمواكب والبيارق ، والأسواق أكثر مما أثارهم أو حركهم المعتقد ، والاحساس الدفين فى صدور الناس ، والذى لا يصعب على الباحث المتمرس أن يدركه ويلم به •

وفى ختام تلك الدراسة السريعة لمعالجة الأولياء فى كتاب كريس لا بد وأن أتوجه اليهما بالشكر على الجهود المضنية التى بذلاها فى اعداد هذا الكتاب الضخم ، وفى تحمل المشاق من أجل التقاط تلك المئات من الصور الممتازة ، ومن أجل هذا الجهد الفذ الذى بذل فى اعداد الببليوجرافية • وان كل تلك الملاحظات التى أوردتها ان هى الا سمة كل جهد بشرى ، فالكمال لله وحده •



---

(٢٦) انظر الجزء الخاص بالأولياء فى الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، مرجع سابق .

الدراسة السابعة

دراسة السحر الإسلامى المصرى

مقدمة : الدراسات السابقة وهدف هذا البحث

فصـــل تمهيـــدى

أولا : أهمية الأسماء بصفة عامة والأسماء الالهية خاصة فى السحر .

ثانيا : البـــونى

ثالثا : السحر الشعبى والسحر الرسمى

عرض موجز لمحتويات فصول الدراسة

البـــــاب الأول

الفصل الأول : تواتر الأسماء الالهية والعلوم السحرية بصفة عامة

الفصل الثانى : شروط الاستخدام السحرى للأسماء

الفصل الثالث : أهداف الممارسة السحرية

الباب الثانى : الاسم الأعظم

الفصل الأول : عموميـــات

الفصل الثانى : تكوين الاسم الأعظم من أسماء حسنى

الفصل الثالث : تكوين الاسم الأعظم من حروف وآيات قرآنية

الفصل الرابع : تكوين الاسم الأعظم من أسماء سوريانية وعبرية

الفصل الخامس : تكوين الاسم الأعظم من أشكال وتعاويذ معينة وكخاتم سليمان .

تمهيد :

سوف أستعرض فى هذا الفصل الدراسة التى أعدها محمد الجوهرى عن « استخدام أسماء الله فى السحر فى المؤلفات المنسوبة للبونى » ، والتى تقدم بها لنيل درجة دكتوراه الفلسفة من جامعة بون بألمانيا الغربية عام ١٩٦٦[1] • وقد قدمت هذه الرسالة باللغة الألمانية ، ولهذا السبب ظلت بعيدة عن استفادة جماهير الدارسين فى مصر ، رغم أنها طبعت فى كتاب فى بون عام ١٩٦٨ ، وقدمت لهـا عدة عروض ومناقشات باللغتين الألمانية والفرنسية[2] • ولذلك حرصت فى هـذا العرض على أن أقدم محتوى أمينا لمضمونها كى يكون تحت بصر المهتمين بدراسة المعتقدات الشعبية المصرية المعاصرة ، والمختصين منهم بدراسة المعتقدات السحرية بوجه خاص • ولقد أردت بهـذا العرض أن يكون بديلا عن الترجمة الى أن يتمكن المؤلف من اصدار الترجمة الكاملة لهذا العمل الهام ، والذى يعد معلما هاما على طريق الدراسة العلمية للتراث الشعبى المصرى التى تأخذ بأحدث الأساليب والأدوات العلمية •

---

(١) Mohamed M. El-Gawhary, Die Gottesnamen im Magischen Gebrauch in Den Al-Buni zugeschriebenen Werken, Dissertation zur Erlangung der Doktorwürde der Philosophischen Fakultät der Rheinischen Friedrich-Wilhelms-Universität zu Bonn, Bonn 1968.

(٢) نشر لها عرض ومناقشة فى مجلة « الاسلام » Der Islam الألمانية والتى تصدر فى برلين ، كما نشر لها ماكسيم رودنسون عرضا مطولا فى مجلة **الحولية الاجتماعية** L'Année Sociologique ، عدد ١٩١

مقدمة : الدراسات السابقة
وهدف هذا البحث

يستهدف هذا البحث دراسة موضوع أسماء الله فى السحر الاسلامى المصرى ، من واقع مؤلفات ساحر معين . ونلاحظ أن معلوماتنا عن البونى هذا كانت لاتزال ضئيلة جدا ومشوشة رغم أهميته الكبرى باعتباره أكبر ساحر مصرى . على أن هذا لا يصدق على المؤلفات الأوروبية فحسب ، وانما على المؤلفات العربية أيضا (كما سيفصل القول على ذلك فيما بعد) . وعلى ضخامة حجم مؤلف العالم الفرنسى دوتيه Doutté « السحر والدين فى شمال أفريقيا » الصادر فى الجزائر عام ١٩٠٩ ، ورغم اهتمامه الكبير بهذا الميدان ، فانه لم يستطع أن يدرك ادراكا كاملا الأهمية الحقيقية لأسماء خاصة الله والدور الذى تلعبه فى نطاق ميدان السحر . ويرجع ذلك بصفة خاصة الى أنه لم يلاحظ أصلا الفروق القائمة بين المصادر السحرية الشعبية والمصادر السحرية الرسمية (انظر فيما بعد معالجة دقيقة لموضوع الفصل بين السحر الرسمى والسحر الشعبى) . بل انه بوسعنا القول بأنه قد نظر الى الموضوع كله نظرة فيها كثير من السطحية على الرغم من اقامته الطويلة فى الجزائر ومنطقة شمال افريقيا . والسبب الثانى فى ذلك أنه لم يتخذ موقفا نقديا من المؤلفات السحرية التى استخدمها بما فيها طبعا كتاب « شمس المعارف » للبونى . وكان من نتائج هذا أنه لم يستطع ادراك تطور السحر الاسلامى . ذلك أن جزءا كبيرا وأساسيا من هذه العملية التطورية يتحقق داخل مؤلفات البونى . وتحتل أسماء الله فى كتاب « دوتيه » حيزا صغيرا جدا بالقياس الى أهميتها الكبرى فى ميدان الاعتقاد والممارسة السحرية . فهو يتناولها فى فقرة من الفصل الرابع بعنوان : « الطلاسم » . حقيقة أن دوتيه قد حاول — فى كلمات قليلة — أن يشير الى أهمية أسماء الله فى السحر

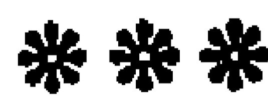
الاسلامى • ولكنه قدم اشارات مماثلة عند تعرضه لدراسة عناصر السحر الاسلامى الأخرى كالآيات القرآنية على سبيل المثال • بحيث أنه وصف السحر الاسلامي بأنه « سحر قرآنى » • ولكن هــذا لا يتفق وأهمية الاسماء فى السحر الاسلامى ، كما سنرى على مدار البحث • على أننا يجب ألا نتوهم أن مثل هذه النقائص تقلل من شأن الكتاب الممتاز الذى أخرجه « دوتيه » فقــد تناول فيه لأول مرة حشـــدا هائلا من المادة الجديدة • كما نجح فى معالجة عدد كبير من المسائل معالجة ممتــازة • ويكفى أن نشير فى هذا الصدد الى الفصل الخامس من كتابه ، وعنوانه « الأغراض العملية للسحر » •

ثم جاءت دراسة فينكلر Winkler القيمة بعنوان : « الخواتم والأشكال فى السحر الاسلامى » ــ الصادرة فى برلين عام ١٩٣٠ • فلم تتفوق على مؤلف دوتيه كثيرا من حيث ادراك وفهم حقيقة أسماء الله فى السحر • وكان من شأن هذا أنه لم يعتبر الرسوم المختلفة ــ كعلامات خاتم سليمان ــ وهى موضوع رسالته الفعلى ، أسماء الهية « كما يفعل السحرة المسلمون (وقد عولج هذا الموضوع على صفحة ١٦٠ وما بعدها من الرسالة) • كما لم يتوصل فينكلر الى ادراك الأهمية الحقيقيــة لعلم « الاسم الأعظم » • وقد اعتبر كلمة الأعظم هذه مجرد صفة توصف بها بعض الأسماء الالهية ــ كما سنرى فيمــا بعد ــ الأمر الذى يختلف ومفاهيم السحرة الرسميين •

أما فيما يتعلق بمؤلف كريس Kriss : « المعتقدات الشعبية فى العالم الاسلامى » المجلد الثانى بعنوان : « الأحجبة والصيغ السحرية والتعاويذ « ــفيسبادن عام ١٩٦٢ ، فانه ليس سوى تجميعا للمؤلفات والمقالات المنشورة من قبل ، اذ لم يحالفه التوفيق فى بعض المواضع • كذلك لا تستطيع الأحجبة وطاسات الخضــة وغيرها من المواد الجديدة

التى نشرها كريس أن تقودنا الى اتجاهات أساسية جديدة لأنها ليست مرتبطة ارتباطا عضويا بالكتاب •

ثم هناك علاوة على ذلك عددا من الدراسات التى لا تستحق أن نفصل القول فى تفنيدها ، على الأقل فى مجال دراستنا المحدد هـذا • ونذكر منها على سبيل المثال كتاب تزبندن Zbinden بعنوان : « الجن فى الاسلام » الصادر فى برن عام ١٩٥٣ • فهو يقودنا ــ على طريقة الكتب العامة الحديثة ــ وبدون دراية كاملة باللغة العربية عبر تاريخ الثقافات الشرقية • ثم هناك المقالان الهامان من تأليف « أهرنز » Ahrens بعنوان : « دراسات حول المربعات السحرية عند العرب » العدد الثامن من مجلة « الاسلام » (عام ١٩١٧) ، « المربعات السحرية عند البونى » العدد الثانى عشر من مجلة « الاسلام » (عام ١٩٢٢) • ولكنهمـا يخرجان عن الحدود التى رسمها المؤلف لمعالجة موضوعه هذا • وأخيرا فان فئة أخرى من الكتب مثل مؤلفات وليم لين ، وكنعان ، وهورتن ، وبرج ، وبلاكمان وادريس شاه (انظر قائمة المراجع) تزودنا بمادة ثانوية الأهمية فى أغلب الأحيان •



وكان اسم هذه الرسالة فى بداية الأمر : « استخدام أسماء الله فى السحر عند البونى » غير أنه اتضح للمؤلف فى أثناء عملية البحث أنه ليست جميع الكتب المنسوبة الى البونى من تأليفه فعلا • ولذلك تحتم تعديل عنوان الرسالة بما يتفق وهذه النتيجة التى انتهى اليها البحث •

وينقسم الموضوع الى ثلاثة أبواب رئيسية • علاوة على فصل تمهيدى يتناول معالجة المسائل الأساسية الأولية • وفيه يعرض لأهمية الأسماء بصفة عامة ــ والأسماء الالهية بصفة خاصة ــ فى السحر • ثم

تخصص الفقرة الثانية من هذا الفصل للترجمة لحياة البونى ، وأسباب اختيار مؤلفاته كمصدر لهذه الدراسة . ولما كانت الرسالة تدور حول موضوع من ميدان السحر الرسمى ، خصص المؤلف الفقرة الثالثة من هذا الفصل للاحاطة بسرعة بخصائص كل من السحر الرسمى والسحر الشعبى .

ويتناول الباب الأول من الرسالة بفصوله الثلاثة الأسماء الالهية بصفة عامة ، وذلك فى الممارسة السحرية . ولم يميز فى هذه المرحلة بين الفروع الأساسية « لعلم الأسماء » ـ على نحو ما يسميه أهل السحر .

ويعرض الباب الثانى « للاسم الأعظم » . ويحاول هذا الباب أن يوضح أن الاسم الأعظم « يمثل فرعا خاصا داخل اطار علم الأسماء . ولم يحدث من قبل أن استطاع أى باحث أن يدرك ادراكا صحيحا وجود وحدود وأهداف هذا « العلم » السحرى ولذلك رأى المؤلف التقديم لهذا الباب بفصل تمهيدى فى هذا الموضوع . ثم تحاول الفصول الأربعة الأخرى فى هذا الباب أن توضح الجوانب المختلفة للاسم الأعظم بشىء من الدقة . ولم يكن الهدف من هذه المعالجة جمع الشواهد والصور المختلفة . بقدر ما كان الاهتمام بابراز المعالم الأساسية لهذا الميدان الذى لم يفهم بعد على الوجه الصحيح .

ثم يعالج الباب الثالث والأخير الأسماء الحسنى التسعة والتسعين الشهيرة . ونظرا لأن هذه الأسماء الحسنى كانت تفهم حتى اليوم على أنها ٩٩ اسما فقط ـ وهو ما يختلف مع واقع العلوم السحرية ـ كان لابد من معالجة هذا الموضوع فى فصل خاص . ثم تتناول الفصول الثلاثة الأخرى من هذا الباب معالجة الجوانب الفنية السحرية للموضوع بصفة خاصة .

أما ملحق الرسالة فيستهدف أساسا عرض معالم الممارسة السحرية فى مصر المعاصرة ، الأمر الذى يمكن أن يساعدنا على تفهم عمليات التغير فى هذا الميدان • وقد زودت ترجمة الكتيب السحرى المنشور كملحق رقم (١) بايضاحات وتعليقات كثيرة • وكانت هذه الايضاحات فى بعض الأحيان أساسية فى فهم النص ، وما على شاكلته •

أما الملحق رقم (٢) الذى يعرض لنتائج الدراسة الميدانية التى قام بها المؤلف فى ريف مصر — شمالها وجنوبها — فيعتبر مكملا لترجمة الكتيب السحرى • وهو يتيح لنا فى المقام الأول المقارنة بين النظرية والواقع فى الممارسة السحرية فى مصر اليوم •

ونظرا لأن الباحث استعان بعديد من المخطوطات التى لم تنشر حتى اليوم ، فقد رأى أنه من الأفضل ايراد معلومات مفصلة عنها فى قائمة المصادر والمراجع • والهدف من ذلك أن تحفز هذه التفاصيل الى مزيد من البحوث والدراسات فى هذا المجال •

وقد حتم اطار البحث — مع الأسف — التجاوز عن معالجة موضوع تأثير الثقافات الأخرى على السحر الاسلامى المصرى • وقد اقتنع الباحث فى ضوء المادة التى جمعها حول هذا الموضوع بضرورة معالجتها فى بحث مستقل فى المستقبل باذن الله •

كما أنه كان من الأهداف المفيدة ولا شك عمل دراسة مقارنة — كملحق للرسالة — لبعض الكتب والنصوص السحرية من أعمار مختلفة • فكان من شأن هذا أن يزيد مسألة التغير وضوحا • ورغبة فى عدم الافراط فى زيادة حجم الرسالة ، رأى المؤلف التجاوز عن تخصيص فصل من الملحق لهذا الموضوع ووعدنا فى مقدمته أن يقدم عنه دراسة مستقلة فيما بعد •

فصـــل تمهيدى

اولا ــ اهمية الاسماء بصفة عامة
والأسماء الالهية خاصة فى السحر

يمثل الاسم فى جميع الثقافات الشعبية قوة خاصـــة • وهو مرتبط بشخصية صاحبه بواسطة قوة روحية • فمن يتحكم فى اسم انســـان بواسطة عمليات سحرية ، فانه بذلك يسيطر عليه نفسه • وقد لعبت هذه الخاصية السحرية للاسم ــ أو لا زالت تلعب ــ دورا شديد الأهمية فى الحياة الروحية لجميع الشعوب وفى جميع العصور • وبوسعنا آن نورد كثيرا من الشواهد والأمثلة التى توضح لنا أننا هنا بصدد ظاهرة انسانية عامة • ونظرا لأن الشياطين والأشرار يمكن أن يسيئوا استخدام الاسم ويستغلوه فى الاضرار بصاحبه ، فان الانسان يهتم أكبـر الاهتمـام اما باختيـار اسم يطرد الأرواح الشريرة بسبب قبحه • أو اخفـاء الاسم الحقيقى عن الناس ، ويندرج تحت الأسلوب الأول العادة المنتشرة لدى كثير من الشعوب والخاصة بتغيير الاسم فى حالات الخطر لتضــليل الأرواح الشريرة كأرواح المرض مثلا •

ولا زالت هنــاك عادة منتشرة فى مصر حتى الآن مؤداها أن يمنح الوالدان ــ اللذان توفى لهما أطفال كثيرون ــ وليدهما الجـديد اسما قبيحا مثل : شحات ، الأعور ، الأسود ، الحمار ، الجحش ، الحلوف ، الأعرج ، البرغوث ، الغراب ، الفار ، خيشة ••••• الخ • واذا ما سئل الوالدان عن سبب هذه التسمية الغريبة ، سمعنا دائما الاجابة المتشابهة « كى يعيش الطفل » • وقد يحدث فى بعض الأحيان ــ كصورة أخرى لهذا المعتقد ــ أن تطلق الأسرة المسلمة على وليدها اسما مسيحيا والعكس بالعكس •

ومثل آخر : يحدث فى بعض الأحيان أن تمنح الأسرة الوليد اسم أحد الأسلاف أو الأقارب الذى عمر طويلا : « كى يعمر الطفل مثله » • وعلاوة على هذا يتسمى البعض بأسماء أولادهم (الذكور) : لأن هؤلاء ليس لهم بعد أعداء يمكن أن يستغلوا الاسم » • من هذا مثلا ، أبو ••• عم ••• ابن عم ••• وتنتشر فى مصر الى جانب هـذا ممارسة أخرى مؤداها استخدام ألقاب معينة بدلا من بعض الأسماء مثل :

أبو على لحسن وأبو درش لمصطفى ، وأبو خليل لابراهيم ، وأبو عرب لسيد ، وأبو حميد لمحمد ، وأبو حنفى لمحمـود ، وأبو حجاج ليوسف ، وأبو السباع لاسماعيل •

ومن الممارسات الأخرى الواسعة الانتشار فرض الحظر (التابو) على أسماء الموتى ، والأمراض الخطيرة كالسل ، والسرطان فيكنى عنهـا بألفاظ أخرى •

ويصدق هذا أيضا على السحر الاسلامى الذى تلعب فيه الأسماء ـ سواء كانت أسماء الهية أو غير ذلك ـ الدور الأسـاسى • ويعتبر ميدان علم الأسماء هنا تتويجا للميادين الأخرى ، كعلم الحروف ، وعلم الخواتم والأشكال ، والمربعات ، والتنجيم وغير ذلك • فهى تعتبر جميعا ذات أهمية ثانوية بالنسبة لهذا « العلم » • ولكن ما معنى القول بأن كل المبادىء والتعاليم المستخلصة من هذه الميـادين تسـتخدم فى « عـلم الأسماء » ؟•

تتكون هذه الأسماء من حروف ، ولكل حرف منها خصائص معينة يشتغل بدراستها وتطبيقها فرع هام من فروع السحر الأسـلامى • ومن هذا أنه يمكن لكل حرف من حروف الأبجدية أن ينـوب عن اسم من الأسماء الالهية •

ومثال آخر : تتمتع جميع الأسماء الالهية التسعة والتسعين فى نظر المسلم المؤمن بالمعتقدات الشعبية بقوة سحرية • غير أن هناك سبعة من بين هذه تتمتع بهذه القوة بدرجة أكبر من بقية الأسماء الأخرى • وأقصد هنا تلك الأسماء التى تبدأ بالسبعة حروف المقدسة ، وهى سواقط الفاتحة •

وكما ترتبط الأسماء بالحروف هذا الارتباط الوثيق ترتبط بالأعداد أيضا • ومن المعروف أن الخصائص السحرية للأعداد تكون منذ العصور القديمة فرعا أساسيا من فروع السحر • وينطبق هذا على السحر الاسلامى أيضا • وليس من العسير أبدا أن نسوق الأمثلة على العلاقات المتبادلة بين ميدان الأسماء وميدان الأعداد • ونكتفى بقليل منها : لما كان كل حرف من حروف الأبجدية العربية يمثل ـ فى نظر أهل السحر ـ قيمة عددية معينة • نجد أن السحرة كثيرا ما يرمزون للاسم الالهى فى تعويذة أو وصفة سحرية معينة بعدد معين • ويحرص السحرة فى هذا الصدد على تأليف هذه الصيغ على نحو معين بحيث لا يفهمه الدخيل على هذا الميدان • فيرون أنه ليس من اللازم أبدا وضع العدد الممثل لكل حرف من حروف الاسم فعلا • بل يمكن للمؤلف ـ حسب هواه ـ أن يجمع القيمة العددية لحرفين أو ثلاثة من الأحرف المكونة للاسم ويعطينا اياها على أنها ممثل للاسم • وبهذه الطريقة يمكن أن نجد مؤلفى كتب السحر يعبرون عن نفس الاسم الالهى بقيم عددية مختلفة •

وعلاوة على هذا فان هناك علاقات مشتركة كثيرة بين علم الأسماء وعلم الأوفاق الخاص بقواعد عمل وتفسير واستخدام المربعات السحرية وقد لا يكون للاسم الالهى فى كثير من الأحوال أى تأثير سحرى ما لم « ينزل » فى مربع سحرى معين خاص به • وسنعود فى موضع آخر فيما بعد الى الحديث حول هذا الموضوع •

وهناك أيضا علاقات متبادلة من هذا النوع بين علم الأسماء وعلم

التنجيم . فالساحر يرى أن الاسم الالهى لا يمكن أن يستخدم هكذا فى كل وقت من الأوقات . وانما لكل اسم منها وقت خاص به يجب استخدامه فيه . وبناء على هذه الأسئلة يمكننا القول بأن ميدان علم الأسماء يعتبر بحق تتويجا للعلوم السحرية الأخرى وآخر ذروتها .

ولا تعنى كلمة « اسم » فى علوم السحر الأسماء الالهية فحسب ، وانما هناك أيضا أسماء الأنبياء ــ وخاصة سيدنا محمد ــ وأسماء أقاربه وأهــل الكهف وكلبهم .. الخ من الأســـماء التى تلعب دورا هاما فى المعتقدات والممارسات السحرية . الا أن أهم هذه الأسماء بطبيعة الحال هى تلك المنسوبة الى الله ، المعلوم منها وغير المعلوم . وأشهرها فى العالم الاسلامى كله هى الأسماء الحسنى التسعة والتسعين .

وتطلق كتب السحر الاسلامية على القوة السحرية بصفة عامة اسم : « قدره » أو « اسم » أو « سر » وتعنى كلمة « اسم » بصفة خاصة تلك القوة الخارقة التى لا يمكن الاحاطة بها . ومن اليسير أن يختلط فى كتب السحر مفهوم القوة عامة بالأسم . ويمكننا أن نتصور من النص التالى (عن كتاب مجربات الديربى ص ٩٧ ، ترجمة فيكلر على صفحة ١٠ ، ١١ من كتابه المذكور فى المقدمة) مفهوم الاسم عند الساحر المصرى:

« وبالاسم الذى أضاء به الليل الديجور ، وحرق به كل شــيطان كفور ، وأمن به الخائف من كل محذور . وبالاسم الذى يمشى به عــلى الماء فيجمد الأرض اليابســة .. وبالاسم الذى رفعت به ســـمواتك وبسطت به أرضك ، وخلقت به جنتك ونارك وجميع خلقك .. باسم الله الكريم الجليل العظيم الذى وضعه على السموات فاستقلت وعلى الأرض فاستقرت وعلى الجبال فرست وعلى البحار فجرت ، وعلى العيون فنبعت وعلى الأنهار فانفجرت . وعلى الأشجار فأثمرت ، وعلى السحاب فأمطرت ... وعلى الليل فأظلم ، وعلى النهار فاستنار ، وعلى القمر فأنار ، وعلى الشمس فأضاءت ، وعلى النجوم فسارت ، وعلى الرياح فثارت » .

ثانيا ــ البونى

اختيرت مؤلفات البونى كمصدر أساسى لاجراء هــذه الدراسة • واسمه بالكامل : محيى الدين أبو العباس أحمد بن على بن يوسف البونى القرشى • ويعتبر هذا الكاتب العربى واحدا من أهم من اشتغلوا بالعلوم السحرية فى تاريخ الحضارة الاسلامية • وليس تاريخ ميــــلاده معروفا لنا عــلى وجــه الدقة • ونلاحظ أنه نادرا ما يرد ذكره فى كتب التراجم العربية الضخمة • ومن العجيب فعلا أنه لم يرد له ذكر فى كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » للسيوطى فى الفصــــل الخاص : « بالأولياء والزهاد والمتصوفين الذين عاشوا فى مصر » • وقد يرجع هذا ببساطة الى الحقيقة التى مؤداها أنه قد عاش فى ذلك العصر عدد لا حصر له من الأولياء والمتصوفة • وقد يكون من الأســـباب الأخرى لذلك التجاهل كون البونى شيعيا • وكانت السنة قد عادت فى أثنــــاء حياته وسيطرت على مصر من جديد • ولذلك حدث بعــد موته أن قللت بعض كتب التراجم الشهيرة من مكانته وطعنت فى أستاذيته •

والشىء الذى يبدو لنا ثابتا أن البونى قد توفى فى القاهرة عام ٦٢٢هـ الموافق عام ١٢٢٥ ميلادية • وعلى هـــذا يحتمل أن يكون قد ولد فى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى • وكما يتضح من كنيته• فقد كان من مواليد مدينة « بونه » فى الجــــزائر حاليا وليست لدينــا معلومات عن طفولته أو الأعمال التى اضطلع بها فى مستهل حياته • ولو أننا يمكن أن نستخلص من مواضع كثيرة أنه قد قام ــ شــأنه فى ذلك شأن معظم معاصريه ــ برحلات متعددة خلال العالم الاسلامى فسافر الى القدس ، ودمشق ، وحلب ، كما زار بعض أنحاء مصر ، وخاصــة أخميم (على اعتبار أنها كانت مركزا من مراكز السحرة المصريين) ويمكننا أن نخمن أنه قد انضم فى شبابه لاحدى الطرق الصوفية •

ولكن لماذا اختير البونى بالذات مصـــدرا لهذه الدراسة ؟ أكدت جميع المؤلفات التى كتبت عن السحر الاسلامى أن البـونى كان أكبـــر وأشهر ساحر مسلم على الاطلاق • ويتأكد لنا ذلك اذا ما ألقينا نظرة على قائمة مؤلفاته الطويلة ، سواء كانت من تأليفه فعلا أو منسوبة اليه فقط• ويوجد أكبر حصر لمؤلفاته عند حاجى خليفه فى كتابه « كشف الظنون » وعند « كارل بروكلمان » فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » • اذ ينسب اليه المصدران عددا كبيرا من المؤلفات وان كان بينهما بعض الخلاف فى عناوين بعض الكتب •

هذا وقد ذكر البونى عرضا بعض الكتب المنسوبة اليه فى المصادر المخطوطة والمنشورة التى استخدمت مصدرا لهذا البحث • وتتناول هذه الكتب جميع ميادين السحر ، وخاصة علم الأسماء • وتعتبر الأسماء عند البونى ــ كما هو الحال فى السحر الاسلامى عـلى الاطـلاق ــ حجر الزاوية • وتجد البونى يتكلم دائما عن الأسماء الالهية ، سواء كان يتكلم عن الخصائص السرية للحروف ، أو عن تركيب الجداول السحرية ، أو عن خصائص كل ساعة من ساعات اليوم •••• الخ • وعلاوة على هـــذا فقد قصر عدداً كبيرا من مؤلفاته على الأسماء الالهية وحدها •

ومن الواضح والثابت أن البونى لم يكتب بنفسه جميع الكتب التى تنسب اليه • وقد استطاع المؤلف فى ضوء الشواهد التى تجمعت لديه أن يتعرف على عدة مراحل تطورية فى كتابات البونى • ويمكن عرضها بايجاز على النحو التالى :

(أ) أقدم وأنقى المؤلفات والتى ألفها البونى بنفسه فعلا•والكتاب الوحيد الذى ينتمى لهذه المرحلة بيقين يعلو على كل شك هو « اللمعـــة النورانية » • وأقدم شاهد على ذلك القطع التى اقتبسها منه التويرى

(توفى عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) فى « نهاية الأرب » عن الأسماء الحسنى وعن الاسم الأعظم • ويمكن القول بأن هذا المؤلف يتضمن أهم عناصر السحر الاسلامى كما نعرفها عند البونى •

(ب) حدث بعد موت البونى بوقت غير بعيد أن تدولت تعاليمه فى السحر ، بحيث أن النويرى اقتبس منه هذه الفقرات الخاصة بالأسماء الحسنى وتصنيفها ، وبالاسم الأعظم • وبوسعنا أن نعتقد أن أفكاره قد لاقت صدى طيبا لدى كثير من أشياع الطرق الصوفية • وحدث بعد حوال قرن من موته أن نشر كتاب « شمس المعارف الكبرى » كعرض وتلخيص لأشهر تعاليمه • وذلك على يد أحد تلاميذه غير المباشرين • ونلاحظ أنه لم يرد لهذا الكتاب — الذى يعتبر أهم وأضخم مؤلفات البونى — ذكر عند النويرى • وانما ذكر عند القلقشندى (توفىعام ٨٢١هـ الموافق ١٤١٨ م) فى كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » •

وقد كتب عنه يقول : « وهو عزيز ، ولكن النسخ المعتبرة من اللمعة تحتوى على الكثير منه » • ويرى المؤلفان فى ضوء الخصائص الأسلوبية لشمس المعارف — أن الكتاب ليس من تأليف مؤلف واحد • ويبدو أن مؤلف الكتاب الأصلى كان من بين أتباع أبى الحسن الشاذلى • اذ تكثر الاشارات اليه فى هذا الكتاب • ولما كان البونى قد عاش قبل الشاذلى فلا يمكن أن يكون هو الذى أشار اليه • كما أن الشاذلى نفسه لم يترك مؤلفات كثيرة • ولم تصل الينا سوى ثلاث مؤلفات صغيرة له فقط • كان يمكن لمؤلف « شمس المعارف » أن ينقل عنها • ولذلك يرجح أن يكون المؤلف تلميذا مباشرا من تلاميذ الشاذلى سمع منه الكثير ، الذى أخذه فى مؤلفه • واذا صح هذا الفرض ، أمكننا أن نؤرخ لتأليف كتاب شمس المعارف بأوائل القرن الثامن الهجرى (حوالى القرن الرابع عشر الميلادى) •

(جـ) ثم اعتمد على هذين المؤلفين ابتداء من ذلك الوقت وحتى الآن فى وضع مؤلفات أخرى • حيث أصبح لدينا اليوم عدد كبير من الرسائل والكتب التى تنسب جميعها للبونى • وسوف نشير فيما بعد الى الدور الذى تلعبه « مؤلفات البونى » اليوم •

ومن المؤكد كما قلنا من قبل أن شمس المعارف لم يؤلف مرة واحدة أو على الأقل فى شكله الحالى • فليست « شمس المعارف » التى ورد ذكرها عند القلقشندى هى « شمس المعارف » الموجودة اليوم • وهناك شواهد لا حصر لها على أن مؤلف الأجزاء الأولى من الكتاب ليس هو مؤلف الأجزاء الأخيرة • وقد أورد المؤلف فى الرسالة أقوى وأوضح هذه الدلائل التى تقطع كلها بصحة هذه القضية ، وذلك على صفحة ١٨ وما بعدها •

ويلاحظ على أسلوب المؤلفات المنسوبة الى البونى ــ بغض النظر عن الفصول التى ورد ذكرها على اعتبارها غير أصيلة فى الكتاب وغيرها من الاضافات المتأخرة ــ أنه واحد متجانس ذو شخصية واضحة المعالم، ويتميز هذا الأسلوب بخصائص تصوفية كثيرة أثرت ولا شك على تفكير وآراء البونى والسحرة التابعين له تأثيرا قويا • ويستخدم البونى كثيرا من المفاهيم والممارسات الصوفية ، نذكر منها على سبيل المثال : الرياضة ، والخلوة •••• الخ • وهو يعتبر كثيرا من الشروط الصوفية شرطا للاستخدام السحرى للأسماء الالهية • مثل : الصوم عن الأكل أو عن أصناف معينة منه ، وهجر النوم ، والاتصال الجنسى ••• الخ• ثم تبرز لنا بعض عناوين مؤلفاته آثارا مباشرة من ميدان التصوف • ويميز البونى تمييزا دقيقا وصارما جدا بين عالمين مختلفين : عالم دنيوى غير ظاهر ، وآخر مقدس وطاهر • ويجب للانتقال من واحد للآخر استيفاء شروط كثيرة • وعلاوة على هذا نلاحظ فى مواضع كثيرة أنه

لا يخاطب القارىء العادى ، وانما الشخص المتصوف وهكذا يعد الكتاب مثلا كثواب للرياضة بأحد الأسماء الالهية بالوصول الى درجة «الأبدال» .

كما أن هذه الكتب لم تتأثر بالتفكير الصوفى فحسب وانما تأثرت تأثرا قويا بالتراث الفكرى الدينى بصفة عامة . وليس فى هذا شىء من العجب ، نظرا لأن المؤلف كله يدور أساسا حول أسماء الله . فيضم البونى على سبيل المثال كثيرا من الآيات القرآنية والصيغ والعبارات الشائعة فى الحياة الدينية . وتنتشر فى جميع أرجائه أساطير وحكايات عن صحابة النبى وتابعيهم . وكان الهدف من هذه الحكايات تأكيد أو تأييد وصفات معينة .

من قواعد السحر الرسمى عند البونى التعبير عن الأفكار والأسرار بكلمات غامضة بقدر الامكان وبرموز خاصة . ولذلك يعمد الى الكلام بأسلوب غامض عسير الفهم على القارىء العادى . ويبدو أنه لم يكن يهتم أدنى اهتمام بأن يكون للكلمة السحرية أى معنى مفهوم . بل بالعكس كان يرى أن تأثيرها يزداد كلما بدت غريبة عديمة المعنى . بحيث نراه ــ هو وغيره من رجال السحر ــ يفضلون اختيار كلمات من لغات أجنبية غير مفهومة . وقد كتب البونى نفسه حول هذا الموضوع يقول : « وكذلك سنتهم فى علم الصنعة أعنى الحكمة الالهية فانهم يذكرون فى مصنفاتهم فيها آخر التدبير قبل أوله وأوله فى آخره ويذكرون الحجر بأسماء ليست له ويذكرونه باسمه المطابق له فى غير موضع الاحتياج اليه وينفونه تارة ويثبتونه أخرى ويأمرون بأخذه وينهون عنه. وكل ذلك تمويه على الجهال والعوام . والحكيم الفيلسوف لا يتوقف عند ذكر شىء من ذلك بل يتأمل فيما فيه الكون أى الذى يحصل فيه النتيجة التى يرونها ويتأمل ما فيه الفساد أعنى الأشياء المتضادة للكون.

وليس غرضنا من هذا الكلام فى هذا المحل الا أنهم يموهون فى جميع كتبهم لغير الحكيم . ومدار ذلك وقصدهم أن لا يطلع على علومهم الا حكيم . فافهموا أغراض الحكماء ومقاصدهم وما يريدونه من الرموز ». (ص ٩ من كتابه : « منبع أصول الحكمة ») .

ولذلك تحتوى مؤلفات البونى على عدد لا حصر له من الكلمات التى تستعصى على الفهم . وتزداد بمرور الوقت عملية اللعب والاغراب والرغبة فى ابتكار كلمات جديدة غير مفهومة . بحيث تزداد كمية مثل هذه الكلمات كلما كان المؤلف السحرى أكثر حداثة . وتفسر بعض هذه الكلمات المخترعة فى أحيان كثيرة على أنها عبرية أو سوريانية . وهو ما سنعود الى الحديث عنه فى موضع آخر فيما بعد .

ومن المهم فى هذا الصدد أيضا أن نلاحظ أن « مؤلفات البونى » ليست كلها من تأليف شخص واحد . اذ يحظر فى بعض المواضع مثلا اجراء تقديم أو تأخير فى الأسماء أو الآيات القرآنية . ثم ينصح فى مواضع أخرى بكتابة الحروف بترتيب عكسى ، بحيث يكتب ــ مثلا ــ بدلا من الاسم الالهى ، « جبار » « رابج » .

ونلاحظ بصفة عامة أنه حدث خلط أو تغيير كامل فى بعض الأسماء سواء كانت أسماء أعلام أو أسماء ملائكة ، وفى الصيغ والتعاويذ . ويرجع ذلك الى وجود مواضع غامضة فى جميع أجزاء الكتاب والى أن الكتاب قد تعرض ــ على مدى القرون ــ للنسخ بواسطة أعداد لا حصر لها من النساخ الذين كان مستواهم الثقافى دون المعدل فى العادة . وسنعود فى موضع آخر من هذا الفصل الى الحديث حول هذا الموضوع .

أشرنا من قبل الى أن مستوى ثقافة مؤلفى « كتب البونى » دون المستوى المعدل لكتاب تلك العصور . لذلك نجد بعض المفاهيم الدينية التى تستخدم استخداما خاطئا يتنافى ومدلولها الدينى الصحيح . كما نجد البونى — مثلا — يمتدح كتابه بطريقة لا تليق الا بالقرآن اذ يقول : « واعلم أن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

وتستخدم فى جميع « المؤلفات البونية » كلمات من العامية المصرية وان كان هذا يصدق أيضا — وخاصة فى مصر — على بعض المؤلفات فى فروع أخرى من العلوم والفنون . كما تتميز المؤلفات البونية بميل الى السجع وغيره من المحسنات البديعية .

وقد كانت المؤلفات البونية ولا تزال حتى يومنا هذا العدة الأساسية لكل مسلم يشتغل بالسحر وكتابة الأحجبة . فلا يستطيع أى مؤلف للتعاويذ والنصوص السحرية أن يستغنى عنها بحال من الأحوال . ولا زالت تنسخ من هذه الكتب حتى اليوم — فى القاهرة وغيرها من المدن العربية — مستنسخات لا تقع تحت حصر . وتتفاوت هذه النسخ من حيث الحجم بين صفحات قليلة ومئات من الصفحات . وهى تحمل فى بعض الأحيان اسم البونى ، وفى أحيان أخرى اسم مؤلف آخر ، أو لا تحمل اسم أى مؤلف على الاطلاق . ولكنه من اليسير علينا فى كل حالة أن نحد بعض الأحيان أن يبالغ فى هذا الخط بحيث لا نستطيع أن نتبين الاتجاه النظرى للبونى . وأعنى أن تنسخ من مؤلفات البونى بعض الكتب التى لا تستهدف سوى الاستخدام العملى، ومن الأمثلة الواضحة لمثل هذه المجموعات مخطوطه : « شرح أسماء الله الحسنى » . وهى مثال للكتب التى يقتنيها الساحر العادى وينسخ منها الأحجبة والوصفات التى يحتاج اليها فى عمله . فهى تكون بهذه الطريقة قنطرة تصل بين السحر الرسمى البحت والسحر الشعبى . وان كانت بالطبع أكثر انتماء للسحر الرسمى .

ثالثا ـ السحر الشعبي والسحر الرسمي

اتضح لنا من هذه المقدمة أن البحث الذى نحن بصدده يتناول موضوعا مما يمكن أن نطلق عليه اسم « السحر الرسمي » . فالبحث لا يتناول فى المقام الأول المعتقد الشعبي الذى يدور حول الموضوع المدروس وانما هو يهتم بالدرجة الأولى برأى الساحر الرسمي أى المحترف . وهو الساحر الذى وضع نصب عنيه ـ كالبونى مثلا ـ مهمة تعليم كل من يريد الاشتغال بالسحر كحرفة أو وسيلة من وسائل التكسب . وقد قال البونى نفسه ذلك صراحة فى مطلع مقدمة كتاب « شمس المعارف » : فانه كتاب الأولياء والصالحين والطائعين والمريدين والعاملين الراغبين (على صفحة ٢ من صفحات الكتاب) .

ولهذا اهتم محمد الجوهرى بأن يحدد بادىء ذى بدء المعالم الأساسية المميزة لكل من السحر الرسمي والسحر الشعبي ، والتفاعل القائم بين الميدانين . واضعا فى اعتباره دائما أن هذه المناقشة قاصرة على السحر المصرى الاسلامى فقط .

ويختلف هذان الميدانان عن بعضهما فى النقط التالية :

١ ـ النظرة الى العالم « فكرتهما عن العالم » .

٢ ـ الموضوعات الأساسية التى يدور حولها كل ميدان منهما .

٣ ـ الشكل الذى يحفظ ويتوارث به كل نوع منهما .

٤ ـ مصادر التأثير على كل نوع أو على الأقل ترتيب أهميتها .

٥ ـ مدى شدة الحاجة الدافعة الى اللجوء للسحر فى كل منهما .

ونعرض لهذه النقط بشيء من التفصيل فيما يلي :

يعتقد الساحر الرسمى أن الله هو خالق نظام هذا العالم والمسيطر عليه ، وأن هذا النظام لايخضع لارادة غير ارادته ، وهو الذى خلق كل شيء ، وان كان قد سار فى ذلك وفـق بعض الأسس الســحرية (العلمية) ، من هذا مثلا : أنه خلق كل شيء بقوة اســمه هو وخلق الأشياء الطيبة فى الوقت الطيب المناسب ، وخلق الأشــياء الضارة فى الوقت النحس غير المناسب ، وخلق لكل شيء ملاكا أو روحا أوكل اليه الاشراف عليه ، ويرى الساحر الرسمى أن مهمته هى خلق كل شيء وفقا لنفس المبادىء التى اتبعت فى الخلق الالهى بقدر الامكان ، والمقصود بكلمة « خلق » هنا ، صنع شيء جديد أو تغيير شيء قائم فعلا ، وهـو يحاول فى هذا الصدد أيضا استخدام نفس الوسائل التى استخدمها الله فى خلق العالم ، ولذلك لا يمكن أن ينجح له أى عمل دون اذن وتفويض من الله ، ونلاحظ أن السحرة الرسميين يؤكدون هذا فى كل مناسبة ، وعند تقديم أى وصفة سحرية ، ومن هذه الوسائل التى نتحدث عنها : أسماء الله ، اختيار الوقت المناسب ، الحروف ، .... الخ ، ولا يمكن أن تتحقق فاعليتها الا من خلال القوة التى يضيفها الله عليها ، ومن خلال مساعدة خدامها من الأرواح الذين هم خلق الله تعالى ،

أما بالنسبة للساحر الشعبى فالفكرة أبسط من هــذا بكثير ، حقيقة أنه يسلم — كمسلم — بأن كل شيء فى هذا العالم يخضع لارادة الله ، ولكنه يعتقد مع ذلك أن كل خير أو شر يمكن أن يصيب الانسان يرجع الى علاقة الانسان الفرد والجن ، ولذلك ليس « علم » السحر الشعبى سوى كيفية تسخير واستغلال الجن للحيلولة دون وقوع شيء ضار أو عمل ما من شأنه الاضرار بأحد ، واذا ما تتبعنا تصور الســاحر

الشعبى أكثر من هذا لاتضح لنا أنه يتجاوز عتبة الوثنية ويدخل فى تناقض مع المبادىء الأساسية للدين الاسلامى .

الا أن الهوة التى تفصل بين هذين النوعين من السحر أخذت تتضاءل بمرور الأيام . وسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد .

يدور السحر الرسمى أساسا حول الدراسة التقليدية والبحث فى الله ، وعرشه ، وخدمه ، وما يرضيه وما يغضبه ... الخ وكذلك الملائكة والجن ، والخصائص السحرية للحروف ، والأعداد وأسماء الله ، النباتات ، والحيوانات .... الخ . ثم تأتى فى مرتبة تالية على هذا التعاليم الخاصة باستخدام هذه العناصر السحرية ، وطرق نقل هذه الأسرار الى الأجيال التالية والمحافظة عليها . ثم تلى ذلك الأغراض التى يمكن استخدام هذه العناصر السحرية فيها .

أما السحر الشعبى فيدور أساسا حول الممارسة العملية ولا تحتل العناصر النظرية — التى كانت تشغل مكانة بارزة فى السحر الرسمى — سوى مرتبة ثانوية فقط . ونجد بعض الموضوعات التى كانت تعالج فى السحر الرسمى بمنتهى العناية والاسهاب لا تتمتع هنا الا بأهمية ضئيلة والعكس بالعكس .

وترجع هذه الحقيقة الى وجه الاختلاف الثالث الذى أشرنا اليه . اذ لما كان للسحر الرسمى أساسا تراثا مكتوبا ، لا يتناقل ولا يحفظ الا فى الكتب ، نجده أكثر تأثرا بالتراث الحضارى المكتوب عادة وتأتى فى مقدمة هذه الكتب : تلك المؤلفات التى نقلت الى اللغة العربية من اللغتين العبرية والسوريانية وتحتوى هذه الكتب — بشكل واضح كل الوضوح — الى جانب العناصر العبرية والسوريانية ، عناصر بابلية ،

وأشورية ، واغريقية • ومن المؤلفات ذات التأثير الهام فى هذا الصدد أيضا : الكتب العربية فى فجر الاسلام •

أما السحر الشعبى فيقوم أساسا على المعتقد وعلى الخبرات المكتسبة التى يتم تواترها وحفظها شفاهة فى المقام الأول • ولهذا نرى هذا الميدان أكثر تأثرا بالتراث الشفاهى المتوافر فى المجتمع المصرى • وأبرز عناصر هذا التراث : البقايا المصرية القديمة ، والمسيحية القديمة والاسلامية الأولى ، التى نقلت الى مصر على يد القبائل التى هاجرت اليها بعد الفتح العربى • وقد استوطنت هذه القبائل فيما بعد بعض أقاليم مصر • فقربت الى المصريين من خلال ذلك التراث العربى القديم والاسلامى الأول •

علينا بعد ذلك أن نذكر بكلمة سريعة اختلاف مدى حاجة الشخص الممارس فى كل نوع من نوعى السحر • ذكرنا أن السحر الشعبى يعتمد على خبرة عامة عميقة الأسس • ويمارس السحر الشعبى من قبل كل فرد فى المجتمع فى كل مناسبة من المناسبات • أما السحر الرسمى فيقوم على معارف متخصصة ذات أساس « علمى » • ولا يذهب الشخص للساحر الرسمى الا اذا كان السحر الشعبى قد أخفق فى تحقيق النجاح المطلوب أو اذا قدر صاحب الحاجة بادىء ذى بدء أن الهدف المنشود عظيم الأهمية بحيث أن الخبرات الضعيفة المحدودة للسحر الشعبى لن تيسر الوصول اليه • ونذكر كمثال للحالة الأولى السيدة التى تريد انجاب أطفال • فهى تسعى فى أول الأمر الى أن تعالج نفسها وزوجها بواسطة الطرق المعروفة • وهى تستعين فى ذلك بخبرات الأقارب والجارات • فاذا ما أخفق كل هذا ، لجأت الى الساحر الرسمى • وبذلك يبدأ السحر الرسمى • ثم نذكر كمثال للحالة الثانية الرجل الذى يريد القضاء على جاره لأى سبب من الأسباب • فهو يرى منذ البداية أن

خبراته أضعف من تحقيق هذه الرغبة . ولذلك يتجه الى الساحر الرسمى مباشرة .

ويسوق المؤلف المثال التالى لزيادة توضيح الفرق بين السحر الرسمى والسحر الشعبى . ويمس بهذه المناسبة بابا هاما وكبيرا من أبواب السحر الشعبى ، وأعنى « عفريت الليل » . اذ يفسر هذا العفريت فى رأى المعتقد الشعبى :

(أ) على أنه روح ميت . فاذا مات انسان فى حادث نشأ « من دمه » عفريت . وتتخذ هذه العفاريت عادة أشكالا معينة ، كما أنها تظهر فى أماكن معينة . وتستطيع أرواح الموتى أن تتدخل فى الحياة متخذة صورة عفريت ، وذلك لتأدية مهمة معينة . من هذا مثلا أن تظهر روح ولى فى صورة حيوان رهيب لمعاقبة من حقر من شأن الولى أو أهان مقبرته .

(ب) كما قد يفسر على أنه جن . وهذه اما جان طيبة أو جان شريرة . وتتخذ الجان الطيبة أحيانا هيئة الثعبان أو القطة ... الخ . وتكون مهمتها غالبا حماية مكان معين أو الحرص على معاملة الانسان للأرواح السفلية معاملة طيبة ، أما مهمة الجان الشريرة فهى الحاق الضرر بالانسان والحيوان .

(جـ) وقد تفسر عفاريت الليل على أنها أرواح مختلفة ، لها شروط معينة لم تتحقق . من هذا مثلا روح أحد التوائم التى تظل تحوم فى المنطقة على هيئة قطة حتى يعطى لهذا الطفل لبن ناقه ليشربه .

وتتخذ هذه العفاريت عادة أشكالا مختلفة وتسكن غالبا تحت الأرض ، وفى النار ، وفى الآبار ، وفى الخرائب وفى الأفران ، وفى المقابر .

وبصفة عامة فى الأماكن المظلمة ، والصحراء التى تحيط بكثير من قرى الصعيد .

ويتضمن المعتقد الشعبى تفاصيل دقيقة عن أصول التعامل مع هذه العفاريت ، الأمر الذى لا يمكن أن نعرض له فى هذا المقام . بينما يحتل هذا الموضوع مكانة بارزة فى السحر الشعبى ، نجده يكاد لا يذكر فى كتب السحر الرسمى البحت . وهو لا يرد عند البونى الا فى موضع واحد فى كتاب شمس المعارف . حيث يقول : « حكى الأوزاعى رحمه الله تعالى قال : تخيل لى خيال فى الليل ، فجزعت منه . فقلت بسم الله الرحمن الرحيم . فقال لى : لقد استعذت بعظيم وانصرف عنى » (على صفحة ١٨٧ من الكتاب) .

ونعرض فى النهاية على عجل لعلاقة التفاعل بين هذين النوعين من السحر . فكل شيء فى هذا المجال خاضع للتغير . فازدادت بمرور الوقت صعوبة تبين الخصائص المميزة لكل نوع منهما ، وأخذت صورها تتلاحم، بل وتتداخل فى بعضها . ويجب ألا ننسى فى هذا الصدد أن حملة السحر الرسمى هم أبناء هذا المجتمع . ولدوا فيه وعاشوا فى اطاره ، فهم أنفسهم همزة وصل بين نوعى السحر . اذ يأخذون من السحر الرسمى خبرات ومعارف ينقلونها للشعب ، أثرت فى السحر الشعبى تأثيرا قويا . وهم بالعكس أيضا ينقلون عن السحر الشعبى الشيء الكثير يثرون به مؤلفاتهم ووصفاتهم فى السحر الرسمى .

ثم هناك عملية أخرى كان لها أعظم الأثر فى الفترة الأخيرة . فاذا نرى أنه لم يعد هناك نشء فى ميدان السحر الرسمى بمعناه الحقيقى ، وأن السحر قد فقد كثيرا من مكانته كمهنة (أنظر الدراسة الميدانية) وقد أدى هذا الي بذل جهود كثيرة لصبغ أفكار وخبرات السحر الشعبى

بطريقة التفكير المعروفة فى السحر الرسمى • ونتج عن ذلك مؤخرا حشد ضخم جدا من الكتب التى تحتوى فى جوهرها على تصورات وخبرات سحرية شعبية ، ولكنها مغلفة بمناهج وخبرات سحرية رسمية • وهى فى نفس الوقت وسيلة لتأكيدها وابراز مدى فاعليتها •

ولا ننسى هنا الدور الكبير الذى تلعبه بعض دور النشر المصرية فى هذا الصدد • فهى تحقق تجارة رابحة للغاية اذ لا تحتاج الى أكثر من طبع بضع فصول من كتاب أو عدة كتب سحرية • وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يعيد أحد الشيوخ كتابة هذه الفصول ، ولو أن هذه ليست هى القاعدة السائدة • كما يعاد اليوم طبع مؤلفات بأكملها ، كشمس المعارف الكبرى للبونى مثلا •

الباب الأول

الفصل الأول ــ تواتر الأسماء الالهية والعلوم السحرية بصفة عامة

يعرض هذا الفصل لكيفية تناقل المعرفة والخبرة السحرية من الأساتذة الى تلاميذهم عبر الأجيال ، وذلك طبعا من وجهة نظر الساحر الرسمى ، فهذا الفصل هو باختصار اجابة على السؤال الذى يقول : من هم أساتذة السحر الرسمى فى نظر المشتغل بهذا النوع من السحر ؟.

يرى الساحر الرسمى أن أسرار العلوم السحرية وبالتالى علم الأسماء لا يعرفها الا الله وحده ، وكل ما وصل الى علم الانسان منها انما هو جزء ضئيل من علم الله ، ولا شك أن هذه النظرة تدفعنا الى التساؤل: عن كيفية وصول هذه المعرفة السحرية الى الانسان ، وهناك لدى الساحر الرسمى احتمالان للاجابة على هذا السؤال : اما أن الله أوحى بهذه المعرفة أو جزء منها الى رسله ووصلت هذه المعرفة عن طريقهم الى أحفادهم وتلاميذهم ، أو أن الله يلهمها للخواص من الحكماء والفلاسفة والأولياء ، على أن هذا الاحتمال الثانى نادر ، أى أن الجانب الأكبر من هذه المعرفة الروحانية قد وصل الى الناس ــ عن طريق أنبياء الله أو المقربين اليهم ــ بطريقة ما من الطرق .

يوجد بين هذه الفئة عدد من الأشخاص الذين يرد ذكرهم فى كتب السحر ــ بما فى ذلك مؤلفات البونى ــ كثيرا على أنهم نقلة المعارف

السحرية . وهؤلاء هم : آدم ، والملاكان هاروت وماروت وادريس وسليمان ، وفلاسفة اليونان ، ومحمد وصحابته ، وعلى بن أبى طالب ، والخضر ، والحسن البصرى . هذا علاوة على زملاء البونى وأساتذته . وقد تناول الفصل كلا من هؤلاء بفقرة خاصة تتضمن تحليلا للمواضع التى ورد ذكر هذا الشخص فيها . من حيث نظرة السحرة الرسميين — وخاصة البونى — اليه والمجالات التى يعتبر متخصصا فيها . وأهمية حرص البونى وغيره على كسب التأييد لوصفات أو آراء سحرية معينة . والتدليل على صحتها وقوة فاعليتها من خلال نسبتها اليه . ونذكر هذه الفقرات بسرعة فى صورة رؤوس موضوعات :

١ — آدم :

وترجع أهميته فى هذا الصدد الى أنه كان أول انسان على الأرض. ويرى السحرة الرسميون أنه أول من بدأ استخدام المعرفة السحرية على الأرض . عرض للآيات القرآنية التى استخدمت للتدليل على ذلك : وعلم آدم الأسماء كلها .... الخ » . ورغم اختلاف المفسرين على المقصود بكلمة أسماء هنا ، فان السحرة يعتبرونها الأسماء السحرية بقدرتها المعروفة . وهدفهم من ذلك واضح ألا وهو التدليل على أن الله هو مصدر كل المعرفة السحرية . الأمر الذى يرفع من شأن هذه المهنة وأصحابها بين الناس واشارة الى الأصل التاريخى لهذا التصور عن آدم، أى كونه أول ساحر . مناقشة كيفية حصول آدم على هذه المعرفة . مناقشة مشكلة انتقال هذه المعرفة من آدم الى خلفه ، والعلوم السحرية التى برز فيهما آدم .

٢ ـ هاروت وماروت :

اشارة الى أهمية هذين الملاكين كمصدر للمعرفة السحرية ، وعدم ورودهما بهذه الخاصية فى كتب البونى ٠

٣ ـ ادريس :

مناقشة سريعة لشخصية ادريس فى التراث ٠ مناسبات ورود ذكره عند البونى ، انتقال المعرفة السحرية منه الى أسباطه الاثنى عشر ٠ ادريس هو عند البونى أبو السحر الرسمى ٠ مجالات تخصصه ٠ انتقال هذه المعرفة من أسباطه الى الأجيال التالية ٠

٤ ـ سليمان :

شخصيته فى المعتقد الشعبى كمسيطر على الجن ٠ شخصيته فى القرآن والتراث ٠ هل ترك سليمان تراثا مكتوبا يضم حكمته ٠ أستاذيته السحرية ٠ دور وزيره آصف برخيا فى نقل هذه المعرفة الى الأجيال التالية :

٥ ـ فلاسفة اليونان :

كان من الطبيعى أن تكون هناك مؤثرات اغريقية فى السحر الاسلامى ، كما كانت الثقافة الاغريقية كلها من المصادر الهامة للثقافة الاسلامية ٠ على أننا يجب أن نلاحظ فى هذا الصدد أن تصور السحر الرسمى العربى لعملية التأثير هذه يفتقر الى كل أساس موضوعى سليم٠

من الطبيعى أن يعتقد البونى وزملاؤه من المشتغلين بالسحر الرسمى بوجود علاقة بين هرمس (ادريس) وفلاسفة اليونان ٠ ذلك أن شخصية ادريس وان كانت ذات أصل عبرى الا أنها وصلت الى العرب بفضل وساطة الاغريق ٠ ولكن سرعان ما يتضح لنا بعد التحليل الدقيق

أنه لم يبق فى السحر العربى من الفلاسفة اليونانيين سوى الاسم فقط ـ تماما كما كان الوضع بالنسبة لهرمس • ذلك أن ذكرهم كأساتذة للسحر لم يكن له فى النهاية من هدف سوى محاولة اثبات أصالة وصدق هذا الكلام وكسب وزن له •

عرض الأسماء من ورد ذكرهم من الفلاسفة اليونانيين فى مؤلفات البونى ـ مع الألقاب التى كانت تضفى عليهم والعلوم السحرية التى تخصصوا فيها • البونى يبرر أستاذيتهم هذه بتلمذتهم على هرمس •وقد أغرق البونى فى هذا الاتجاه حتى أنه اعتبرهم أساتذة فى علم الأسماء وأن لهم مؤلفات بالعربية وعن الأسماء الحسنى ••• الخ • المؤلفات السحرية التى تركوها ، وورد ذكرها عند البونى • مصير معرفتهم السحرية فى رأيه •

٦ ـ محمد وصحابته :

حرص البونى على أن ينسب الى الرسول أستاذية فى معارف سحرية • سواء كان ذلك بسرد أشياء عنه مباشرة ، أو الاستعانة بأقواله وأفعاله فى تأكيد أشياء من هذا النوع • وملاحظة أن بعض كتب السيرة أيضا تنسب الى الرسول معارف وأفعال سحرية • أمثلة على هذا •

يلى ذلك عرض لنماذج من المواضع التى ورد فيها ذكر الرسول عند البونى •

ثم عرض للصحابة الذين ورد ذكرهم كأساتذة أو حجج فى بعض العلوم السحرية • وهو شىء طبيعى أن تنسب اليهم مثل هذه المعرفة السحرية ، فقد كانوا رفاقه الذين شاركوه كل أوقات حياته ، ووقفوا على آرائه فى كل مسائل الحياة الدنيا والآخرة •

ويتضح من تعمق حياة هذه الشخصيات أنها اما كانت واقعة تحت تأثير مباشر قوى من التراث العبرى مثل كعب الأحبار أو تأثير غير مباشر من هذا التراث مثل عبد الله بن عباس ، واما انها كانت تتميز باهتمام بدراسة للعالم الغيبى كعرش الله ، وكيان الملائكة ، وطريقة وحى القرآن كعبد الله بن عباس أيضا ، أو بدراسة بعض ميادين السحر والكهانة مثل عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كان يشتغل بالتطير .

تحليل للمواضع التى ورد فيها كل من : كعب الأحبار ، وهب بن منبه (كلاهما كان يهوديا وأسلم) وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن حارثة ، وعبد الرحمن بن عوف .... الخ .

٧ ـ على بن ابى طالب :

ظهور الاتجاه الشيعى للبونى فى كل كلمة وردت عنده عن على . عرض تحليلى مفصل ـ بالشواهد ـ لأهمية على فى علم الأسماء ، والعلوم السحرية عامة . وقد أخذ على ـ فى رأى السحر الرسمى ـ معارفه السحرية عن الرسول ، وعن الخضر .

انتقال هذه المعرفة من على الى من بعده عن طريق أولاده الثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وعن طريق ابن عباس وابن عمر .

٨ ـ الخضر :

تأثر دور الخضر فى السحر بما ورد فى أسطورته . عرض سريع لعناصر هذه الأسطورة . العلاقة بين الخضر والاسكندر الأكبر ، وبينه وبين موسى .

وصول معلومات الخضر الى أساتذة السحر الرسمى اما عن طريق على بن أبى طالب ، أو بواسطة روايات مباشرة .

٩ ـ شخصيات اخرى :

وليس أفراد هذه الفئة فى نظر البونى سحرة بالمعنى الصحيح ، ولكن وردت عنهم بعض الاشارات أو الفوائد السحرية . وكثيرا ما كان يصف تأثير الوصفة السحرية على هذا الشخص قبل أن يشرح تفاصيل الوصفة . ويعتبر مثل هذا الوصف دليلا على صحة وقوة تأثير مثل هذه الوصفة . وتتكون هذه الفئة من شخصيات اسلامية شهيرة كبعض الصحابة ، وكبار الفقهاء والعلماء ، والمتصوفة .... الخ ومن أهم أفراد هذه المجموعة : :

الحسن البصرى ، والغزالى ، وسعيد بن المسيب ، وأبو حنيفة .... الخ .

١٠ ـ زملاء البونى واساتذته :

وكان أساس هذا الفصل المادة التى وردت فى خاتمة كتاب شمس المعارف الكبرى عمن وصفوا بأنهم أساتذته ، وهى بعنوان : « خاتمة فى ذكر مشايخنا » . وكذلك الأشخاص الذين ورد ذكرهم خلال مؤلفاته على أنهم أساتذته أو مصدر معرفة سحرية معينة .

والمهم أن نقرر أن هذه الخاتمة فى ذكر المشايخ لا يمكن أن تكون من تأليف البونى نفسه . فجميع من ورد ذكرهم ـ باستثناء واحد فقط ـ ليسو بالقطع أساتذة للبونى لأسباب ورد البرهان عليها فى كل حالة فى نص البحث .

الفصل الثانى ـ شروط الاستخدام السحرى للأسماء

ويعرض هذا الفصل للعناصر الأساسية الهامة فى الاستخدام السحرى للاسماء الالهية • والهدف أن يوضح الفصل كيف يستطيع الساحر ـ فى زعمه ـ أن يحقق أثرا سحريا بواسطة هذه الأسماء • وتحتل هذه القواعد والشروط مكانة هامة فى مؤلفات البونى وما عداها من كتب السحر • ويناقش الفصل أهمية هذه الجوانب الطقوسية فى الممارسة السحرية بصفة عامة ، واهتمام المؤلفات السحرية بها •

١ ـ مكان الخلوة :

وصف هذا المكان الذى قد يتحتم على الساحر ـ أو مستخدم هذه الأسماء سحريا ـ أن يقضى فيه وقتا معينا •

٢ ـ اداء بعض الشعائر الاسلامية الرسمية :

فقد يطلب من المشتغل بالأسماء ذلك • ومن ذلك : التطهر ، والصلاة ، والزكاة ، والتوجه الى القبلة أثناء العمل ••• الخ •

٣ ـ الصيام :

فرض الصيام لمدة معينة اما قبل الدخول فى العمل أو أثناءه • مناقشة لتفسير ذلك من وجهة نظر السحر الرسمى • وقد يفرض على الساحر فى بعض الأحيان الصيام الجزئى أى أن يتجنب أصنافا وأطعمة معينة •

٤ ـ الملابس والتعطر :

الشروط الخاصة بالملابس بصفة عامة ، حيث لم ترد تفصيلات عن قطع معينة يتحتم ارتداءها أثناء العمل • وكذلك التعطر واستخدامه •

٥ ـ التركيز :

الذهنى والاخلاص فى الخلوة عموما وأثناء العمل بصفة خاصة • ويستعرض المؤلف فى هذه الفقرة تفصيلا بعض النصوص التى توضح مدى اهتمام البونى بهذه النقطة ، وحرصه على أن يؤمن الساحر نفسه بالعمل وتنيجته والا لما استطاع التأثير • تعليمات للتلميذ بألا يفقد صبره اذا ما غابت النتيجة التى ينتظرها الحث على التكرار والمثابرة •

٦ ـ **البخور** ، واختيار الوقت المناسب ، والاسم المناسب للعمل :

وقد أفرد فيما بعد فصل خاص للحديث عن اختيار الاسم المناسب•

٧ ـ استدعاء الملاك الموكل بالاسم :

وقد خصص لهذا الموضوع أيضا فصل مستقل فى الباب الثالث من البحث •

٨ ـ تنفيذ العمل السحرى نفسه :

وتعتبر هذه النقطة جوهر هذا الفصل • ويتم استخدام وسيلة واحدة من الوسائل التالية أو عدد منها أو تستخدم مجتمعة فى وقت واحد•

(أ) التلاوة : والمقصود تلاوة أسماء معينة ، أو حروفا ، أو آيات قرآنية ••• الخ عددا معينا من المرات • وقد تكون وحدة من هذه الأشياء وغيرها معا ، وتعرف فى هذه الحالة باسم « دعوة » مناقشة وأمثلة •

(ب) الكتابة : عرض مفصل للمواد التى يكتب عليها ، والتى يكتب بها • محو الكتابة بسائل وشربها ، التصرف فى المادة المكتوبة بالأكل ، أو الشرب ، أو الحمل ، أو التعليق فى الهواء أو الدفن ••• الخ •

(ج) التاثير بواسطة وسائل غير اسم الشخص المراد التاثير عليه :

ونذكر منها على سبيل المثال : أثر الشخص كملابسه وشعره ، وأظافره ... الخ • وصورته أو رسم له ، والكتابة على جسمه أو بعض أعضائه •

(د) وسائل اخرى : فضل المؤلف عرضها فى هذه الفقرة •

الفصل الثالث ـ اهداف الممارسة السحرية

ناقش المؤلف فى مطلع هذا الفصل أهم الدراسات السابقة فى هذا الموضوع • ونلاحظ فى موضوع الأهداف بصفة عامة أن السحرة على طول عصور التاريخ كانوا يحرصون على اشباع رغبات جمهورهم • ويبرهن لنا على ذلك أى مثال يمكن أن تتناوله • أما الناحية المورفولوجية الاجتماعية فينتمى هذا الجمهور غالبا للطبقات الدنيا •

مناقشة مسألة استخدام السحر لأهداف شريرة أو لأهداف خيرة من وجهة نظر الساحر الرسمى •

التدرج فى مستويات الأهداف ، اذ ليس بوسع كل ساحر أن يحقق جميع التأثيرات السحرية المطلوبة • وانما يتم ذلك على مراحل وتبعا لتدرجه فى سلك الولاية •

ملاحظات أولية عامة فى الأهداف : هناك بعض الوصفات التى يمكن أن تصلح لجميع الأغراض • كما أن جميع الأسماء الحسنى تستخدم لأغراض تتفق ومعناها ، مثل « الثابت » للتثبيت ، و « الهادى » للهداية ... الخ •

ولما كانت مؤلفات البونى ذات طابع سحرى رسمى واضح نجد أنها تضمن كثيرا من الوصفات التى تستهدف مساعدة المريد وشد أزره حتى يصل لمرتبة النضج والاكتمال ويقنع الناس بكفاءته . عرض مفصل بالأمثلة .

ثم أشار المؤلف لنوع الوصفات الذى يستهدف حماية الشخص من الآثار الضارة للسحر . وعرض أمثلة لبعض تلك الوصفات وناقشها .

وعرض بعد ذلك للأهداف الكلاسيكية للممارسات السحرية مدعمة بنماذج . ومنها على سبيل المثال . شفاء الأمراض ، تهدئة الغاضب ، وتأمين الخائف ، (اشارة لارتباط ذلك الوثيق بالظروف الاجتماعية) ، المسائل المتصلة بالحب والزواج ، ربط الزوج أو جعل المرأة عاقرا ، وشفاء ذلك ، استرضاء الحكام ، القضاء على الظالم أو على العدو ، ضد اللصوص وقطاع الطرق ولتأمين الثروات ... الخ ذلك من أهداف السحر .

ويختتم هذا الفصل ــ الطويل نسبيا ــ بالاشارة الى ظاهرة جديدة. اذ تحولت كتب السحر فى عشرات السنين الأخيرة ــ بعد أن فقد السحر الرسمى كثيرا من مكانته ، وأجدبت موارده ــ الى الاهتمام باحتياجات الشعب المباشرة . فيمكننا القول ــ تجاوزا ــ بأن هذه الكتب قد فقدت اليوم طابعها « الأكاديمى » ولم تعد أكثر من حشد من الوصفات التى يستطيع الساحر المحترف أن يلجأ اليها عندما يريد كتابة العلاج أو التصرف السليم للعميل . وقد عولجت هذه النقطة بوضوح فى التقرير الخاص بالدراسة الميدانية فى الملحق . ولذلك نجد جميع كتب السحر الحديثة الطبع تزود اليوم بفهرس تفصيلى للمحتويات . ويتضمن هذا الفهرس الأهداف التى يمكن أن تستخدم فيها المادة . وما على الساحر المحترف بعد ذلك الا أن يقلب فى هذا الفهرس ليبحث عن بغيته .

الباب الثاني

الاسم الأعظم

الفصل الأول ـ عموميات

جاء عند البونى أن علم الأسماء يتضمن ثلاثة أقسام رئيسية : أولها معرفة معنى الأسماء الحسنى التسعة والتسعين ، ومعرفة أسماء الهية أخرى خفية ، ومعرفة الاسم الأعظم .

ولذلك نجد أن عدد الأسماء الالهية لا يقع تحت حصر ، كما سنرى فيما بعد . ويقول أحد النصوص : « وأسماء الله تعالى بالنظر الى ما جاء منها فى الكتاب والسنة . والى ما اطلع عليه أهل الكشف .. كثيرة جدا تصل الى ثلاثمائة اسم وقيل الى ستة آلاف » .

عرض ومناقشة نص تفصيلى عن مستويات المعرفة بهذه الأسماء ومراتب العارفين بها .

ويتناول هذا الباب جميع الأسماء الالهية عدا الأسماء الحسنى التى خصص لها الباب الثالث من الرسالة .

وليست هذه الأسماء كما سنرى فيما بعد أسماء ثابتة محددة ومعروفة . وانما هى أشياء ذات طبائع مختلفة ، توصف بأنها « اسم أعظم » . وقد وردت فى الحديث الصحيح عدة أحاديث حول الاسم الأعظم . وقد جاء فى أحدها أنه عبارة عن آيتين من القرآن ، وفى آخر أنه عدة أسماء حسنى ... الخ . ولذلك استباح الساحر الرسمى لنفسه

حرية كبيرة فى هذا المجال لوصف أشياء متعددة بأنها اسم أعظم ، أو ابتكار أسماء جديدة .

والمهم هنا الذى يجب أن نقرره فى البداية أن جميع الأسـماء ، والأشكال ، والعلامات والدعوات الغريبة توصف بأنها اسم أعظم . ويرجع هذا الى سببين : أولهما الاعتقاد المعروف فى السحر الاسلامى وغير الاسلامى الذى يعتبر الأشياء الغريبة غير المفهومة ذات تأثير قوى بصفة خاصة . يلى ذلك مناقشة مفصلة لهذه النقطة . ثانيهما أنه لايمكن وصف هذه الأشياء ــ كاسم الله العبرى أو أحد الأشكال ــ بأنها أسماء حسنى . فهذه الأسماء من ناحية محددة ، ثم معروف أنها أوصاف لله ، مما يضع للاختراع فى هذا الميدان حدودا .

الاشارة الى فارق أساسى بين الاسم الأعظم ، وأسماء الله الحسنى . اذ نجد فى كتب السحر أن محور الحديث عنها هو استخدامها : أى اختيار الاسم المناسب ، وعمل الأوفاق الخاصة به ، وكيفية معاملة « الخادم » الموكل به ... الخ . على حين تتركز معالجة الاسم الأعظم فى سرد قصة اكتشافه . ذلك أن طريقة اكتشافه تساهم فى تأكيد وتوضيح فاعليته .

تصنيف لهذه الحكايات الخاصة باكتشاف الاسم الأعظم :

١ ــ الحصول عليها من الأستاذ .

٢ ــ الوحى بها الى الساحر فى الخلوة .

٣ ــ الوحى بها فى الخلوة على يد شخص معين معروف . كالخضر وعلى بن أبى طالب .

٤ ــ الوحى الالهى بواسطة جبريل . وهو قاصر على الأنبياء .

الفصل الثانى ــ تكوين الاسم الاعظم من اسماء حسنى

وقد عرض هذا الفصل للأسماء الحسنى التى قيل عنها أنهـا هى الاسم الأعظم • وتنقسم الى الفئات التالية :

١ ــ اسم الجلالة (الله)

٢ ــ الأسماء الحسنى التى وردت فى القرآن على لســان بعض النبيين •

٣ــ أسماء تكتسب أهميتها من كونها تحتوى على حرف أو أكثر من حروف الاسم الأعظم •

٤ ــ أسماء حسنى « عادية » وصنفت أثناء شرحهـا فى مؤلفات البونى بأنها « اسم أعظم » •

٥ ــ مجموعة من الأسماء الحسنى تكون مجتمعة الاســم الأعظم لا تصادفها بخاصية مشتركة •

٦ ــ أسماء حسنى اعتبرت اسما أعظما بسبب قيمتهـا العـددية الخاصة •

الفصل الثالث ــ تكوين الاسم الأعظم من حروف وآيات قرآنية

١ ــ الحروف :

تصنيف للحروف التى وصفت بأنها اسم أعظم وهى :

(أ) سواقط الفاتحة •

(ب) الأحرف النورانية (فواتح السور) وهى ١٤ حرفا وردت فى مفتتح ٢٩ سورة فى القرآن •

(جـ) حروف لها صفات خاصة •

٢ ــ الآيات :

وتتناول هذه الفقرة كذلك تصنيف الآيات التى وصفت بهذه الصفة مع تحليل للمواضع التى وردت بها عند البونى •

الفصل الرابع ـ تكوين الاسم الأعظم من أسماء سوريانية وعبرية

ليس من الممكن أن يستوفى فصل كهذا جميع الشواهد الواردة فى هذا الموضوع ، فهو أمر يحتاج الى دراسة مستقلة ، ولذلك حرص المؤلف على بيان السمات العامة للموضوع ، بحيث يمهد الطريق لدراسات أوسع فى المستقبل .

والمعروف أن الكتابة السوريانية والعبرية قد ورد ذكرها كثيرا فى كتب السحر الاسلامية ، ولكن يندر أن تكون سوريانية وعبرية فعلا ، فالسوريانية والعبرية فى رأى الانسان العربى تعبير عما هو قديم وغامض ملىء بالأسرار ، ولذلك ترد فى كثير من المواضع فى المؤلفات البونية عبارات : « الحروف الالهية ، والدعوات السوريانية والأسماء العبرانية » جنبا الى جنب ، بل قيل ان الاسم الأعظم مكتوب باللغة الحميرية ، والفارسية ، ويبرر البونى ذلك فى بعض الأحيان قائلا : « لكى لا يفهمه أحد » .

اولا ـ من اسماء سوريانية :

تفاوت الأشياء التى وصفت بأنها سوريانية ، منها اسم الجلالة « الله » ، أسماء أخرى ، بلغة يقال انها سوريانية : مثل « تجبر جيوشا » ، أما أهم ماوصف فى المؤلفات البونية بأنه اسم الله الأعظم فهى قصيدة « الجلجلوتية » الشهيرة ، تحليل لها ولمكوناتها .

ثانيا ـ من اسماء عبرية :

وأهم ما وصف بهذه الصفة فى المؤلفات وكتب السحر على الاطلاق الصيغة العبرية : « أهيا شراهيا أدوناى أصباؤت آل شداى » ، أسماء أخرى كتلك التى دعا بها موسى الله على جبل سيناء ،، والأسماء التى

نطقها يوسف ، كما تتمتع أسماء أم موسى بقيمة عملية كبيرة فى هـذا الصدد ، والأسماء التى كانت مكتوبة على بساط سليمان ... الخ ، من العبارات والصيغ التى تنسب الى شخصيات عبرانية .

وهناك دعوة هامة وصفت أيضا بأنها اسم أعظم هى « البرهتية » . وقد عولجت بتفصيل كبير فى كتاب « أصول الحكمة » المنسوب للبونى . عرض لنماذج منها ومناقشة .

الفصل الخامس ــ تكوين الاسم الأعظم من اشكال وتعاويذ معينة وكخاتم سليمان

وهو اما أن توصف هذه الأشياء بأنها اسم الله الأعظم ، أو أنها تحتوى على الاسم الأعظم . ملاحظة على توزيع هذه الأشكال على مختلف أجزاء الكتاب . اذ تتركز مثل هذه التعاويذ فى القسم الأول من الكتاب ، وبينما تتركز الأشكال والحروف فى أواخر القسم الثانى وأوائل القسم الثالث . ويؤيد هذا علاوة على ذلك ما سبق أن أشرنا اليه من أن الكتاب لا يمكن أن يكون كله من تأليف شخص واحد .

١ ــ وصف تعويذة أو عدة تعاويذ بأنها الاسم الأعظم . وتتميز هذه التعاويذ (الأدعية) بأن المخاطب هو الله ، على خلاف الأنواع التى سبق الاشارة اليها فى موضع سابق والمخاطب فيها هو الملائكة والأرواح العلوية والسفلية . وقد عرضت الفقرة مع التحليل لأهم أنواع هـذه التعاويذ :

(أ) أدعية صوفية .

(ب) أدعية دينية عادية .

(جـ) أدعية سحرية بالمعنى الحقيقى .

٢ ـ وصف رسم أو أكثر بأنه الاسم الأعظم : وترسم هـــــذه الأشكال أساسا لتحقيق تأثير سحرى معين . وتسمى فى النص السحرى : « اسم » أو « أسماء » . وعرضت الفقرة بالوصف والتحليل لأهم أنواع هذه الرسوم التى وصفت عند البونى بأنها « أسماء » وهى :

(أ) الأسماء التى كانت مكتوبة على عصا موسى .

(ب) الأسماء التى كانت مكتوبة على قميص يوسف .

(جـ) خاتم سليمان والحروف .

(د) دائرة الاحاطة .

٣ ـ الاسم الأعظم عبارة عن مركب من الرسم والتعويذة :

وهناك صور متعددة لهذا النوع الواسع الانتشار . وهو يستمد سعة انتشاره أساسا من قوة تأثيره لأنه يجمع بين أكثر من عنصر سحرى . ومبدأ حشد عناصر سحرية متعددة فى عمل واحد لزيادة التأثير السحرى ظاهرة معروفة فى كل المؤلفات السحرية وفى المؤلفـات البونية على وجه الخصوص .

٤ ـ صيغ أخرى توصف بأنها الاسم الأعظم : وهى صيـــغ أو نصوص ذات أهمية دينية عامة ، توصف باقتضاب بأنها اسم الله الأعظم ومنها مثلا « الشهادة » أو « الآذان » .

الباب الثالث

الأسماء الحسنى التسعة والتسعون

الفصل الأول ـ مشكلة العدد والتصنيف

عرض الفصل للتسعة والتسعون اسما حسب أشهر روايات الحديث، مع مناقشة سريعة لأهميتها الدينية الرسمية ، ثم انتقل المؤلف بعد ذلك الى التركيز على دراسة المواضع التى وردت فيها هذه الأسماء عند البونى : كقائمة واحدة ، أو دراسة كل واحد منها على حدة ، أو دراسة اثنين أو ثلاثة منها أو عشرة فى مجموعة واحدة تعرف عند البونى باسم « نمط » . ويؤثر كل نمط من هؤلاء كوحدة يستخدم ككل وبطريقة معينة .

اتضح بعد دراسة هذه المواضع أن البونى لا يقيد نفسه بعدد التسعة والتسعين ، وان كان يردده ويستخدمه . فيضيف اليها أسماء ليست داخله فى قوائم الترمذى وابن ماجه . بل اتضح أن بعض المخطوطات المنسوبة الى البونى تحتوى على أسماء حسنى لم ترد لا فى « شمس المعارف الكبرى » ولا فى « أصول الحكمة » .

ظاهرة اشتهار بعض هذه الأسماء أكثر من غيرها ، واجماع الكتاب السحريين على أهميتها وقوة تأثيرها . ثم استعرض المؤلف بعد ذلك محاولات البونى لتحديد الاسم المكمل للمائة . وختم الفصل بالمحاولات الأخرى لتصنيف الأسماء الحسنى عدا طريقة الأنماط .

الفصل الثانى ـ اختيار الاسم المناسب

تحتم الكثرة الهائلة فى الأسماء الحسنى أن تكون هناك طريقة أو طرق تيسر للساحر اختيار الاسم المناسب للعمل الذى ينوى أداءه . فليس من الصحيح أن يلجأ الساحر من نفسه الى اختيار أى اسم دون أن يأخذ فى اعتباره عناصر العملية السحرية الأخرى ، مناقشة البونى لهذه النقطة .

عرض مفصل لقواعد اختيار الاسم المناسب :

١ ـ أن يتطابق الاسم والرغبة لفظيا مثلا القوى للقوة . وقد يستغنى عن هذه القاعدة . ويكتفى بالتطابق بين الحرف الأول من الاسم والحرف الأول من الرغبة . وهذه طريقة أخرى لتوحيد الاسم بالرغبة .

٢ ـ معرفة الوقت المناسب لاستخدام الاسم . فلكل اسم من الأسماء الحسنى وقت معين يجب أن يستخدم فيه . ويتوقف تحديد هذا الوقت على عاملين :

(أ) طبيعة الوقت نفسه ان كان سعيدا أو نحيسا .

(ب) طبيعة ومزاج الملاك الموكل بالاسم .

٣ ـ اختيار الساحر لاسم من الأسماء الحسنى يتفق واسمه الشخصى .

٤ ـ الاتفاق فى القيمة العددية بين الاسمين : اسم الله واسم الساحر .

٥ ـ اختيار الاسم الذى يتفق ومهنة الذى سيعمل له العمل أمثلة .

٦ ـ توقف الاسم المناسب على المركز الاجتماعى للذاكر .

٧ ـ قواعد أخرى .

وقد اختتم هذا الفصل بعرض عشرة أسماء حسنى موضحة بخصائصها ، لتوضيح عملية اختيار الاسم بالنسبة للساحر . وقد أثبتت امام كل اسم البيانات التالية :

١ ـ استخداماته .

٢ ـ الوقت المناسب لاستخدامه .

٣ ـ أسماء الأشخاص التى يناسبها .

٤ ـ المهن التى تناسبه .

٥ ـ الأسماء الالهية الأخرى التى لها نفس قيمته العددية .

٦ ـ الجدول المناسب له .

وعلى أساس هذه البيانات يختار الساحر الاسم الذى يناسب جميع ظروف الموقف .

الفصل الثالث ـ عمل الأوفاق للاسم الذى وقع عليه الاختيار

أهمية « الوفق » (المرجع أو الشكل) كعنصر هام فى العملية السحرية واستعراض أهم العناصر التى يمكن ملء خانات الوفق (المربع) بهـا :

١ ـ القيمة العددية لحروف الاسم أو الأسماء المستخدمة .

٢ ـ حروف الاسم ، وحروف أخرى .

٣ ـ أسماء الهية كاملة .

٤ ـ آيات قرآنية ، خاصة تلك التى تتفق واسم الشخص أو هدف العملية .

٥ ــ أشكال ورسوم .

٦ ــ عناصر أخرى .

ثم عرض الفصل بعد ذلك بالتفصيل لنماذج لهذه الأنواع . نوقشت محتوياتها ، ونشرت صور لها لزيادة الايضاح . وذلك على خمسة عشر صفحة من صفحات الرسالة .

الفصل الرابع ــ الملائكة الموكلين بالأسماء

يرى السحر الرسمى أن لكل مخلوق ملاك موكل به . ولكل اسم من أسماء الله خادم موكل به ، كما أن هناك خادم لكل آية قرآنية وكل حرف ، بل وكل تعويذة (دعوة) . وليست الملائكة والخدام قاصرة فقط على هذه الأشياء المقدسة . وانما هناك أيضا خادم لكل يوم ، وكل ساعة، وكل فصل من فصـــول السنة ، وكل نوع من الرياح ، وكل اتجاه من الاتجاهات الأربعة ... الخ .

عرض لتصنيفات هؤلاء الملائكة والخدام عند البونى (مثلا : تبعا لميدان عملهم ، أو مكان اقامتهم ... الخ) .

يلى ذلك عرض ومناقشة لتصور البونى لحيـــــاة هؤلاء الملائكة والخدام :

الشكل الاجتماعى ــ الأسماء ــ معتقداتهم ــ لغاتهم ... الخ .

ثم عرض مفصل لكيفية وقواعد تعامل الساحر مع هؤلاء «الخدام» أثناء أدائه لعمله . وذلك على أساس تحليل دقيق لأحد النصـــوص التى

تحكى مواجهة بين الساحر وخادم اسم « الله » كما يحكيها البونى • مع الاستفادة طبعا من الشواهد التى وردت فى مواضع الكتاب الأخرى • وقد ركزت الدراسة على النقاط التالية :

١ ــ أهمية القيمة العددية للاسم الالهى ، واستخداماتها المختلفة•

٢ ــ اسم الملاك الموكل بالاسم الالهى يتم تكوينه من القيمة العددية لهذا الاسم الالهى •

٣ ــ شروط الملاك قبل أن ينزل للساحر •

٤ ــ أهمية « الحصن » الذى يتلوه الساحر فى الأعمال الخاصة القوية التأثير •

٥ ــ لحظة اللقاء بين « الخادم » والساحر •• الاستعداد لها ، وسيرها ، والاختبارات التى يجريها الخادم للساحر قبل أن ينزل اليه ••• الخ •

٦ ــ صرف الخادم بعد انتهاء العمل ، والا تعرض الساحر للضرر•

الملحق الأول

ترجمة الكتاب السحرى المصرى : الكواكب اللماعة

ويتضمن هذا الملحق ترجمة كتاب « الكواكب اللماعة فى تسخير ملوك الجن والساعة » من تأليف سيدى عبد الله المغاورى • وقد اقتنى المستشرق الألمانى الأشهر « هفننج » Heffening هذا الكتاب ،

ضمن مجموعة أخرى من الكتب السحرية الهامة لمكتبة جامعة بون فى عام ١٩١٧ •

وتضمنت الترجمة عرضا لفهرس الكتاب • ثم ترجمة دقيقة مزودة بهوامش غنية لشرح غوامض النص ، وابراز نواحى التطور والتحول التى طرأت لما رأيناه من الممارسة السحرية عند البونى • ويعتبر هـــذا أول تحقيق ــ فيما أعلم ــ يصدر بأى لغة لكتاب سحرى من وجهـــة نظر الممارسة الفعلية والظروف الاجتماعية التى يعيش فيها النص ، لاعتبارات لغوية أو فقهية •

وتضمنت الترجمة علاوة على الشروح والتعليقات تصـــويرا لكل الأشكال والمربعات التى جاءت فى الكتاب حتى تكتمل الفائدة من الترجمة •

ويقع هذا الكتيب السحرى فى الأصل فى حوالى ٦٥ صـــفحة من القطع الصغير ، ويتكون من مقدمه و ٧٧ فصلا أو فائدة سحرية يسميها أهل السحر « أبواب » ومفردها « باب » •

وقد سلفت الاشارة الى أن الملحق بشطريه الأول والثانى يستهدف فى المقام الأول عرض معالم الممارسة السحرية فى مصر المعاصرة • وما من شك فى أن وضوح هذه الصورة يمكننا ــ الى جانب ما عرفناه عـــن البونى وسحره ــ من تحديد بعض الاتجاهات التى يسير فيها التغير فى هذا الميدان الهام من ميادين المعتقدات الشعبية • ويحفز فى نفس الوقت الى استكمال هذا الخط بمزيد من البحوث التى تعنى بالجوانب الأخرى للممارسة السحرية فى مجتمعنا المصرى •

الملحق الثانى

تقرير عن الدراسة الميدانية التى اجريت على السحرة وتتضمن ترجمة بعض الاحجبة ــ غير المطبوعة ــ المختلفة التى عملت للباحث خصيصا

وقد أجريت هذه الدراسة الميدانية أصلا على عدد كبير ــ نسبيا ــ من السحرة ، اختار المؤلف منهم للنشر فى الرسالة أربعة فقط . وذلك مراعاة لحجم الرسالة ورغبة فى عدم تضخيمها بشكل غير عادى ، وبناء على رأى الأساتذة المشرفين الذين رأوا فى النماذج الأربعة المنشورة التعبير الكافى عن مستويات متباينة . حتى يتم فى المستقبل حصر أوسع فى ضوء خطة مسح شامل تنفذها فيما بعد احدى الهيئات العلمية المصرية المعنية بهذا الحقل من الدراسات ، على نحو ما أوضح المؤلف فى مقدمة هــذا الملحق .

والساحر الأول من مدينة ههيا شرقية . وهو واحد من السحرة الأحياء القلائل الذين يمارسون السحر الرسمى كمهنة بمعنى الكلمة . وسوف نرى فيما بعد أن هناك ساحرا محترفا آخر من شمال الدلتا يعتمد أساسا ــ ان لم يكن بشكل كامل ــ على الآيات القرآنية فى أعماله . وكل ما بقى عنده من التراث السحرى الرسمى هو : استخدام الآيات التى تتفق والهدف المنشود كما رأينا عند البونى من قبل ، واستخدام اسم العميل واسم أمه . وشكل العمل نفسه أى الحجاب ، والأمر بحمله. ومن الجدير بالملاحظة هنا أنه لا يعرف المربعات (الجداول) السحرية على الاطلاق . كما أنه لا يستخدم الحروف ، والأعداد .. الى آخر العناصر السحرية المعروفة . وهو يخاطب فى تعاويذه الله ، لا الملائكة ولا الأرواح.

ونلاحظ من ناحية أخرى أن الأفكار والتصورات السحرية « الكلاسيكية » لا تزال موجودة عن ساحر الصعيد وان كانت مشوشة وغير واضحة • ويملك هذا الرجل كتابا سحريا قديما نسبيا ، كما يعرف استخدام الأحجبة • وهو لازال يؤمن ايمانا قويا بفاعلية أعماله • ويعرف البخور ، والدور الذى يؤديه ، ويستخدم الحروف والآيات القرآنية • والعجيب فى هذا الرجل أنه لا يعرف استخدام اسم العميل فى الحجاب أو فى أى مراحل العملية كما أنه لايعرف بعض العناصر السحرية الهامة الأخرى • كعنصر الوقت مثلا •

ومن النماذج الأخرى الممثلة لهذه المجموعة من السحرة ، الساحر الثانى من شرق الدلتا ، فلديه هو الآخر فكرة عن السحر « العلمى » وان لم يعد لديه الآن سوى تصورات غامضة غير واضحة • وربما يرجع ذلك الى أنه قد نسى بعضها بمرور الوقت ، أو الى قلة عدد المترددين عليه حاليا بشكل ملحوظ • وهو يحاول كساحر من الدرجة الأولى — عاهد نفسه على التوبة — أن يبعد عن استخدام العناصر السحرية الحقيقية • ويعتمد بدلا من ذلك على الآيات القرآنية • ومن المهم فى حالته أنه لازال يستخدم الأشكال السحرية ، واسم العميل ، كما يعرف الحجاب ، كما هو الشأن بالنسبة لجميع السحرة الذين أجريت عليهم الدراسة •

اولا — الساحر الاول من شرق الدلتا :

سبق أن أشرنا الى أنه يمثل الساحر الرسمى المحترف بمعناه الحقيقى • وقد لاحظنا أن لديه فكرة عن كل العناصر السحرية ، خاصة تلك التى نعرفها من المؤلفات البونية • وان كان يخلطها فى أغلب الأحيان بخيال كثير ، أو هو يبتكر فيها ان صح هذا التعبير • وهو الساحر الذى جمع عنه الباحث أكبر قدر من المعلومات • عرض مفصل لطرق جمع المادة عنه وتعامل الباحث معه •

معلومات عن شخصه :

معلومات شخصية • أعماله الرئيسية والثانوية • ظروفه الأسرية • عرض لتاريخ حياته والأعمال التى اشتغل بها • والمصادر التى اكتسب منها ثقافته • ظروف اتجاهه الى ممارسة السحر كمهنة • المكيفات والمخدرات التى يتعاطاها • تأثير ذلك على ظروفه المالية بالنظر الى دخله المرتفع •

معلومات عن عمله :

مصادر ثقافته السحرية ، وظروف بدئه وممارسة هذا العمل • فكرة عن أسعار الخدمات التى يؤديها • علاقاته بزملائه من المشتغلين بالسحر • السورة التى يشتغل بها والخدام الذين يتعامل معهم وعلاقته بهم • استخدام وسيط فى البداية فى تعامله معهم ثم اقلاعه عن ذلك فيما بعد • هل يعمل للخير فقط أم للخير وللشر معا • المكان الذى يمارس فيه عمله • وهل يخرج للعمل فى قرى خارج مدينته ، حيث يتمتع بشهرة واسعة • مدى الرواج فى عمله • وظروف هذا العمل وقت اجراء الدراسة •

المشكلات التى طلب منه العمل على حلها :

الحالة الاولى :

سيدة لا تنجب أطفالا ، ويريد زوجها أن يطلقها لهذا السبب •

الحالة الثانية :

رجل موجود حاليا فى السجن • ولم يصدر ضده أى حكم بعد • ومطلوب أن يفرج عنه •

وكان الدافع الى طرح المشكلة الأولى هو التعرف على تصرف الساحر فى هذا الموقف « الكلاسيكى » بالنسبة لعملاء السحرة • فهو من أشهر أغراض الممارسة السحرية قديما وحديثا • وهو لم يفقد مع

تغير الظروف الاجتماعية كثيرا من أهميته ومن حيويته • وكان من أهم النقط التي يراد استكشافها من خلال ذلك : ترى هل يعالج ساحر اليوم المشكلة القديمة الجديدة بوسائل وعناصر جديدة أم قديمة ، أم بخليط من القديم والجديد والى أى مدى ؟

أما سبب عرض الحالة الثانية فهو التعرف على موقف الساحر من نوع من القضايا كان كثير التردد على السحرة فى الماضى بسبب ظروف الحكم والدولة فى حينه ، ولكنه أصبح اليوم شديد الندرة بسبب انضباط كل شئون الحياة وخضوع كل جوانبها ودقائقها لقوانين تنظم علاقات الناس • فانعدمت بذلك الى حد كبير غيبة النظام الذى تخضع له هذه العلاقات •

وأيد ذلك ــ فى حالة هذا الساحر ، وفى المحـاولات الأخرى مع غيره ــ عزوفه عن الاشارة الى هذا الموضوع أو تناوله من قريب أو بعيد • فهو تسليم بخروج سلطة الدولة بنظامها المحكم الدقيق المعروف فى نفس الوقت لجميع الناس ــ عن نطاق تخصصه وقدرته على التأثير •

وبعد عرض الحالتين تناول التقرير بالتفصيل سرد كل ما تم مع الرجل من نقاش ومن خطوات ، هدفها التعرف على مستواه السحرى « الفنى » وملابسات أدائه لعمله •

ثم عرض التقرير بالتسجيل الدقيق (ترجمة النصوص ، وتصوير الأصل) للعلاج الذى أشار به صاحبنا • وهو باختصار (وكله للحالة الأولى فقط) :

ــ أوراق للشرب (غمسها فى الماء حتى تذوب الكتابة ثم شرب المحلول) •

ـ أوراق للاستحمام .

ـ أوراق يتبخر بها .

ـ تحويطة لمدة شهر (حتى يتم انجاز التحويطة الدائمة) .

ـ تحويطة دائمة (الهدف من التحويطة هو حماية جسم المريضة من دخول أرواح شريرة جديدة اليه ، بعد ما سيؤدى العلاج السابق ذكره الى طرد الأرواح الموجودة فيه والتى تتسبب فى حالة العقم هذه) .

ثانيا ـ ساحر شمال الدلتا (من قرية شرباص مركز فارسكور)

ثالثا ـ الساحر الثانى من شرق الدلتا (من مدينة ههيا)

رابعا ـ ساحر الصعيد (من قرية بنى حرام مركز ديروط) .

وقد عرض المؤلف المادة الخاصة بهم وفق نفس الهيكل الذى اتبع فى دراسة الساحر الأول الذى فصلنا الحديث عنه بعض الشىء على سبيل المثال .

كلمـة ختـامية

نتائج البحث

حاول هـذا البحث أن يعرض بأكبر قدر ممكن من التفصيل للموضوع المطروح على أساس المصادر المصرية الاسلامية ٠ وكان الهدف الأول للبحث عرض الأفكار السحرية « العلميـة » (الرسمية) والواقع السحرى الراهن انطلاقا من المؤلفات البونية ٠ وعلاوة على هـذا حرص الباحث قدر الطاقة أن يلقى مزيدا من الضوء على التغير الجارى فى عالم السحر ، اعتقادا وممارسة ٠ ويستهدف ملحق الرسالة عرض « لقطـة فوتوغرافية » للعلوم والممارسة السحرية فى مصر المعاصرة ٠

وقد أمكن من خلال ذلك التوصل الى النتائج التالية :

طبقا لمـا توصل اليه الفصل التمهيدى من نتائج سيكون علينا فى المستقبل أن ننظر الى المؤلفات السحرية بعين أكثر تدقيقا مما كان عليـه الحال حتى الآن ٠ هذا وكانت تعتبر المؤلفات التى تحمـل اسم البونى ـ حتى الآن ـ من تأليفه فعلا ٠ وليس هذا فقط عند دوتيه **Doutté** وفينكلر **Winkler** فقط ، وانما فى دراسـات ماكدونالد **Macdonald** فى دائرة المعارف الاسلامية (قارن فى تلك الموسوعة مواد « بدوح » ، و « سحر » ٠٠٠٠ الخ) وفى غيرها من المؤلفات الحـديثة فى الموضـوع (كدراسات « كريس **Kriss** »وتوفى فهد« **Toufy Fahd** وغيرهم ٠٠) وعلينا الآن أن نتبنى هذه النظرة النقدية الفاحصة فى دراسـة المؤلفـات السحرية الهامة الأخرى التى تنسب للسحرة الكبار الآخرين ٠ ولن يمكن قبل اجراء مثل هذه الدراسات أن تقال الكلمـة الأخـيرة فى السـحر الاسلامى المصرى ٠

كما عبر الباحث عن أمله فى أن تكون الدراسة قد نجحت فى توضيح الفرق بين السحر الشعبى والسحر الرسمى بدرجة كافية . وهو فارق لم يعد من اليسير تبينه اليوم . ويستحيل اطلاقا ادراكه من واقع الدراسة المكتبية النظرية وحدها . وتبرهن لنا على ذلك الحقيقة البسيطة التى مؤداها أن أحدا لم يدركه حتى الآن (مناقشة لموقف بعض الباحثين من هذه النقطة وخاصة وليم لين ، ودوتيه وفينكلر وغيرهم) . ولا شك أن هذه النظرة الجديدة ستدفعنا فى المستقبل الى الحكم بشكل مختلف ــ عن الآن ــ على أهمية المصادر والموضوعات المختلفة ... الخ .

كما يأمل الباحث أن يكون قد اتضح من البحث أن ميدان « علم الأسماء » فى السحر لا يشمل الأسماء الحسنى فقط . وانما « علم الاسم الأعظم » أيضا كما يسميه رجال السحر الرسمى .

وكان تعبير « الاسم الأعظم » يفهم حتى الآن على أنه مجرد صفة ليس لها أى مدلول خاص فوق هذا . وقد حاول هذا البحث أن يوضح أن « الاسم الأعظم » ميدان مستقل ، أو كما يرى السحرة الرسميون « علم » مستقل .

ودلت محاولة تتبع التغير على أن السحر الاسلامى قد « انحط » بمرور الوقت . وذلك بسبب عدم وجود نشء سحرى رسمى . وأنه سوف يتحول ان عاجلا أو آجلا الى سحر شعبى خالص . مطعم فقط ببعض العناصر السحرية الرسمية .

الدراسة الثامنة

الثبات والتغير فى عادات الموت فى مصر

مقـــدمة :

١ ـ مصـادر البحث :

ا ـ المصـادر التاريخية .

ب ـ مؤ لفات عربية ذات طبيعة دينية وشعبية

جـ ـ كتب الرحلات الأوربية

د ـ المؤلفات العلمية الحديثة

هـ ـ الدراسة الميدانية

٢ ـ المستوى الذى وصلت اليه الدراسات السابقة وأهداف هذا البحث

عـرض للمحتويات

الباب الأول

الفصل الأول : استعداد الحى للموت

الفصل الثانى : العلامات التى تنبىء بوقوع حالة وفاة

الفصل الثالث : سلوك الميت والمحيطين به قبيل وقوع الوفاة وبعدها .

الفصل الرابع : اعـلان الوفاة

الباب الثاني

مقدمة

الفصل الأول : الغسل

الفصل الثاني : الكفن

الفصل الثالث : النعش (الخشبة)

الباب الثالث

الفصل الأول : الجنازة

الفصل الثاني : الصلاة على الميت

الفصل الثالث : القبر

الفصل الرابع : الدفن

نتائج البحث : الاتجاهات العامة للتغير

تمهيـد :

ســوف أســتعرض فى هذا الفصــل الدراسة التى قمت بها عن : « الثبات والتغير فى عادات الموت فى مصر منــذ العصر المملوكى حتى العصر الحاضر » . وقد قدمت هذا البحث لنيل درجة الدكتــوراه فى الفلسفة من جامعة بون بألمــانيا الغربية عام ١٩٦٨ (١) . ويصدق عـلى رسالتى التى أقدمها اليوم للقارىء العربى نفس الملاحظة التى أشرت اليها فى تقديمى لرسالة الدكتور محمد الجوهرى عن السحر المصرى الاسلامى، فهى الأخرى مكتوبة باللغة الألمانية . وقد عاقتنى مشــاغل التدريس والبحث والحياة طوال السنوات العشر الماضية عن ترجمة هــذا الكتاب الى اللغة العربية . وانى أعتزم باذن الله أن أنجز هذه الترجمة وأقدمها فى شكل متكامل لا يقتصر على دراسة الثبات والتغير فى عادات الموت فقط، وانما يحقق الهدف الذى أرجأت تحقيقه طوال خمسة عشر عاما ، وهو اخراج الدراسة عن عادات دورة الحياة كلها . ومن المؤكد أن البحــوث والدراسات التى تمت خلال تلك الفترة الطويلة ســوف تجعل بحثى المأمول أيسر تحقيقا وأكثر خصوبة وأشد ثراء ، والله ولى التوفيق .

---

(١) Allaa Shoukry, Wandlung und Konservierung des Totenbrauches in Agypten von der Mamlukenzeit bis zur Gegegenwart, Dissertation zur Erlangung der Doktorwürde der Philosophischen Fakultät der Rheinischen Friedrich-Wilhelms-Universitat zu Bonn, Bonn, 1968.

وقد طبعت الرسالة فى نفس العام ونشرت فى كتاب ، بون ، ١٩٦٧ .

مقدمة :

كان المقرر فى البداية أن تكون رسالتى عن « الثبات والتغير » فى العـادات الخاصة بدورة الحياة فى مصر من العصر المملوكى الى العصر الحاضر » • الا أنه سرعان ما اتضح فى أثناء البحث أن معـالجة جميـع المسائل المتصلة بهذا الموضوع الواسع سوف تتطلب حيزا هائلا • ولذلك قررت أن أقتصر على دراسة عادات الموت • ويستند هذا الى الاعتبارات التـالية :

١ ــ من المعروف لنا جميعا أن الموت يحتل مكانة كبرى فى حياةالمصريين منذ أقدم العصور • وأن الاسلام لم يستطع القضاء قضاء كاملا على كثير من الممارسات المعروفة فى هذا الميدان رغم محاربته لها منذ ثلاثة عشر قرنا •

٢ ــ تقدم المصادر المختلفة ــ وخاصة المصادر التاريخية عن موضـوع الموت ــ أوفر مادة بالنسبة للميادين الأخرى كالميـلاد والزواج • الأمر الذى يضمن أساسا راسخا للدراسة •

٣ ــ حقيقة أن هناك مجموعة كبيرة من المؤلفات ــ التى وضع معظمها بقلم أوروبيين ــ تعرض لموضوع عادات الموت فى مصر • ولكن المؤلفين قد واجهوا ــ كأجانب وغير المسلمين ــ صعوبات جمـة وخطيرة • (أنظر فيما بعد الفقرة الخاصة « بالدراسات السابقـة فى الموضوع ») وذلك فى موضـوع الموت بالذات • بحيث أن دراستهم قد اقتصرت فى الغالب على الأشكال الخارجيـة فقط كشواهد القبور وما الى ذلك • ولم يصـدر حتى الآن مؤلف استفاد بالمخلفات التاريخية وتعرض لمسألة الاستمرار والتغير •

ولكن سرعان ما اتضح بعد ذلك أن دراسة لعادات الموت والحداد كلها مشروع ضخم للغاية ، وذلك اذا ما أريد للمادة جميعها أن تقيم بالدقة والعناية الكافيتين . ولما كنت حريصة كل الحرص على الاهتمام بمعالجة تلك الميادين من عادات الموت التى لم تدرس بعد بالقدر الكافى، وعلى أخذ مسألة الاستمرار والتغير فى الاعتبار ، قررت أن أضم للبحث تلك المجالات مثل : « استعداد الحى للموت » و « العلامات التى تنبىء بالموت » .. الخ ، وأرجىء دراسة موضوع الحداد والمراثى الى بحث مقبل ، على الرغم من ضخامة حجم المادة التى جمعتها حولها حتى الآن، وقد كان من الأفضل استبعاد موضوع الحداد والعادات والمعتقدات ، المتصلة به من الرسالة استنادا الى الاعتبارات التالية :

١ ـ تعرض موضوع الحداد ـ والمراثى بصفة خاصة ـ للدراسة أكثر من سواه من موضوعات عادات الموت الأخرى . ولعل ذلك يرجع ولا ريب الى أن علم الآثار المصرية القديمة قد اهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا . كما دلت أبحاث العلماء الأوروبيين على أن جانبا كبيرا من عادات الموت فى مصر الحديثة يعتبر استمرار لما كانت عليه تلك العادات فى مصر القديمة . مما يدل على وجود درجة كبيرة من الثبات . وقد وضعوا فى هذا الصدد نظريات كثيرة .

٢ ـ على العكس من الوضع فى مصر القديمة وفى مصر اليوم تلاحظ ندرة المعلومات الخاصة بالحداد والتى ترجع الى العصر المملوكى. وقد أدى هذا الى جعل عملية المقارنة الشاملة أمرا شاقا .

٣ ـ تنتمى الى موضوع الحداد بصفة عامة موضوعات وميادين أخرى متعددة (مثل : المراثى ، ملابس الحداد ، وليمة الدفن ، زيارات المقابر ، الممنوعات التى تفرض أثناء فترة الحداد وغير ذلك) الأمر الذى يجعل من الأفضل افراد دراسة مستقلة لها فى المستقبل .

والحق أن هذا ليس بالمقام المناسب لاعطاء فكرة مفصلة عن التاريخ المصرى منذ وصـــول المماليك الى الحـكم حتى اليوم • ولذلك أود الاقتصار على عرض النقاط الأساسية التالية :

المماليك عبارة عن طائفة من العبيد ــ وهو ما يدل عليـه اسمهم ــ من بين حرس السلطان والأمراء • برزوا بسبب تفوقهم فأعتقهم سادتهم• وكان المماليك يجلبون بأعداد كبيرة من بلاد التركمان أساسا وبشـكل مستمر • وقد تكون لديهم احساس قوى جدا بترابطهم كفئة منعزلة • وقد ترتب على هذا الشعور نفور كبير من أهل البلاد الأصليين • وان لم يحل هذا دون حدوث نوع من الاختـلاط بين الطرفين • وكانت حصيلة هذا الاختلاط فئة جديدة تمثل طبقة اجتماعية متوسطة كانت تعرف باسم « أولاد الناس » • وقد جرت عادة المؤرخين على التمييز بين عصرين من حكم المماليك • الأول هو عصر المماليك البحرية الذى امتـــد من قام ١٢٥٠ الى ١٣٩٠ والثانى هو عصر المماليك البرجية من عام ١٣٨٢ الى عام ١٥١٧ • وقد كانت سيطرة هؤلاء المماليك على حكم مصر ايذانا ببـدء حقبة جديدة من حقبات التاريخ المصرى تركب آثارها ولا شك فى مجال العادات والتقاليد أيضا •

ويصدق نفس الكلام على العصر العثمانى الذى بدأ باحتلال الترك لمصر فى عام ١٥١٧ • وقد استمر الاحتلال العثمانى حوالى أربعـة قرون كاملة حتى أنهتها ــ رسميا ــ الحماية البريطانية فى عام ١٩١٤ • وقـد كانت مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر ــ ابتداء من الحملة الفرنسـية عام ١٧٩٨ ــ هدفا هاما من أهداف المصالح البريطانية والفرنسية • الأمر الذى لم يكن بلا تأثير على الشعب ، أو على الطبقات العليا منه على الأقل•

ولا بد قبل الدخول فى معالجة موضوع البحث نفسـه أن نعرض بشىء من التفصيل لنقطتين أساسيتين هما : مصادر البحث والدراسـات السابقة فى الموضوع والنتائج التى وصلت اليها •

أولا ـ مصادر البحث

تعتمد هذه الدراسة على خمسة أنواع من مصادر المعلومات هى :

١ ـ مصادر تاريخية ترجع الى العصر المملوكى بصفة خاصة ، حيث يتناول المؤلفون موضوع الموت عادة عند الحديث عن موت أحد الشخصيات •

٢ ـ مؤلفات دينية ودينية شعبية تتناول موضوع الموت وحده أو بتفصيل كبير ، وهى منتشرة على طول الفترة من العصر المملوكى الى اليوم •

٣ ـ كتب الرحلات الأوروبية • والحقيقة أن كتب الرحلات بمعناها الحقيقى لم تكن غنية بمعلومات مفيدة فى صدد حديثنا اللهم الا مؤلفات يمكن اعتبارها من كتب الرحلات بمعناها الواسع•الأول تم وضعه أثناء الحملة الفرنسية على مصر • أما الثانى فمن تأليف سيدة فرنسية كانت متزوجة بمصرى • وقد تضمن هذان المؤلفان بحق مادة وفيرة عن موضوعنا •

٤ ـ مؤلفات علمية حديثة : وكان أبرزها فى هذا الصدد تلك المؤلفات ذات الطبيعة الاثنولوجية والفولكلورية من تأليف علماء أوروبيين ومصريين •

٥ ـ الدراسة الميدانية ، وهى تقوم أساسا على البيانات والمعلومات التى حصلت عليها من الأشخاص الذين وجهت اليهم كشف أسئلتى وعلى الملاحظات والدراسات التى قمت بها فى رحلتى الميدانية فى بعض قرى مصر فى شتاء عام ١٩٦٤/١٩٦٥ •

(ا) المصادر التاريخية :

خلف لنا العصر المملوكي في مصر طائفة من كبار المؤرخين . يعتبر من أبرزهم أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني المقريزي (المتوفى سنة ٨٤ هـ / ١٤٤٢ م) بكتابيه : « كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » و « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » . والمؤرخ جمال الدين أبو المحاسن بن تغريردى (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) بمؤلفيه : « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » و « حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور » . ومحمد بن أحمد بن اياس (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م) بمؤلفه : « بدائع الزهور في وقائع الدهور » .

وتتناول مؤلفات هؤلاء المؤرخين ذات الأحجام الضخمة تاريخ مصر العام ، اللهم بعض الاستثناءات القليلة . وان كان العصر المملوكي يحتل القسط الأكبر منها ، وخاصة في حوليات ابن تغريردى وابن اياس . على أننا يجب ألا تتوقع أن تقدم لنا هذه المصادر معلومات عن الحياة اليومية للرجل العادى . فقد كانت الأحداث السياسية الكبرى الدائمة التغير هي مثار اهتمام هؤلاء المؤرخين وغيرهم من المؤرخين العرب في تلك الفترة . ولهذا لم تستطع ظروف الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد ـ التي لا تتغير الا ببطء ـ أن تستحوذ على اهتمام هؤلاء المؤرخين . فقد كانت الحياة اليومية المحيطة بهم شيئا بديهيا مألوفا لهم . على أنهم لم يغفلوا عند تناولهم البيانات الهامة الخاصة بكبار الشخصيات السياسية والدينية (كالأولياء مثلا) عن التعرض في كثير من الحالات للظروف المحيطة بموتهم وما بعد موتهم . وعلى الرغم من أن المادة ـ بصفة عامة ـ قليلة متناثرة ، الا أن هناك بعض المعلومات ذات القيمة الكبيرة . ولقد كنت واعية على الدوام بأن القدر الأعظم من المعلومات لا يصدق الا بالنسبة للطبقة العليا من الشعب . ولعل العبارة التالية التي وردت عند تغريردى

عن أحـد معاصريه المغمورين توضح لنا هـذه النقطة فقد كتب يقول : « وقد أغفلنا الحديث بالتفصيل عما وقع له لأنه ليس من كبـار القوم ؛ بحيث تمتدح أعماله أو تذم » .

أما المناسبات التى تعرض فيها هؤلاء المؤرخين للحـديث عن عادات الموت عند أبناء الشعب أيضا هى : الأوبئة ، فكثيرا ما يذكرون بمناسبة وضعها أن هذه العادة أو تلك لم تكن تمارس بسبب كثرة عدد الموتى .

وقد خلف لنا عبد الرحمن الجبرتى (المتوفى سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) عملا من نفس هذا النوع أيضا هو عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . وهو المؤلف الذى حقق شهرة واسعة لاعتبارات كثيرة منها وصف الحملة الفرنسية التى قادها نابليون الى مصر .

(ب) مؤلفات عربية ذات طبيعة دينية وشعبية :

هناك عدد كبير من المؤلفات ذات الطبيعة الدينية ــ معظمها لا زال مخطوطا ــ تتناول كلها أو القدر الأكبر منها موضوع الموت والعـادات المتصلة به . ولعله يمكننا وصف هذه المؤلفات بأنها « كتب مدرسية » تحتوى على تعليمات بالتصرف فى أدق المواقف وأصغر التفصيلات ويقوم منطقها فى العادة على نفس منطق المؤلفات العربية الأخرى ذات الطبيعـة الدينية . وهى تكاد لا تحتـوى على أكثـر من آيات وأحاديث وأقوال مأثورة عن الصحابة أو كبار الفقهاء فى العصور الاسلامية الأولى . ومع ذلك فلا نستطيع أن نعتبرها دراســات دينيـة بحته . ذلك أن الآيات والأحاديث هنا لا تستهدف سوى تبرير عادة أو ممارسة قائمة بالفعل من وجهة نظر رسمية متطرفة ، أو مهاجمتها (قارن فى هـــذا الصدد الفقرة الخاصة بابن الحاج) .

ونود أن نقتصر فيما يلى على عرض أهم ثلاثة مؤلفات من هـــذا النوع باختصار .

ابن العطار :

واسمه بالكامل أبو الحســن عــلاء الدين بن ابراهيم بن دواد بن العطار (المتوفى فى سنة ٧٢٤/١٣٢٤ بالقاهرة) . وأهم مؤلفاته بالنسبة لنا : رسالة فى أحــكام الموتى فى غسلهم وتكفينهم ودفنهم والتعــزية عليهم » .

وقد عالج ابن العطار هذا الموضوع فى أربعة عشر فصلا ، ولو أنه لم يكن يلتزم دائما بهذا التقسيم ، فيعالج موضوعا واحــدا فى أكثر من مكان . وتتناول فصول رسالته الموضوعات التالية : ــ

١ ــ سلوك المحيطين بالميت بعد الموت مباشرة .

٢ ــ الغســل .

٣ ــ التكفــين .

٤ ــ الجنــازة .

٥ ــ الصلاة على الميت ، والأدعية التى تقال عند مرور الجنــازة ، ضرورة تحضير القبر قبل وصول الجنازة الى المقابر .

٦ ــ الدفن ــ القبر الشرعى ــ الأشياء التى تدفن مع الميت .والتلقين

٧ ــ }
٨ ــ } زيارة القبر
٩ ــ }

١٠ ــ شــاهد القبر .

١١ ــ عن الذين يدفنون فى قبر واحد •

١٢ ــ تحريم الضحية (الكفارة) •

١٣ ــ عدم شرعية بناء مساكن بجوار قبر أحد الأولياء الصالحين •

١٤ ــ سلوك من يزور القبر •

ويختلف ابن العطار عن ابن الحاج ــ الذى سنعرض له فيما بعد ــ فى أن الطابع الاصلاحى عنده ليس مبالغا فيه وعندما يهاجم ممارسة شعبية ، نجده نادرا ما يسهب فى الحديث عنها • فهمه الأساسى عرض وجهة النظر الاسلامية الصحيحة من المسائل التى يتناولها •

ابن الحاج :

واسمه بالكامل : محمد بن محمد بن الحاج الفاسى العبدرى القيروانى • توفى فى القاهرة عام ٧٣٧ هـ الموافق ١٣٣٦ ميلادية • وقد ترك عدا مؤلفه الرئيسى « المدخل » ــ الذى استخدم فى هذه الدراسة ــ عدة وسائل ومؤلفات أخرى • ومن هذه المؤلفات واحد من أشهر كتب السحر وأوسعها انتشارا فى العالم الاسلامى وهو « شموس الأنوار وكنوز الأسرار » كما ألف كتاب « بلوغ القصد والمنى فى أسماء الله الحسنى » •

واسم مؤلفه الرئيسى هذا : « مدخل الى الشرع الشريف » وهو يتناول بالمعالجة شتى مجالات الحياة الدينية والدنيوية • ولا عجب فى ذلك فالدين الاسلامى يشرع ــ كما هو معروف ــ لكل دقائق الأمور فى الحياة الدينية والدنيوية على السواء • وهكذا كان من بين الموضوعات التى تناولها هذا الكتاب : « فصل فى أن السلف الصالح لم يكن ينخل الدقيق » • وكذلك فصل آخر بعنوان ، ــ « فصل آخر للتحذير من ترك الأوعية مكشوفة » •

وقد تعرض ابن الحاج على مدى الكتاب كله للحـديث عن عادات الموت من جميع جوانبها • ولهذا نجد أن المادة التى تجمعـه من مؤلفه البالغ الألف صفحة مادة مسهبة • ويختلف ابن الحاج عن ابن العطار من حيث أنه لم يكن يستهدف عرض العادات من وجهة النظر الاسـلامية الصحيحة وانما التنبيه الى بعض البدع والعادات المستحدثة • لبيـان قبحها ومساوئها — على حد تعبيره — ولا شك أن لهذه النظرة خطـورة المبالغة فى تأكيد بعض التفاصيل أكثر من اللازم واهمال البعض الآخـر على اعتبار أن النوع الأول من العادات هو الذى يعتبر بدعا فى نظـره ومن ثم يثير اهتمامه • أما النوع الثانى فليست هناك حاجة الى الاختلاف عليه • وتفسر لنا هذه النظرة حرصه على الاهتمام بتوضيح الأصل غـير الاسلامى لعادة من العادات •

وهذا كاف فى نظره لاثبات أن هـذه العادة بدعة ومن ثم « غـير شرعية » و « غير صحيحة » ••• الخ • وهو يؤكد قائلا : « نحن متبعون لا مبتدأون ، نقف حيث وقف أسلافنا » • وغنى عن البيان أن كثيرا من هذه التفسيرات — لأصل بعض العادات — من اختلاق المؤلف •

وقد كان بوسعنا فى بعض الأحوال أن نستنتج من مدى حـدة هجومة أدلة على انتشار عادة من العادات • ويقول فى أحد المواضع على سبيل المثال : « وقد أصبحت هذه الحالة منتشرة الى حد أنه اذا تركها أحد سبه الناس سبا ، فما بالك اذا هاجمها » • ويقول فى مقام آخـر : « وهكذا أصبح الناس يتبعون هذه المثل السيئة بحيث أنها أصبحت عامة ومنتشرة » • وكان ابن الحاج يشير فى مواضع غير قليلة الى الأوسـاط الاجتماعية التى تنتشر فيها هذه العادات •

محمد عبد السلام خضر الشقيرى :

ظهر فى القاهرة فى عام ١٩٦١ كتاب محمد عبد السلام بعنـوان : « السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات » • وعلى الرغم من أن المؤلف لا زال على قيد الحياة ، ويدعى أنه يكتب وفق المناهج العلميـة الحديثة ، فاننا نلاحظ شدة تأثره بأسلوب ابن الحاج وبأفكاره • وممـا يلفت النظر أن الهجوم لا زال يوجه الى نفس العـادات وأن المبررات لا زالت متشابهة •

(ج) كتب الرحلات الأوربية :

لجأت الى كتب الرحلات الأوربية القديمة يحدونى أمل كبـير فى العثور على مادة غزيرة • وقد أغرتنى عناوين بعض الكتب مثل كتـاب « يوهان انتس » بعنوان : « ملاحظات على عادات وتقاليـد المصريين » الصادر فى « ينا » وليبزيج عام ١٨٠١ • ولكننى لم أجد فى كتب الرحلات هذه الا ما يخيب الأمل • وليس هناك سوى مؤلفين اثنين اتضـح أنهما يحتويان على مادة وفيرة وقيمة عن موضوعنا •

وأولهما كتاب شابرول بعنوان : « رسـالة عن عادات أهل مصر المحدثين » الذى صدر فى باريس عام ١٨٢٦ ، وكانت مادته قـد جمعت أثناء الحملة الفرنسية على مصر • حقيقة أن معلومات شابرول عن عادات الموت ليست كاملة أبدا ، ولكنها تحتوى بالرغم من ذلك على ملاحظـات دقيقة عن بعض التفاصيل التى لا نسمع عنهـا فى مكان آخـر • وأبرز ما يتميز به مؤلفه هو تفهمه للعادة الشعبية دون أن يفقده ذلك موضوعيته (وهذا الكتاب هو موضوع الفصل الأول من كتابنا هذا الذى بين يدى القـارىء) •

ويميزه هذا الموقف تمييزا كبيرا عن الكتاب الثانى الذى ألفتــه « نية سليمة » بعنوان : « الحريم والمسلمون فى مصر » • ونية سـليمة سيدة فرنسية كانت متزوجة من رشدى باشا • ولهذا أتيحت لها الفرصة كأوروبية أن تطلع على جوانب من حياة المصريين ـــ وخاصة النســاء ـــ ظلت مغلقة تماما على كثير من الباحثين الأوروبيين • ففــد عاشت كل الظروف والمناسبات التى تخطر لنا على بال ، كالمعزى ، وزيارة القبور ، وقد شغلت المــادة التى جاءت بها عن عادات الموت أكثر من خمســين صفحة ابتداء من وقوع الموت حتى زيارة المقابر • ولم يكن من المتــوقع طبعا أن تلتزم نية سليمة ـــ التى لم تتلق دراسة أكاديمية ـــ بأى مقاييس علمية فى دراستها وتسجيلها للمادة • فكانت متحفزة ـــ ربما بسبب فشل زواجها من مصرى ـــ الى رؤية الجانب السىء من كل العــادات التى تعرضت لها • ولهذا لا يخلو الكتاب من كلمات السـباب ، وأحــكام القيمة ••• الخ •

ولكننا مدينون لها ـــ بالرغم من ذلك ـــ بحشد هائل من التفاصيل التى لم نكن لنحصل عليها عن هذه الفترة دون هذا الكتاب • كما أن لها ميزة كونها غريبة عن الشعب أى أنها تستطيع ملاحظــة كل شىء دون اهمال شىء لكونه بديهيا أو مألوفا ، وذلك لتوفر البعد الكامل بينها وبين المــادة المدروسة • وهو الأمر الذى لا يتوفر لكثير من الباحين المحليين •

(د) المؤلفات العلمية الحديثة :

وتتكون المجموعة الرابعة من المصادر من المؤلفات العنمية الحديثة ذات الطابع الاثنولوجى والفولكلورى فى معظم الأحوال • وأبرز مؤلفى هذه المجموعة أربعة منهم ثلاثة أوروبيين • ولا نستطيع فى مثل هذا المقام أن نتعرض لمؤلفاتهم الا على عجل شديد • ونرجىء المناقشــة حـول

مناهجهم ومدى دفعهم البحث فى هذا الميدان الى الأمام الىالفقرة الخاصة بالدراسات السابقة .

لا زال الكتاب الذى أصدره العالم الانجليزى « ادوارد وليم لين » فى القرن التاسع عشر بعنوان : « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » ، لا زال صالحا لاستقراء كثير من العادات والمارسال الشـعبية المصرية بسبب براعة مؤلفه ودفنه وقوة ملاحظته . على أن الكتاب لايتناول مصر كلها بمختلف أقاليمها ، وانما يقتصر عمليا على القاهرة فقط .

أما عادات فلاحى الصعيد فقد حظيت باهتمام الكتاب الشهير للعالمة الانجليزية « مس بلاكمان » الذى صدر فى لندن عام ١٩٢٧ واستخدمت أنا ترجمته الفرنسية التى صدرت فى باريس . وكانت المؤلفة قد جمعت مادتها على مدى ست سنوات كانت ترافق فيها أخاها عـالم المصريات الانجليزى بلاكمان ، وتقضى ست شهور من كل سنة منها وسط فـلاحى الصعيد . (وهذا الكتاب هو موضوع الفصل الثانى من كتابى هذا الذى بين يدى القارىء) .

وكان العالم الألمانى « هانز فينكلر » هو المؤلف الوحيـد الذى حرص على التعرف على خصائص المناطق الثقافيةالتى يتكون منها المجتمع المصرى وخاصة فى كتاب « الفولكلور المصرى » الذى صدر فى مدينـة شتوتجارت عام ١٩٣٦ . وهذا الكتاب هو محور الفصلين الثالث والرابع من كتابى هذا : (التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوربية) .

ويندرج تحت هذه المجموعة المصرى محمد جلال ـ تلميـذ عالم الاجتماع الفرنسى المشهور « موس » والمستشرق الكبير « ماسينيون » ـ بدراسته الخاصة التى صـدرت فى باريس عام ١٩٣٧ بعنـوان :

« ملاحظات على الشعائر الجنائزية فى مصر المعاصرة » من بعض المناطق الريفية . واستقى جلال مادته من محافظات الشرقية ، البحيرة ، وأسيوط وأسوان والقاهرة .

والحق أن واجب الاحاطة يفرض علينا الاشارة الى دراستين أخريين خصصت أحداها للمراثى فقط (وهى : « المراثى فى مصر المعاصرة » من تأليف المستشرق الألمانى الشهير « باول كاله ») . وقد أتت هذه الدراسة بجديد فى المجال اللغوى ، ولكنها اعتمدت فى وصف الظروف والملابسات المحيطة بالقاء المراثى والندب وما الى ذلك على كتاب « نية سليمة » الذى سبقت الاشارة اليه .

أما الدراسة الثانية فهى بعنوان : « الحياة الشعبية القاهرية » من وضع المستشرق الألمانى « انو ليتمان » وهى عبارة عن ترجمة رسالة صغيرة كتبها أحد المصريين للمؤلف عن الحياة الشعبية فى القاهرة . ولا يشغل الحيز المخصص لعادات الموت فى هذه الرسالة أكثر من ثلاث صفحات . ولما كان « ليتمان » قد قرر عدم تقديم مناقشة نقدية لهذه المادة ، فقد أغفل للأسف بيان أصل هذا الدليل القاهرى ووضعه الطبقى وظروفه الاجتماعية[٢] .

وهناك علاوة على هذه المصادر العلمية التى تتناول عادات الموت فى مصر فقط أو الى جانب عادات ومعتقدات أخرى ، هناك دراسات أخرى حرصت على عرض بعض العادات والتقاليد من واقع مؤلفات بعض المؤرخين والفقهاء المسلمين . مع ملاحظة نظرة مثل هؤلاء المؤلفين الى

---

(٢) وانو ليتمان هو مؤلف الدراسة التى تناولت بالعرض والتحليل رسالة « السفر الجليل فى أخلاق وعادات سكان وادى النيل » التى تمثل موضوع الفصل الخامس من كتابنا هذا الذى بين يدى القارئ الكريم .

الشرق العربى كوحدة واحدة . ولو أن مؤلفه دراسة : « عادات الدفن عند العرب فى فجر الاسلام » لا تشاركهم هذه النظرة غير العلمية .

وتنصب هذه الدراسة أصلا على بلاد الحجاز ، وكان من مصادر أهميتها بالنسبة لنا امكانية المقارنة بين الظروف فى فجر الاسلام أو الممارسة الفعلية فى موطن ظهور الاسلام وبين الواقع فى العصور الوسطى والحديثة فى مصر .

(هـ) الدراسة الميدانية :

بدأت عملية الاستطلاع الميدانى فى شتاء ١٩٦٤/١٩٦٥ فى القاهرة. ولم أكن أيامها قد قررت القيام بدراسة ميدانية مستقلة حول موضوعى هذا ، اذ كنت أقدر أننى سأعثر على مادة كافية من المصادر المذكورة . الا أنه اتضح وجود ثغرات كبيرة فى هذه المصادر بالنسبة لبعض التفاصيل الهامة . كما افتقرت جميعها تقريبا الى اشارات خاصة بالانتشار الاقليمى والاجتماعى للمعتقدات والعادات المختلفة .

وهذه النقط بالذات هى التى يمكن للدراسة الميدانية أن تستوفيها. على أننى لم أكن عند بدئى الاستطلاع الميدانى فى القاهرة عام ١٩٦٤ قد وقفت بعد على جميع هذه الجوانب من المشكلة ، بحيث اقتصرت استفساراتى عمليا على الأوضاع فى القاهرة فقط . ثم تعذر على فيما بعد القيام باستفسارات واستطلاعات تكميلية من ألمانيا لمصر للسؤال مباشرة عن بعض التفاصيل الدقيقة وذلك بسبب ضيق الوقت . وقد وجدت المخرج من ذلك أن أبحث عن الاخباريين المطلوبين من بين المصريين الذين يعيشون فى ألمانيا الغربية . خاصة وأن بعض المصادر المذكورة كانت تحتوى فى الأحيان على تفاصيل لم تكن معروفة أو مفهومة لى تماما .

وقد رأيت أن تتوفر فى الأشخاص الذين سأجمع منهم المادة الشروط والمواصفات التالية :

١ ــ أن يكونوا منتمين الى أقاليم مختلفة .

٢ ــ أن يكونوا منتمين الى كل طبقات الشعب بقدر الامكان . ونظرا لصعوبة تحقيق هذا الشرط تحقيقا دقيقا ، رأيت ــ على سبيل المثال ــ أن أعتمد فيما يختص ببيانات أهالى الريف على المعلومات التى يدلى بها أشخاص ذوو أصل ريفى ، ممن كانوا يعملون موظفين لفترات طويلة فى الريف .

٣ ــ ألا تكون قد مرت على مغادرة هؤلاء الأشخاص لمصر أكثر من سنتين .

٤ ــ ألا تقل أعمارهم عن خمسة وعشرين عاما .

ومن الطبيعى أن يكون جميع هؤلاء الأشخاص من بين معارفى المقربين . ذلك أن الصعوبات التى سأتناولها ــ والتى كانت تعترض الأوربيين لدى دراستهم لموضوع الموت ما زالت تعترض طريق المصرى أيضا ، وان كان ذلك صادرا عن اعتبارات أخرى . ولذلك لم يكن من اليسير على أن أعثر على من يقبل بسهولة وعن طيب خاطر الاجابة على أسئلتى الكثيرة عن الموت[٣] .

---

(٣) كانت تلك الأسئلة هى نواة القسم الخاص بالموت من دليل أسئلة دورة الحياة الذى وضعته بالاشتراك مع زملاء لى ، أنظر : محمد الجوهرى وعبد الحميد حواس وعلياء شكرى ، الدراسة العلمية للعادات والتقاليد الشعبية ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٧٠ .

هذا وكنت قد قمت باعداد دقيق للأسئلة التى سأوجهها • وقد بدا أن الوضع الأمثل أن أعتمد على جهاز تسجيل لتسجيل الاجابات• ولما كنت أحتاج مع كل شخص الى حوالى أربع ساعات ـــ موزعة على جلستين أو أكثر ـــ فقد كان لجهاز التسجيل ميزة كبيرة بالنسبة لكشف الأسئلة وهو أن الشخص المسئول سرعان ما يبدأ بعد وقت غير طويل فى الحـــديث المنطلق الصريح • ويخرج من تلقاء نفسه عن الاطار الذى تتحـدث فيه فيتناول بالذكر أشياء لم أكن أعلم من قبل بوجودها ، ولم أكن بالتـــالى بقادرة على تسجيلها فى كشف أسئلتى من قبل •

وكنت أقوم بعد أول جلسة بتفريغ المـادة على بطـاقات ، بحيث يمكن فى الجلسة الثانية استكمال الثغرات الموجودة بقدر الامكان•ومن الأمور التى ساعدتنى كثيرا على تخليص الأشخاص المسئولين من حرجهم من هذا الموضوع أن أخصص لكل منهم ـــ وفقا لنصـيحة أسـتاذى المشرف ـــ رقما معينا ، ولمـا كنت أؤكد لهم باخلاص أن أسـماءهم لن تنشر أبدا كانوا يتحولون الى انطلاق أكثر فى الحديث •

ثانيا ـــ المستوى الذى وصلت اليه الدراسات السابقة واهداف هذا البحث:

اتضح من حديثنا السابق عن مصادر البحث أن هنـاك عـددا من الدراسات والمؤلفات من بينها بعض المؤلفات الأوروبية ـــ التى تنـاولت موضوعنا من قريب أو بعيد • وهنا يثور التساؤل عن مدى ضرورة بحثنا هذا والى أى مدى ، استطاعت هذه المؤلفات دفع البحث فى موضـوعنا الى الأمام •

وقد تعرض الأوروبيين لبعض الصعوبات الأساسـية عنـد دراسة العادات والتقاليد والمعتقدات فى مصر • الأمر الذى دفع العالمة «بلاكمان» الى كتابة ما يلى : « لا شك أن كل من قام بدراسات انثروبولوجية يعلم

تمام العلم أنه يمكن الوقوع فى أخطاء واساءة تفسير المضمون الدقيق للظواهر المدروسة رغم بذل أقصى الجهود .. وانى لأشعر برغبة أكيدة فى أن أجد أحد المصريين المثقفين يدرك أهمية الدراسات الأنثروبولوجية وفولكلور بلاده » . ولكن دراسات العادات والممارسات الشعبية المتصلة بالموت قد خلقت لهم صعوبات أكثر وأعمق كما يتضح مثلا من الملاحظة التالية التى وردت عند فينكلر : « لم يكن الفلاحين الذين سألتهم أشد عزوفا عن اعطائى معلومات بقدر ما كانوا عند سؤالى لهم عن الموتى والقبور » . ومهما يكن من أمر فقد استطاعت دراساتهم التوصل الى نتائج مفيدة بشأن بعض عادات الموت . وتكمن أهمية كتاب « لين » بالنسبة لنا اليوم فى كونه يتكلم عن عادات كانت موجودة منذ أكثر من قرن . معنى هذا أننا نستطيع بفضل هذا الكتاب اجراء مقارنات ممتازة مع الظروف والأوضاع الحالية . ولا حاجة بنا فى هذا المقام الى أن نؤكد من جديد قيمة العمل الرائد الذى حققه فى مجال دراسة الحضارة المصرية والتى أشار اليها جميع الباحثين . وقد قادته دقته الشديدة المرتبطة بقدرة نادرة على الملاحظة الى ادراك كثير من التفاصيل الهامة التى لم يسبق لأى باحث أجنبى ملاحظتها . وقد تأثرت به معظم الدراسات الحديثة عن تاريخ الحضارة المصرية على نحو أو آخر .

وترجع نواحى القصور فى مؤلفاته — أساسا — الى الصعوبات والمشكلات التى لم يكن من الممكن أيامها لأى أوروبى أن يتجنبها . فلا شك أنه لم يكن يستطيع اجراء ملاحظات ودراسات لعادات المصريين خارج القاهرة بنفس الكثرة والتركيز الذى كان يستطيعه فى المدينة . وحتى فى القاهرة نفسها يبدو لنا أنه لم ينجح فى خلق صلات وثيقة مع

الطبقات الدنيا فى المجتمع • ولهذا فان مادته لا تصدق الا على القاهرة ، وهناك فقط على الطبقات الوسطى والعليا وان كان عنوان الكتاب يدعى شيئا غير هذا •

وكما ذكرنا من قبل فان دراسة بلاكمان قاصرة على صعيد مصر ، وعلى الفلاحين هنا فقط • ومن العيوب الأساسية للكتاب أنه لا يتضمن أى معلومات أكثر من ذلك عن الأماكن التى جمعت منها المادة • ولم تورد حتى مجرد أسماء الأماكن • فهى تتحدث عن الصعيد ككل • وعلاوة على هذا فان كتابها لم يتضمن أكثر من ١٤ صفحة عن عادات الموت ـ بما فى ذلك المعازى وزيارة المقابر ـ ولذلك فليس لنا أن نتوقع منها أوصافا عن بعض التفاصيل الهامة بالنسبة لموضوعنا •

ومع ذلك فان الكتاب يتمتع بأهمية كبيرة على أساس أن الملاحظات الواردة قائمة على معرفة دقيقة للظروف • ذلك أن المؤلفة غاشت مدة طويلة فى صعيد مصر واستطاعت كسيدة أن تنفذ بدرجة أعمق الى مجالات الحياة الخاصة للشعب ، كما أن وجودها مع أخيها عالم الآثار المصرية القديمة قد مكنها عند الحديث عن بعض العادات من الاشارة الى صورها المصرية القديمة •

حقيقة أن كتاب فينكلر عن « الفولكلور المصرى » يعتبر من حيث المادة الجديدة فى موضوعنا فقيرا بصفة عامة ، اللهم بعض الجوانب الخارجية كشواهد القبور والجبانات التى قدم لها أوصافا مسهبة مفيدة• ولكن قيمته الكبرى تكمن فى اقدام فينكلر لأول مرة على محاولة دراسة العادات والتقاليد والمعتقدات المصرية دراسة علمية ومنهجية دقيقة •

وقد كان هدفه البعيد انشاء أطلس للفولكلور المصرى . وهـو الهدف الذى لم يستطع هو نفسه تحقيقه . ولقد كان فينكلر واعيـا كل الوعى بأن كتابه ليس سوى « تخطيطا عاما للفولكلور المصرى ــ على حد تعبيره . ولكنه حاول مع ذلك أن يقدم فى آخر كتابه تقسـيما للمنـاطق الثقافية الستة فى مصر ، وهى فى رأيه :

١ ــ جنوب الصعيد (من غرب أسوان الى نزلة عبد الله) .

٢ ــ شمال الصعيد (من نزلة عبد الله الى بداية الدلتا) .

٣ ــ الوجه البحـرى .

وأضاف الى هذه المناطق الثلاث الواقعة فى وادى النيـل ثلاث مناطق أخرى هى :

٤ ــ الواحات الخارجة .

٥ ــ بدو العبـابدة .

٦ ــ أنصاف البدو العرب : العزايزة .

ولا شك أن لمثل هذا التقسيم ما يبرره الا أن هنـاك استثاءات متعددة له ، بحيث لا يسعنا الا أن نعتبره تقسيما مؤقتـا . ولن يتيسر وضع تقسيم أكيد للمناطق الثقافية الا بعد ظهور عـديد من الدراسات والبحوث فى شتى المجالات الاجتماعية . وقد ضرب فينكلر أيضا المثـل لهذه الدراسات المونوجرافية بالدراسة التى نشرها عن القرية الصعيدية « الكيمان » التابعة لمحافظة قنا . وتتضمن هذه الدراسة مادة وفيرة عن عادات الموت طبعا .

وقد حاول بعد ذلك محمد جـلال أن يدرس عادات الموت فى مصر المعاصرة كلها • وقد كان له الفضل فى اقدامه كأول مصرى على تسجيل ملاحظات على هذا الموضوع بمثل هذه الدرجة من الدقة العلمية • وقد كان يدقق ويفحص المعلومات التى يتلقـاها وهو أمر لازم وضرورى • تدلنا على ذلك ــ على سبيل المثال ــ ملاحظته التى قال فيها انه لم يأخذ بيانات عمد القرى التى درسها هكذا دون تحفظ : « لأنهم كانوا يريدون فقط رسم صورة مشرفة لقراهم » • كما أن المعلومات التى تم الحصول عليها من الفلاحين مقابل هدايا لا يمكن أن نعتبرها آكيدة • وهى قاعدة تصدق على جميع البحوث والاستفتاءات الاثنولوجية والفـولكلورية • وليس على فلاحى جلال فحسب ، وانما على كل دليل فى بحوث من هذا النوع على الاطلاق • ولذلك اختار جلال طريقة الملاحظة المباشرة ، وغنى عن البيان أن مصريته قد أفادته افادة كبرى فى دراسة هـــذا الموضوع الحـرج •

ويسلم جلال نفسه بأنه لم يتتبع أى عادة من هذه العادات تتبعـا تاريخيا • ومن المؤسف أيضا أنه لم يذكر أى شواهد من الكتب • وقد جمع مادته من خمس محافظات مصرية : الشرقية ، والبحيرة ، وأسيوط وأسوان والقاهرة على اعتبارها أكثر تمثيلا • دون أن يفسر لنا ما يقصده بكلمة « ممثلين » هذه •

على أن وجه النقص الخطير عند جلال هو أنه يخلق لدى القـارىء الانطباع بأن مصر كلها وحدة ثقافية واحدة • وبغض النظـر عن بعض الحالات الاستثنائية فانه لا يوضح الاقليم الذى توجـد فيه العادة التى يتناولها • وقد ترتب على هذا صعوبة تكوين صورة عن عادات الموت فى

كل اقليم من الأقاليم التى درسها ، طبعا ولا عن الاختلافات داخل الاقليم الواحد • ولا بد من الاشارة الى أنه لم يستفد اطلاقا بمؤلفات فينكلر • ولم يكن هناك شك فى أن معرفته بها كانت ستنقذه من الوقوع فى الأخطاء المذكـورة •

ويستهدف بحثنا ــ علاوة على تقديم مادة جديدة لم تكن معروفة من قبل ــ توضيح المشكلات الأساسية التالية :

١ ــ هل يمكن القول بوجود ثبات فى عادات الموت عند مقارنة الوضع اليوم بما كان عليه فى العصر المملوكى ؟

٢ ــ هل كانت درجة الثبات والتغير فى جميع عادات الموت واحـدة لم تتغير ؟

٣ ــ واذا كان قد حدث نوع من التغير ، فعلى أى نحو حـدث وأى المؤثرات المـادية والفكرية هى التى أدت اليه ؟

٤ ــ هل هناك فروق جوهرية فى عادات الموت بين الأقاليم المدروسـة وبين الطبقات الاجتماعية وبعضها ، وبين الريف والمدينـة ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فأين يوجد مركز الثقل ؟ (ولو أنى واعية ازاء هذه المشكلة وعيا كاملا ــ بادىء ذى بدء ــ بأننى لن أستطيع التوصـل الى أكثر من اشارات ومبادىء عامة • نظـرا لأن الأشخاص الذين سألتهم لا يمثلون جميع المناطق المصرية ، كمـا أن المصادر التى ترجع الى العصر المملوكى لا تتعرض لمثل هـذه الفـروق) •

٥ ــ ما هى العـلاقة بين الدين الصحيح وبين العادات والممارسـات الشعبية فيما يتعلق بعادات الموت فى العصر المملوكى واليوم ؟

عرض للمحتويات

تنقسم الرسالة الى مقدمة وثلاثة أبواب تضم أحد عشر فصلا وخاتمة بنتائج البحث وثلاثة ملاحق ، ثم فهرس بالمراجع والمصادر .

وتتكون المقدمة من قسمين ، الأول خاص بالمصادر ، وينقسم بدوره الى خمسة فقرات هى :

(ا) المصادر التاريخية

(ب) مؤلفات دينية شعبية

(جـ) كتب الرحلات الأوروبية

(د) مؤلفات علمية حديثة

هـ) الدراسة الميدانية

أما القسم الثانى من المقدمة فيعرض للمستوى الذى وصل اليه البحث فى الموضوع وأهداف البحث .

وقد سبق عرض المقدمة باستفاضة فى الجزء السابق ، ولا داعى للمزيد من الحديث عنها هنا .

* * *

ويخصص الباب الأول للحديث المفصل عن وقوع الموت ، وينقسم الى أربعة فصول :

الفصل الأول :

بعنوان : « استعداد الحى للموت » • ويتناول هذا الفصل مظاهر استعداد الحى للموت سواء كانت ذات طبيعة مادية أو غير مادية •

وأشير فى مطلع الفصل الى أن عنصر استعداد الأحيـــاء للمـــوت بارز وهام فى حياة المصريين منذ عصور الفراعنة ، ولا زال موجودا حتى اليـــوم •

وكان المصرى ولا يزال يهتم فى وقت حياته باعداد قبره • كما كان يحرص على اختيار مكان دفنه ، فيفضل أن يدفن فى مكان قبـــره ، أو بجوار شخص معين •

وقد لوحظ هنا أن المصرى أصبح اليوم بصفة عامة أقل اهتماما بهذا الموضوع عما كان عليه من قبل •

ومن مظاهر استعداد الحى الأخرى للموت توفير الكفن الخاص به • ويتم ذلك اما عن طريق شراء الكفن فى أثناء الحياة أو تهيئة الموارد المالية اللازمة لذلك كى يشتريه الأقارب بعد وقوع الوفاة • وقد لوحظ هنا حرص النساء ــ وخاصة المسنات ــ على هذا أكثر من الرجال •

يأتى بعد هذا اســتدعاء الشخص ــ عندما يحس بدنو أجله ــ لأقاربه المقربين كى يفضى اليهم بوصيته • ومن الموضوعات التى تتناولها مثل هذه الوصية ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ تعليمات بشأن معاملة الجثة بعد الموت : من الذى يجب أن يقوم بالغســـل والتكفين ويؤم الصلاة ، ومن الذى يجب استبعاده على أى حال من القيام بعمل من هذه الأعمال والرغبة فى أن يهمس له أحد بالشهادة فى أذنه عند طلوع الروح، والرغبة فى أن يوضع معه فى القبر شىء معين ، وأن يقرأ عليه القرآن

أشخاص معينون معروفون بتقواهم ، وأن يعمل له سرادق ضخم أو لا يعمل ، واستخدام كفن ذو مواصفات معينة وألا يناح عليهم .. الخ. وقد لوحظ فى هذا الصدد أن الوصـــايا التى لا تتفق وتعاليم الدين الصـــحيح أكثر من تلك التى تتواءم وروح الدين . ونذكر من تلك المجموعة على سبيل المثال ، الرغبة فى أن يوزع الميراث على نحو معين مخالف لما سيتبع شرعا ... الخ .

وهناك اليوم ظاهرة جديدة هى عبارة عن وصايا مطبوعة يملؤها الشخص باسمه وتوقيعه ويتركها لأقاربه . ومن الطبيعى أنها تتكون من تعاليم عامة بالتزام الروح الدينية . وقد ترجمت احدى هذه الوصايا — التى كانت يحوزه أحد من أجريت عليهم الدراسة العملية — ونشرت مع بعض التعليقات كملحق رقم (١) للرسالة .

ومن « الأعمال الطيبة » قبل طلوع الروح توزيع الصدقات على الفقراء . ثم هناك بعض الناس يحرصون على الاســتحمام والتطهير ليخرجوا من الحياة وهم على طهارة . ثم هناك الاتجاه التصوفى والدينى العام الذى يطلب من كل انسان أن يتوقع قدوم الموت فى كل لحظة . والأدعية التى تقال قبل النوم على اعتباره « الموتة الصغرى » .

ومن المظاهر الأخرى للاستعداد للموت تصفية جميع المشــكلات المتعلقة بالعمل وبملكية الثروة وتسديد الدين ... الخ .

الفصل الثانى :

بعنوان : « العلامات التى تنبىء بوقوع حالة وفاة » .

والمقصود هنا طبعا دلالتها فى المعتقد الشعبى . حيث يعتقد الناس بوجود مجموعة من العلامات والظواهر المرتبطة بوقوع حالة وفاة .

ويمكننا فى هذا الصدد التمييز بين حوادث تنبىء بالموت وتقوم على تدخل الانسان نفسه ، وأخرى لا دخل للانسان فيها • ونذكر من المجموعة الأولى الأحلام التى يراها الشخص نفسه ، وليس هنا مجال العرض المفصل للرموز التى تدل على وقوع وفاة ، فهذا باب مستقل من أبواب المعتقدات الشعبية فيه مؤلفات وتراث شفاهى كبير • وقد اتضح من البحث أن الدور الذى يلعبه هذا النوع من الأحلام لا زال قائما من العصر المملوكى حتى اليوم • ويعتبر من هذا النوع بعض العلامات التى تظهر على المريض نفسه ، والتى ينتبه لها المحيطون به جيدا ويحرصون على تفسيرها •

أما النوع الآخر من هذه العلامات والتى لا دخل للشخص نفسه فيها فأكثر من النوع الأول بكثير • من هذا مثلا أن ينبىء شخص آخر بوقوع هذا الموت ، سواء لكونه رآه فى الحلم ، أو لكونه وليا أو مجذوبا • وقد اتضح ضعف الاعتقاد فى هذا العصر الحاضر ، وذلك بالقياس على ما كان عليه أيام المماليك •

يأتى بعد هذا الاستدلال من الكلمات العارضة على وقوع حالة وفاة ويدخل هذا فى باب التطير بكلمات أو اشارات معينة فى مناسبة معينة • كذلك يعتبر صياح البومة أمام نافذة مريض أو فوق سطح منزله من بين هذا النوع من العلامات • ولم يتضح من البحث ما اذا كان هذا المعتقد معروفا منذ العصر المملوكى أم أنه تصور حديث ورد فى تاريخ حديث • كما أن تكرار صياح كلب فى نفس المكان عدة ليال متعددة وبطريقة تشبه عواء الذئب يدل على قرب وقوع حالة وفاة فى هذا المكان •

ومن العلامات الأخرى : دخول شخص يرتدى السواد على شخص مريض جدا ووقوع وتكسر صورة أحد الأشخاص ، ودخول « ندابة » على أحد البيوت فجأة دون أن يطلبهـا ، وعندما يكنس البيت وفيه شخص مريض أو يضيع أو يسرق من البيت شيء فى تلك الفترة ، وعندما يظل الطفل الرضيع يبكى بحرقة دون انقطاع ، وعندما يحك كلب ذيله فى أرضية البيت لدى خروجه منه ، وعندما يحدث خسوف للشمس ... الخ .

الفصل الثالث :

بعنوان : « سلوك الميت والمحيطون به قبيل وقوع الوفاة وبعدها » .

عندما يشعر الشخص بدنو أجله يستدعى أقاربه وأصدقاءه وغيرهم من المقربين اليه ليفضى اليهم بآخر رغباته وهى ممارسة كانت منتشرة بين جميع طبقات الشعب وفئاته ابتداء من الحكام حتى أبسط الناس .

أما من حيث مضمون ما يقال فى تلك اللحظات فقد سبقت الاشارة اليه فى الفصل الأول الخاص باستعداد الحى للموت . مع ملاحظـة أن هناك دائما بعض الرغبات أو الأسرار الخاصة التى يرجئها الشخص الى النزع الأخير . وكذلك تصفية المشاحنات أو طلبه العفو من أحد . كذلك يحرص الشخص التقى ــ عندما يحس بدنو أجله ــ على التوضؤ كى يموت على طهارة .

تأتى بعد هذا عملية تلقين الشهادة للميت وهى مسألة يحرص عليها المحيطون به أشد الحرص . وقد احتلت هذه العملية قدرا كبيرا من اهتمام أصحاب المؤلفات الدينية الشعبية وملأوا كتبهم بحكايات عـن أهمية ذلك وضرورته (**نص توضيحى مفصل من كتاب ابن الحاج**) .

أما اذا كان الميت قد أصبح فى حالة عجز عن نطق الشهادة ، فان المحيطين به يحرصون على نطقها أمامه ٠

هناك علاوة على هذا بعض الممارسات التى تستهدف « تسـهيل عملية طلوع الروح على الميت » ٠ اذ يعتقد أن عملية طلوع الروح ترتبط بآلام جسمانية شديدة ٠ ولذلك يدعو له المحيطون به لهذا الغرض ٠ كما يقوم أحد المحيطين به بهمس الآذان له فى أذنه عندما يحس أنه فى النزع الأخير ٠ ويقوم واحد بتلاوة شىء من القرآن ٠

واذا ما دنت النهاية قطر له شىء من الماء فى فمه ٠ وهنا يحاولون ابعاد الأهل أو الأصدقاء المقربين من جواره ٠

وبعد أن تنتهى عملية منازعة الموت ، وتنهـار مقاومة الشخص ٠ يحاول الواقفون التوثق من وقوع الموت فعلا ٠ وهناك عدة علامات ــ فى نظر المعتقد الشعبى ــ تدل على ذلك ٠ نذكر منها على سبيل المثال : توقف القلب عن الدق وبرودة الجسم ، ولا يحس عند وخز قدمه بابرة ... الخ ٠ وعادة ما يكون فى القرية شخص أو أكثر على جانب كبير من الدراية فى هذا الموضوع ، يتم اسـتدعاؤهم الواحد بعد الآخر للتحقق من ذلك ، اذا ما كان هناك شك كبير ٠

(عرض للأدعية والنصوص التى تتلى فى العادة بعد اعلان الموت نهائيا) ٠ ومنذ هذه اللحظة تبدأ فترة الحداد بكل مظاهرها الخاصة بها ٠

يلى ذلك عرض للممارسات التى تتم بعد ذلك مثل : اغلاق عينى الميت ٠ (كيفية حدوث ذلك وتبريره) ٠ اغلاق الفم وربطه ووصـف تفصيلى لكيفية حدوث ذلك ٠ توجيه الجثة ناحية القبلة ٠ وفرد الجسد ٠ فتح نافذة الغرفة الموجودة بها الجثة فى ذلك الوقت ٠ نزع الملابس عن

الميت ، والباسه ملابس أخرى (كيفية ذلك ومبرراته) • وملاحظة أن هناك من يترك عليه الملابس التى توفى بها حتى ساعة الغسل • تغطية الجثة ، وبدء الصراخ والعويل داخل المنزل •

بدء عمليات الاستعداد اللازمة لاستقبال المعزين والدفن • توزيع هذه الأعمال على الأقارب والأصدقاء والجيران • ويتجمع الجيران على صراخ سيدات الأسرة وعويلهن • وتبدأ بعض السيدات القادمات العويل وهن فى الطريق الى المنزل • (تمزيق الملابس ولطم الخدود) •

وهناك علاوة على هذا عادة أخرى لم نجد لها شواهد الا فى العصر الحديث فقط . حيث وردت عند « نية سليمة » وبعض الأشخاص الذين تناولتهم الدراسة العملية • ألا وهى وضع الميت على عدد من مراتب السرير • وتجلس النساء حول هذه المراتب تبكى وتولول • على حين اتضح أن العادة فى مناطق أخرى أن تتجمع هؤلاء النساء فى حجرة مجاورة للحجرة التى يرقد فيها الميت •

وهناك عادة أخرى لعلها استبدال للعادة السابقة ، ألا وهى جمع عدد من المقرئين — أو مقرىء واحد — لقراءة القرآن باستمرار حول الجثة حتى تبدأ عمليات الاعداد للدفن •

وكان يحدث فى العصر المملوكى أن يوضع حجر ثقيل على بطن الميت لتجنب انتفاخها • وقد جعلت الظروف الحديثة مثل هذا السلوك عديم القيمة ، اذ لم تعد عملية الدفن تتأخر كثيرا •

استعراضا لما يحدث اذا ما حتمت الظروف مبيت الجثة فى المنزل • سلوك الموجودين فى المنزل : الجلوس ، قراءة القرآن ، الصراخ والعويل ، اقامة حلقات ذكر ••• الخ • ماذا يفعل فى الحجرة التى كان الميت راقدا

فيها وذلك بعد اخراج الجثة من المنزل : قراءة القرآن فيها طوال الليلة التالية ، ايقاد شمعة ووضع وعاء به لبن زيادى ورغيف خبز وشىء من الملح . ويأخذ المقرىء هذه الأشياء معه عند مغادرته المنزل . شبه مذهل بين هذه الممارسات الحديثة وبين ما ورد فى هذا الصدد عند ابن الحاج على اعتباره بدعة يجب محاربتها .

تصرف أقارب الميت بالأشياء الخاصة به : كالملابس والمجوهرات والحجرة الخاصة ... الخ . عرض لهذه التصرفات ومناقشة لتفسيراتها فى المعتقد الشعبى .

هل هناك ممارسات وقيود خاصة تفرض على الأشخاص الذين حضروا طلوع الروح ، ما هى وما هى مصادرها .

الفصل الرابع :

« اعلان الوفاة » :

« اعلان الوفاة » : يقع عبء اعلان الوفاة فى أغلب الأحوال على عاتق أقارب الميت . معرفة الجيران القريبين عن طريق صراخ سيدات الأسرة كما أشرنا من قبل . الزائرات المولولات فى الطريق الى المنزل يعملن أيضا على نشر الخبر .

كما يحدث فى بعض الأحيان أن تخرج سيدات الأسرة الى الطريق يصرخن بعد وقوع الوفاة مباشرة . لم يمكن على أساس المادة المجموعة أن تحدد ما اذا كان هذا السلوك عادة اجتماعية ، أو ممارسة تلقائية تقوم بها النسوة كرد فعل للمفاجأة الكبيرة . ولو أن جلال ذكر عادة مؤداها أن تتجول سيدة من الجيران أو الاصدقاء المقربين وبصحبتها حوالى ٥ الى ٧ سيدات يصرخن فى شوارع القرية ، بادئات من اليمين . اشارة للوضع المشابه الذى تحدث عنه « روبيل » بالنسبة للنوبة .

وحديث « شابرول » عن عادة قريبة منهـا • حيث تتجه مجموعة من السـيدات الى مؤذن المسجد لاخطاره بحـالة الوفاة وطلب الندابة منه) •

أما اليوم فلم يعد الصراخ وسيلة لاعلان الوفاة فى المدن ، اللهم الا فى بعض الأحياء المتخلفة • أما فى الريف فلا تلعب الفروق الاجتماعية دورا كبيرا كما هو الحال فى المدينة • (اشارة الى الانتشـار الجغرافى لهذه الممارسة اليوم) •

ومن الوسائل الأخرى لاعلان الوفاة فى بعض قرى الوجه البحرى، وهو أن يرسل رئيس الفرقة الموسيقية بالقرية واحـدا من فرقته يظل واقفا أمام البيت طالما الجثة فيه • يضرب طبلته بايقاع معين يعرف منه أبناء القرية خبر وقوع الوفاة •

ومن هذا أيضا ارسال رسل لاخطار أسر أو قرى مجاورة بالخبر• وهى وسيلة معروفة منذ فجر العصر الاسلامى • ولا زالت تسـتخدم حتى اليوم وان كان ذلك على نطاق أضيق •

على أن استخدام « مناد » لاعلان الوفاة هو أكثر طرق الاعلان شيوعا وهو يلف القرية يتلو صـيغة معينة يكررها فى كل حالة وفاة لا يتغير منها سوى اسم الميت وأسماء أقاربه • معلومات عن المنادى ، خط سيره ، الأدوات التى يستخدمها ، القرى التى يجب أن يزورها وطريقة دفع أجره ••• الخ • ملاحظة وجود شبه كبير بين ما كان يقوله المنادى اليوم وما كان يقوله فى الماضى (عرض لنماذج من هذه النصوص) •

طرق حديثة للاعلان عن الوفاة : اعلان هذا النص من مسجد لآخر بواسطة مكبر الصوت التابع للمسجد • وعدة مرات فى اليوم ، وتشترك

فى العملية مكبرات الصوت بجميع مساجد القرية حتى يقف الجميع على الحادث • (لم يحدث فى هذه الحالة تغير كبير فى النص) •

وطريقة أخرى حديثة من عاصمة احدى المحافظات : وهى طبع مضمون النداء فى اعلانات صغيرة ويدور شخص بدراجة فى شــوارع المدينة لتوزيعها على المارة • ولا يختلف مضمون هذه الاعلانات كثيرا عن اعلانات الوفيات التى تظهر فى الصحف اليومية •

اضطلاع الندابات فى بعض قرى الصعيد بمهمة المنادى هذه فى اعلان الوفاة •

اعلانات الوفيات فى الصحف • حديث عن دلالتها ومضــمونها • هذا وقد خصصت الملحق رقم ٢ للحديث بشىء من التفصيل عن اعلانات الوفيات فى الصحف بأنواعها : النعى ، المشاركة ، والشكر ، والذكرى ، وقد ترجمت فى هذا الملحق عدة نماذج من هذه الاعلانات •

***

الباب الثانى

استعدادات الدفن

مقـدمة :

يتضمن مفهوم « التجهيز » ــ أى تجهيز الجثة ــ عمليات الغسل، والتكفين والصلاة على الميت والدفن نفسه ٠ أى أنه يتضمن الصـلاة والدفن وهو ما لا نعتبره تجهيزا للدفن بالمعنى الحقيقى للكلمة ٠ ومن حق كل مسلم على اخوانه أن يجهز بهذه الأشياء الأربعة ٠ ويجازى الله بالثواب من يؤدى هذا الواجب ، على اعتبار أن له قيمة دينية ٠ ولهذا لا يصح مجازاة من يؤدى هذه الأعمال بالنقود ٠ حتى ولو كان الميت شخصا غريبا عنه ٠

وكما قلنا فان مفهوم التجهيز يتضمن هذه العمليات الأربعة ، بحيث أننا اذا قرأنا أو سمعنا أن شخصا قد جهز ، فان معنى ذلك أنها قد تمت جميعا حتى ولو لم ينص صراحة الا على عملية واحدة فقط ٠ ويصدق هذا بالذات على كتب التاريخ المملوكية ٠ فاذا ما جاء فيهـا مثلا أن شخصا معينا قد غسل الشخص المذكور ، فانه من المرجح أنه هو الذى صلى عليه وحضر دفنه أيضا ٠

ويؤدى نقص عملية من هـذه العمليات الأربع الى جعل الدفن ناقصا وغير صحيح من وجهة نظر الدين الرسمى والمعتقد الشعبى على السواء ٠٠ وواجب كل مسلم ــ وخاصة الحاكم ــ أن يحرص على أن ينال كل مسلم هذا التجهيز كاملا ، ووفقا للتعاليم الدينية ٠

وكانت تحدث أيام المماليك ، وقبلها أيضا فترات اضطراب من آن لآخر ٠ فكنا نجد شواهد كثيرة على أن الشخص أو الأشخاص الذين دفنوا دون غسل وصلاة ، قد حفر عليهم ، وأخرجت جثثهم لاستكمال

الطقوس الدينية واعادة دفنها من جديد • وقد عرضت بعض الأمثلة على هذا ، ومنها كثير عند المقريزى وابن اياس •

وتعتبر عمليات التجهيز جميعا ، وكذلك حمل النعش مثلا ، تعبيرا عن الاعزاز للميت ولذلك كان يقوم باعادة الميت عادة أقرب الأقارب أو الأصدقاء • وحتى اليوم وعلى الرغم من أن الغاسل المحترف والمكفن المحترف والحفار المحترف يقومون بهذا العمل فى كل مكان تقريبا ، نجد هؤلاء الأقارب والأصدقاء المقربين يحرصون على حضور هذه العمليات بأنفسهم • وتستند المشاركة المباشرة أو غير المباشرة على المعتقد الذى مؤداه أن الميت لا يزال يحس ويرى ويسمع كل ما حوله ، وان كان ذلك بروحه فقط •

ويحرص الناس على أن تدفع نفقات الاعداد بقدر الامكان من أموال الميت الخاصة • واذا لم يتيسر ذلك فيجب أن يدفعها ذووه • أما اذا كان هؤلاء بدورهم عاجزون عن دفع هذه المصاريف لأسباب مادية أو أى أسباب أخرى • فعلى أولياء الأمور فى البلاد أن يوفروا مصاريف الغسل ، والكفن ، والدفن •

وعلاوة على هذا يجب بعد وقوع الوفاة البدء على الفور فى عمليات اعداد الميت للدفن مباشرة • وكان يحدث فى بعض الأحيان — كما جاء عند ابن العطار — أن يتقاعس أقارب الميت عن تجهيز الجثة • ويحرصون بدلا من ذلك على مسائل استقبال المعزين ومجالستهم وما الى ذلك • والقاعدة اليوم أن عمليات الاعداد أصبحت تتم بسرعة كبيرة •

ومن القواعد الأساسية التى يجب مراعاتها فى جميع عمليات التجهيز معاملة الجثة معاملة رقيقة سواء كان ذلك عند الغسل أو التكفين أو مواراة التراب • ويستند هذا الى المعتقد الشعبى الذى أشرنا اليه من قبل ومؤداه أن الميت كالحى يحس ويرى ، وان كان بروحه فقط •

الفصل الأول ــ الغسل

(ا) القائم بالغسل :

وتتناول هذه الفقرة الخصائص ــ وخاصة الأخلاقية والدينية ــ التى يجب توافرها فى القائم بالغسل • تبرير هذا الورع من وجهة نظر المعتقد الشعبى • التعليمات التى يجب أن يلتزم بها الغاسل من حيث تكتم ما قد يراه أثناء الغسل ، ومعاملة الجثة برفق وتبرير ذلك • الوصية بتحديد شخص الغاسل •

الغسل كتعبير عن الاعزاز للميت ولذلك لا يترك لأى شخص يقوم به • وانما كان يضطلع به من قبل واحد من أقرب المقربين للميت • علاقة المماليك فيما بينهم كبديل لعلاقات القرابة بين الناس العاديين • واذا ما أدى هذه الأعمال عالم أو شخص آخر ذو دراية دينية كان زملاء وتلاميذ السلطان أو المملوك المتوفى يحرصون على الحضور •

أما اليوم حيث يؤدى هذا العمل غاسل محترف ، نجد أن بعض الأشخاص من الأقارب يحرصون على الحضور ، ويؤدون عمليات مساعدة بسيطة اذا ما لزم ذلك • (درجة قرابة الحضور) •

ظهور الغاسل المحترف بشكل متفوق منذ العصر المملوكى • ولو أنه كان يعتبر مصيرا أليما ألا يجد الميت من بين أهله أو أقاربه من يقوم على غسله وتجهيزه • ولذلك لم يكن استخدام الغاسل المحترف شيئا موضع تقدير • وقد كتب ابن الحاج يحلم بالعصر الاسلامى الأول الذى لم يكن السلف الصالح يعرفون فيه مغسلا أو مكفنا محترفا •

دفع أجر الغاسل • لم يكن يدفع للقريب أو الصديق الذى يقوم بالغسل كتعبير عن المحبة للميت أى أجر • حتى الغريب كان المفروض ألا يدفع له أجر عن ذلك • مناقشة تطور موضوع أجر الغاسل •

درجة شيوع استخدام الغاسل المحترف حتى أن وليم لين لم يذكر سوى مغسلين محترفين • وضع المغسل اليوم فى القرية ونظرة النـــاس اليه •

(ب) عملية الغسل نفسها :

وتتناول هـــذه الفقرة تفاصـــيل عملية الغســـل : ازالة شعر الميت وأظافره • وضـــع الحنة على الجســــم ومن يقوم بذلك • التصريح بالدفن • شراء المواد اللازمة للغسل • وصف تفصيلى لعملية الغســـل نفسها • ترتيبها ، ومراحلها الدقيقة • الصيغ والعبارات التى تتلى أثناء القيام بعملية الغسل • العطور التى تضاف لماء الغسل ، ومصدر الحصول على هذه المياه • درجة برودة الماء • عدد مرات الغسل • ترتيب الأعضاء عند الغسل • سد منافذ الجسم • ربط اليدين والقدمين • المكان الذى يتم فيه الغسل • الحديث عن المغسلة ، وصفها ، ملكيتها ، مقاساتها •

وقفة المغسل أثناء قيامه بعمله • وقواعد سلوكه وتصرفاته ساعة الغسل • مساعدوه •

التصرف فى المواد والأشياء المتبقية بعد انتهاء الغسل • المعتقدات الشعبية المرتبطة بهذه الأشـــياء وما يعزى اليهـــا من خصائص • تطهر الغاسل بعد الانتهاء من الغسل •

عادة وضع رغيف خبز ووعاء ماء لمدة ثلاثة أيام فى المكان الذى تم فيه الغسل • وهى ممارسة كانت معروفة فى العصر المملوكى ولا زالت موجودة بشكل متفرق حتى اليوم •

الفصل الثانى ـ « الكفن »

وظيفة الكفن بصفة عامة . القائم بعملية التكفين . شراء الكفن . الأقمشة التى يتكون منها : ملابس مستعملة أم قماش جديد . الحرص على استخدام قطعة ملابس لأحد الأولياء أو الصالحين فى تكفين الميت لما يعود على الميت من خير ورحمة بسبب هذا . قطع الملابس القديمة التى تلبس للميت قبل التكفين . وقلة انتشار هذه العادة اليوم . اذ أصبح السائد تكفين الميت فى أقمشة جديدة .

المكان الذى يتم فيه التكفين . عدد القطع التى تكون منها الكفن . مقاسات قطع الكفن . طريقة خياطته مع رسم توضيحى على صفحة ٩٣ من الرسالة . من يقوم بعملية خياطة الكفن وأين يتم ذلك . دعاء يقال أثناء خياطة الكفن . نوع القماش المستخدم فى العصر المملوكى ، واليوم . الألوان المفضلة لقماش الكفن . فروق طبقية فى استخدام الألوان ، وفروق فى سن الميت تؤدى الى تفاوت الألوان .

مصدر تمويل شراء الكفن . الحرص على شرائه من « مال حلال » والحرص على عدم استدانة تكاليفه من أى شخص غريب مهما تكن الأسباب . الاسراف فى اعداد الكفن وتحذير الدين الرسمى المتكرر من هذا الاسراف . أساس ذلك الاسراف المعتقد الشعبى بأن الموتى يتفاخرون فى مقابرهم بأكفانهم . وضع حديث مكذوب لتدعيم هذا المعتقد .

وصف لعملية لف الميت فى الكفن مع رسم توضيحى على صفحة ٩٩ من الرسالة . ربط الجثة فى عدة مواضع من الجسم : عند « بز الرجل » والركبتين والذراعين والرأس .

المواد العطرية التى توضع بين طبقات الكفن • عملية تبخير الكفن • الأماكن التى يحرص على وضع هذه المواد فيها •

حالات خاصة : طلاء قدمى ويدى الشباب من الجنسين بالحناء • تزيين الشابة التى ماتت عروسا • لون كفن خاص لمن تموت بعد الزواج بفترة وجيزة • عمل تاج لمثل هذه المتوفاة •

الفصل الثالث ـ النعش « الخشبة »

يجب الاشارة بادىء ذى بدء الى أن معظم مادة هذا الفصل مجموعة من مصر الحديثة أساسا • حقيقة أننا نستطيع الاستدلال بوضوح من الكتب والمخطوطات على أن النعش كان يستخدم دائما • ولكن هذه المصادر لا تتضمن أى معلومات تفصيلية عن مظهره ومقاساته • عرض للأسماء التى أطلقت وتطلق على النعش كالمحفة والتابوت ••• الخ •

وضع الجثة ـ بعد تكفينها ـ على النعش والقائم بهذه العملية وهو نفسه الذى قام بعملية التكفين • وجهة النعش •

مواصفات النعش : المادة المصنوع منها • مقاساته • شكله • وجود غطاء أو عدمه • عرض سريع للنماذج المختلفة مع تركيز على النموذجين المصورين للرسالة من الوجه البحرى والصعيد •

مكان وضع النعش أثناء اعداد الجثة • وأهمية هذه المسألة من حيث ارتباط ذلك ببعض المعتقدات الشعبية •

الأغطية والفرش الذى يستخدم لتغطية الجثة المكفنة عند وضعها فى النعش • رقدة الجثة داخل النعش • تزيين النعش فى حالة المرأة وفى

حالة الرجل • وبالنسبة للأطفال • الزينة الخاصة لنعش العروس • اشارة الى أماكن لا تعرف هذه الزينات • القائم بعمل هذه الزينات ان وجدت• صور مستحدثة لزينات النعش •

الفرق بين نعوش الفقراء ونعوش الأغنياء • مناقشة ملكية النعش والأغطية المستخدمة (فوق وتحت الجثة المكفنة) • اشارة الى مصـــدر تمويلها •

الباب الثالث

الفصل الأول ـ الجنازة

(أ) خروج النعش :

تتناول هذه الفقرة العادات التي تمارس في الفترة الواقعة بين وضع الجثة فى النعش وقبل بدء موكب الجنازة نفسه . ومن الجدير بالذكر أن الكتب والمخطوطات لم تحتو على أى اشارات بهذا الشأن ، الأمر الذى جعلنا نعتمد فى عرضه هذه الفقرة على نتائج الدراســة الميدانية وعلى ملاحظاتى الشخصية فقط .

الأشخاص الذين يبدأون بحمل النعش لاخراجه من البيت . بدأ اصطفاف المشاركين فى الجنازة والمنتظرين فى الخارج استعدادا لخروج النعش .

اشتداد الصراخ والعويل فى لحظة خروج النعش بحيث يصلان الذروة تماما . وصف تفصيلى . محاولات النساء منع النعش من الخروج من المنزل . احتياطات عند انزال النعش فى حالة وجود عدة طوابق مثلا . ذبح الكفارة تحت أقدام النعش لدى اخراجه . موقف الاسلام من هذه العادة .

(ب) المشاركة فى الجنازة :

يشارك فى الجنازة بصفة عامة الأقارب والأصدقاء والجيران . نظرة الى تطور حجم المشتركين فى الجنازة واتجاهه الى الانخفــاض بسبب التغير الذى طرأ على طرق الاعلان عن الوفاة . وبسبب ظروف الحياة الحضرية الحديثة .

مشاركة النساء فى الجنازة ، الموقف فى العصر الاسلامى الأول • ورأى الاسلام وعدم استطاعته فرض منع النساء من الخروج فى الجنازة• التطور التاريخى لهذا الوضع • الانتشار الجغرافى حاليا ، والفروق الطبقية حيث يلاحظ عدم مشاركة النساء فى الطبقات العليا والمتوسطة وحتى اذا اشتركن فراكبات عربات أو سيارات أو منفصلات عن ركب الجنازة •

مشاركة كبار القوم فى جنازة نظير لهم أو شخص ذى حيثية • صورة هذه المشاركة فى العصر المملوكى من حيث حرص السلطان على السير فى جنازة أمير أو ولى أو عالم •

بقايا هذا الوضع حاليا من حيث اشتراك مندوب عن رئيس الدولة فى جنازة العظماء • وقد يكتفى بدلا من الاشتراك بارسال برقية تعزية • صورة هذا فى القرية • ودور العمدة فى ذلك الصدد وربما المأمور أيضا أو نائب عنه •

عرض لأهمية المجموعات التى تشارك فى الجنازة مثل : اليمنية ، ممثلو الطرق الصوفية • بعض القراء ، المغسلون ومساعدوهم • الندابات ••• الخ • اشارة الى مشاركة هذه المجموعات فى العصر المملوكى •

(ج) حاملو النعش :

يقوم بحمل النعش عادة أقرب الأقارب والأصدقاء • ونادرا ما تستخدم عربة أو سيارة لحمل النعش من المنزل الى القبر مباشرة • عدد الحاملين ، تيغيرهم أثناء الطريق •

ويدلنا هذا التغيير المتكرر فى الحاملين ـ الذى قد يشارك فيه بعض المارة أيضا ـ على أن الحمل يعتبر مظهرا لاعزاز الميت ، وعملا مثابا أصلا •

اتجاهات جديدة للتغير فى هذا الموضوع ، ظهرت معـالمها الآن فى القاهرة وبعض عواصم المحافظات ومنها أن طول المســافات بين معظم الأحياء السكنية والجبانات قد حتم قطع المسافة الطويلة فى سيارة .

ولو أن الناس لا زالت تحرص فى جميع هذه الحالات على أن تقطع المسافة من المنزل الى المسجد سيرا على الأقدام . حيث تتم هناك الصلاة على الميت .

وكما هو الحال بالنسبة لمشاركة العظماء فى السير فى الجنازة تعتبر مشاركتهم فى حمل النعش مظهرا لتكريم الميت .

ظاهرة جديدة فى المدن الكبرى اليوم وهى اشــتراك الحمـالين المحترفين فى حمل النعش . الاشارة الى وظيفة الحمال ووظيفة الغاسل فى العصور السابقة .

(د) وصف الجنازة :

من الممكن اذا تتبعنا وصف الجنازة منذ العصر الفرعونى أن نلاحظ وجود ترتيب فيها . ذلك أنه على الرغم من حــدوث تغـير فى عـلاقة المشتركين بالميت وفى تركيب الجنازة ، فلا زال هناك نظام معين له معالمه محـددة .

الخطوط العامة لهذا الترتيب فى العصر الفرعونى . الاشـارة الى الوضع فى العصر المملوكى . الفئات الأخرى التى تشــترك فى الجنازة وترتيبها فى الجنازة واشارة الى الصيغ والدعــوات التى يتلوها رجال الطرق الصوفية والدراويش خلف الجنازة .

وصف الجنازة عند وليم لين مع تتبع ما طرأ عليه من تغير من واقع الدراسات والملاحظات الحديثة . ظاهرة كانت شائعة من قبـل وكادت تختفى : النساء اللائى يتبعن الجنازة ملطخات وجوههن بالطين . اشتراك الندابات فى الجنازة .

الفروق بين جنازات الأغنياء والوجهاء وبين الجنازات العـادية . وهى لا تختلف عنها فى أى صفات أساسية وانما فى زيادة عدد المشتركين وعدم مشاركة النساء بالسير والمبالغة فى الاهتمام بالكفارة . الفرق بين جنازات النساء والأطفال وجنازات الرجال .

استعراض لمـا طرأ من تغييرات على هذه الخطوط العامة.وتصوير للوضع اليوم . الاشارة الى نقطة سرعة سير الجنـــازة نظرا لمـا يدور حولها فى المعتقد الشعبى من تفسيرات . وخاصة عند المبـالغة فى السرعة أو فى البطء ومدلولات ذلك . توقف النعش عند مكان معين أثناء سير الجنازة وتفسير ذلك ، أو عدم رغبته فى مغادرة المكان الذى سيبدأ منه الموكب . ماذا يجب أن يفعل المشتركون فى الجنازة اذا ما أصر «الميت» على عدم مغادرة المكان الذى توقف فيه .

حالة الجو ساعة سير الجنازة والاستدلال منها على المصـير الذى سيلقاه الميت . ملاحظة أخيرة حول عدد المشتركين فى الجنـازة ودلالة ذلك . فكلما ارتفعت مكانة الميت كلمـا زاد هــذا العـدد والعكس بالعكس .

(هـ) سلوك المارة :

لا يتحذ المارة فى الشارع موقفا سلبيا من الجنازة بل ان عليهم أن يقولوا شيئا وأن يفعلوا شيئا اذا ما رأوا جنـازة تمر بهم . فى حالات قليلة ينضمون الى الجنازة ويسيرون خلفها . تبرير ذلك .

فى بعض الأحيان يشترك المارة فى حمل النعش لمسافة قصيرة • مصير هذه العادةاليوم • ومن الممارسات الأخرى أن تعمد بعض السيدات من المارة الى ملامسة النعش • تفسير ذلك •

وموقف الجالسين فى الشارع تحية للجنازة المارة • العبارات التى تقال لحظة مرور الجنازة • نصها • ذكر الميت المار بالخير وترك الحديث عن مساوئه •

(و) الطريق الذى تسلكه الجنازة :

يمكن القول بصفة عامة أن طريق الجنازة يبدأ من بيت الميت ـ الذى تم تجهيزه فيه ـ وينتهى عند القبر • وتتوقف الجنازة عادة مرة واحدة أمام أحد المساجد لأداء الصلاة على الميت • وينصح الدين الرسمى باتخاذ أقصر طريق الى الجبانة •

تلك هى الصورة العامة السائدة فى معظم قرى الريف • غير أنه طرأت فى القاهرة وبعض المدن الكبرى ظاهرة جديدة وهى أن تنتهى الجنازة عند المسجد • ومن هناك ينقل النعش وأقرب الأقارب والأصدقاء بالسيارات الى الجبانة •

واذا لم تسمح ظروف المسكن بالتجمع للجنازة فيه أو أمامه • فان النعش ينقل الى المسجد حيث يصلى عليه • وهناك يتجمع المشيعون وتبدأ الجنازة طريقها • ولم يعرف الريف بالطبع بعد هذه الظاهرة الجديدة •

الجولة التى يقوم بها موكب الجنازة خلال القرية ولزيارة أضرحة أوليائها • تفسيرات ذلك •

الفصل الثانى ــ الصلاة على الميت

لا شك أن هناك سؤالا أساسيا يطرح نفسه علينا فى مطلع هـــذا الفصل وهو : هل تستحق الصلاة على الميت وهى موضوع دينى بحت ــ أن تستأثر فى بحث كهذا بفصل مستقل • والرد على ذلك أننا لن نعرض هنا لعدد التكبيرات ولقواعد الطهارة الواجبة قبل الصلاة وما الى ذلك وانما للمعتقدات الشعبية المرتبطة بصلاة الجنازة ، والاشـــتراك فيها ، وشخصية الامام ومكان الصلاة ••• الخ •

(أ) مدلولها واهميتها :

لا شك أنه حدثت على مدى القرون تغيرات كثـــيرة فى عنـــاصر الصلاة : مكان أدائها ، ووقتها وما يقال فيها من دعوات ••• الخ • ولكن أهم تغير قد حدث ولا شك فيما يختص بمدلولها وأهميتها • استعراض تاريخى واستعراض للمعتقدات الحالية بشأنها للتدليل على هــذه النتيجة العـــامة •

(ب) الأشخاص المشتركون فى الصلاة :

الموقف العام للاسلام من المشاركة فى هذه الصــــلاة • ولا زال الشعب متمسكا بهذه النظرة يعتبر المشاركة عملا يثبب الله صـــاحبه • اشتراك أحد الأتقياء فى الصلاة يزيد من فاعليتها كرجاء لرحمـــة الميت وحسن قبوله • اشتراك النساء فى صلاة الجنازة • أقدم شاهد على ذلك من وليم لين ومناقشة لهذه النقطة ، من حيث بعدها التاريخى وتوزيعهـا الجغـــرافى •

(جـ) الامام :

الشروط التى يجب توافرها فيمن يؤم الصلاة • وقد حدث فى بعض هذه الشروط تغير ، وبقى بعضها علـى حاله • من الصفحات التى ظلت حتى اليوم ضرورة درايته بالقرآن وقواعد الصـلاة • ومن تلك التى تعرضت على مدى التاريخ : مكانته ، وأهميته الاجتماعية • اسـتعراض تاريخى للتدليل على ذلك •

(د) مكان الصـلاة :

اتضح من دراسة هذه النقطة أيضا الاتجاه العام نحو تحويل الصلاة الى طقس مظهرى يمارس دون وعى بمدلوله الأصـلى • اسـتعراض تاريخى • الميل الى اختيار مسجد كبير لأداء الصلاة وذلك بقدر الامكان اذا ما كان قربه يسمح بذلك • تفسير ذلك •

أداء الصلاة فى بعض الظروف الاستثنائية فى الجبـانة قبل الدفن مباشرة وذلك اذا ما حتم ضيق الوقت ذلك •

(هـ) توقيت الصلاة :

ليس هناك موعدا محددا لأداء الصلاة الا أنها يجب أن تتم قبـل الدفن على أى حال • الاشارة الى صلاة الغائب التى تمثل وضعا خاصا فى هذا الصدد •

(و) الصلاة نفسها :

وضع النعش فى المسجد • اصطفاف المصلين • عـدم التعـرض التفصيلى لأركان الصلاة من الناحية الفقهية • صيغ الدعاء أثناء الصلاة، مناقشـة •

الاهتمام بالعادات التى يبدو أنها تمارس خارج الصـــلاة ولكنها مرتبطة بها ارتباطا وثيقا • وقد وصف رجال الدين معظم هذه العـادات بأنها بدع وأفعال مستهجنة • عرض تفصيلى لهذه العادات بسبب أهميتها الفولكلورية الكبيرة ، ونظرا لأنها لم تحظ بالاهتمـام الكافى من جانب الباحثين الأوروبيين وهى :

١ ــ الشـــهادة

٢ ــ قراءة الفاتحة

٣ ــ الأدعيـــة

٤ ــ الطواف بالميت فى المسجد

٥ ــ التكبير بعد الأدعية •

مناقشة موضوع الصلاة على الميت أكثر من مرة ، والظروف التى كانت تفرض ذلك أو تشجع عليه • وملاحظة عدم وجود شواهد عـلى هذه الظاهرة من العصر الحديث •

(ز) الفترة بعد انتهاء الصلاة وقبل الدفن :

نظرا لأن أداء الصلاة على الميت يعتبر بمثابة انقطاع للجنازة ، فان المتبع بعد الصلاة أن تتابع الجنازة طريقها • تلقى العزاء من المشـــيعين ــ فى بعض الأحيان ــ بعد أداء الصلاة • وهم فى العادة أولئك الأشخاص الذين لن يواصلوا مع الجنازة حتى القبر لحضور الدفن ، ملاحظة الاتجاه العام ــ خاصة فى المدن الكبرى ــ نحو انهاء الجنازة عند المسجد •

الفصل الثالث ـ القبر

ملاحظة اولية :

الدفن هو الطريقة الوحيدة للتخلص من الجثة فى الاسلام • حيث لا يعرف الاسلام الأشكال الأخرى كحرق الجثة مثلا • لذلك سيتناول هذا الفصل القبر والجبانة بالدراسة •

اولا ـ الجبانة :

العلاقة المكانية بين موقع الجبانة والوحدة العمرانية (قرية أو مدينة) • الطابع العام فى مصر واختيار موقع منعزل للجبانة • كما يشترط فى مثل هذا الموقع الجفاف أى أن يكون مثلا بعيدا عن فيضان النيل • استعراض تاريخى •

هل يكون لكل وحدة عمرانية أكثر من جبانة • مناقشة ، مع استعراض جبانات القاهرة •

وصف تفصيلى للجبانة للتعرف على تكوينها والوحدات الأساسية التى تتكون منها • وصف الحوش • استعراض أقدم الشواهد على وجوده والشواهد الحالية • الاهتمام بالظروف السكنية وعوامل تيسير الاقامة فى الأحواش • مناقشة لهذا الموضوع مع عرض رأى الدين الرسمى من هذه الظاهرة • مستوى رعاية المصريين للقبور بصفة عامة •

ثانيا ـ القبر نفسه :

الاشارة فى البداية الى الاهتمام الكبير الذى حظى به هذا الموضوع فى دراسات الأوروبيين • وخاصة المستوى الرفيع الذى درس فيه عند العالم الألمانى هانز فينكلر •

وقد قسمت القبور بصفة عامة الى نوعين ، ينقسم كل منهما بدوره الى نوعين • النوع الرئيسى الأول هو : القبر الفردى ويدفن فيه شخص واحد • وينقسم الى نوعين فرعيين هما : الشق ، واللحد • حديث مفصل فى وصف كل منهما وتوزيعه الجغرافى •

النوع الرئيسى الثانى هو ، القبر الجماعى (قبر الأسرة) وينقسم هو الآخر الى نوعين • وصفهما بالتفصيل •

ثالثا ــ شاهد القبر :

دلالة الشاهد الذى يعرفه الشرق منذ أقدم العصور هى تحديد مكان القبر وتتضمن هذه الفقرة حديثا مفصلا عن أنواع الشاهد ، فهى تختلف تبعا لنوع القبر • ثم هى تختلف تبعا لنوع المدفون فى هذا القبر• فشاهد قبر امرأة يمكن أن يختلف عن شاهد قبر رجل •

رابعا ــ زينة القبر :

الأنواع الرئيسية لزينات القبور وهى : الطلاء باللون الأبيض والتزيين بالكتابات المختلفة والرسوم وزرع النباتات الخضراء والزهور على القبر • دلالة هذه الزينات اعتقاديا واجتماعيا • حديث تفصيلى عن كل نوع من أنواع هذه الزينات عن انتشاره •

خامسا ــ احتمالات الدفن خارج الجبانة :

حديث غير مطول عن هذه الاحتمالات المختلفة وهى :

(أ) دفن الصوفية فى زواياهم •

(ب) دفن الأثرياء ومن اليهم فى المدارس التى ينشئونها أثناء حياتهم •

(جـ) الدفن فى المساجد •

(د) الدفن فى البيوت •

الفصل الرابع ــ الدفن

(ا) عملية الدفن نفسها :

والأشخاص الذين يشتركون فيها : وهم فى العادة جميع المشتركين فى الجنازة أو من يتابعونها حتى القبر سواء على أقدامهم أو بالسيارات وفق ما أشرنا من قبل • اشتراك النساء وامكانياته •

اعداد القبر قبل وصول الجنازة ، لاتمام عمليــة الدفن بسرعة • القائم بهذه العملية وتطور مهنته ، رش أرض القبر بالحناء • ســـلوك الحاضرين أثناء اعداد القبر ، وأثناء الدفن •

من الذى يساعد « الطربى » فى عملية الدفن • وايضـــاح النظرة العامة لهذه العملية ، وهى أنها مظهر لاعزاز الميت وان كانت تتفوق فى الأهمية على بقية عمليات التجهيز الأخرى كالغسل والتكفين ، وحمــل النعش •

وصف تفصيلى لعملية الدفن • مع استعراض تاريخى واهتمـــام بالانتشار الجغرافى •

(ب) الأشياء التى توضع مع الميت فى قبره :

رغم ســعة انتشــار هــذه العادة فى معظم أنحاء العالم وفى مصر الفرعونية الا أن وجودها فى مصر الحديثة نادر جدا • الوضع فى العصر المملوكى ، موقف الدين الاسلامى من هذه العادة • فى مصر الحديثة •

(ج) تلقين الميت :

توقيت عملية التلقين • مغزى التلقين وهو القدرة عــلى الرد على الملكين منكر ونكير •

الشخص القائم بالتلقين • نص الكلمات التى تلقن للميت • موقف المذاهب من التلقين • الانتشار الجغرافى للتلقين وقلته فى الصعيد وفقا لمعلومات جلال • وتفسير ذلك فى رأيى بأن غالبية الصعيد تدين بالمذهب المالكى الذى يكره التلقين •

(د) القراءة على القبر :

قراءة القرآن وتوقيتها • موقف الاسلام منها • تفضيل سور معينة لهذه القراءة • طبيعة القراء فى فترة ما بعد الدفن • قراءة القرآن على القبر فى مناسبات أخرى • طقس آخر خاص باتباع الطرق الصوفية : هو : المسبحة ، تعريف به ، صلاة عدة ركعات على القبر •

(هـ) الكفارة :

الكفارة تنقل مع الجنازة من البيت الى القبر • يمكن أن تتكون من مواد مختلفة ، خراف ، خبز ، ماشية ، نقود ، ماء وخبز ، لحوم حيوانات مذبوحة ، برتقال ، بلح جاف • وغير ذلك •

اختلاف أنواع وكميات الكفارة تبعا للظروف الاقتصادية للأسرة واشارة الى أن بعض الأسر يمكن أن ترهق نفسها ماليا فى هذا الصدد من أجل الظهور اجتماعيا •

استمرار هذه العادة فى مصر حتى اليوم رغم مقاومتها بعنف من جانب الاسلام • فهى قديمة متأصلة فرعونية وجاهلية فى نفس الوقت • وجود شواهد على وجودها فى كل العصور • توزيعها اليوم طبقيا •

توقيت عملية الذبح • عرض البيانات المختلفة ، التى تتفاوت فى تحديد وقت الذبح • الصدقة على القبر •

(و) عادات اخرى :

يتم عند القبر دفع أجور بعض الفئات التى اشتركت فى التجهيــــز ولو أنه لم يتيسر جمع شواهد على ذلك من العصر الحاضر •

رش المـــاء على القبر بعد الدفن • موقف الاسلام من هــذه العادة وضع بعض النباتات الخضراء على القبر بعد الدفن •

ايقاد مصباح أو شمعة على القبر فى مساء يوم الدفن • هجوم رجال الدين بشدة على هذه العادة • شاهد على وجودها اليوم •

(ز) التعزية على القبر :

التعزية على القبر بعد الدفن وقبل مغادرة الجبـــانة • انتشـــاره جغـــرافيا •



نتائج البحث

استطاع هـــذا البحث أن يضيف الى دراسة عادات الموت مادة جديدة ، مستندا فى ذلك الى نتائج الدراسة الميدانية وملاحظات الباحث الخاصة والاستعانة بمصادر معظمها مخطوط ترجع الى العصر المملوكى ولم تنشر أو تدرس حتى الآن . علاوة على هــذا اتضحت الاتجاهات التالية فى الاجابة على التساؤلات التى طرحت فى مطلع هـــذا البحث والخاصة بالثبات والتغير فى عادات الموت :

أولا : اتضح بادىء ذى بدء أن الاتجاه الى الثبات فى عادات الموت أوضح ما يكون اذا ما قورن بالعادات الأخرى كالميلاد والزواج . ويبدو هذا ـ على سبيل المثال ـ فى أن المؤثرات الأوربية لم تستطع أن تصبح ذات فاعلية فى هذا الميدان . حقيقة أنه حدثت تغيرات فى عادات الموت ، ولكنها لم تصب سوى جوانب فرعية . وكان معدل التغير شديدالتفاوت. وكان التغير فى عادات الموت أوضح ما يكون عندما تعرضت ظروف الحياة فى مجموعها للتغير .

وفيما يلى بعض الاتجاهات العامة فى التغير :

هناك بعض العادات التى فقدت معناها الأصلى الى حد بعيد وهبطت الى مستوى طقس شكلى . وتعتبر الصلاة على الميت من أحسن الأمثلة على ذلك . فقد كانت فى فجر العصر الاسلامى وحتى العصور الوسطى أهم حدث قبل الدفن . فقد كان الاعتقاد السائد فى تلك الأيام أن هــذه الصلاة تمثل مساعدة حاسمة للميت عند الحساب . ولكن هــذه الفكرة أخذت تشحب مع الأيام . وفقدت صلاة الجنازة مكانتها الأساسية التى كانت تحتلها . ويبدو هذا الاتجاه فى هبوط المكانة الدينية والاجتماعية

لمن يؤم الصلاة . كما يبدو أيضا فى أنه لم يعد يصلى على الميت فى الوقت الحاضر سوى مرة واحدة ، على حين كان يحدث فى أحوال غير قليلة فى الماضى أن يصلى أكثر من مرة .

وكان من جراء المظهرية والشكلية التى طرأت على العادات ، أن تحولت بعض الممارسات التى كانت تؤدى فى الماضى اعزازا للميت والتى كان يضطلع بها أقرب أقاربه الميت وأصدقائه ، تحولت الى أعمال محترفة . نذكر من هذا على سبيل المثال بعض الأعمال السابقة على الدفن كالغسل وحمل النعش ، والصلاة على الميت ، وحفر القبر وتجهيزه للدفن . وكان الوضع بالنسبة للمماليك أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ـ بفضل حالة العبودية السابقة ـ مرتبطين ارتباطا وثيقا يرقى الى مستوى القرابة . ولهذا كان المماليك يضطلعون عادة بواجب تجهيز زميلهم ، مهما كانت رتبته . أما اليوم فقد أصبحت هناك مهن متخصصة لهذه الأعمال ، كالغاسل والغاسلة وحامل النعش والامام والحفار .

وقد ظهرت فى العصر المملوكى ارهاصات هذا الاتجاه الجديد . يبدو ذلك فى وجود اسم خاص للغاسل ، ونقصد به هنا طبعا العامل المحترف . ولكنا نرى عند المقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ/١٤٤٢ م) ـ الذى كان يكتب عن غاسل محترف ـ أنه كان يعتبر نهاية تعسة للميت ألا يجد عند موته من الأهل أو العلماء من يقوم على تغسيله . وهى العملية التى تتم وفقا لطقوس معينة . ويبدو أن العصر المملوكى كان بمثابة فترة انتقال فى هذا الصدد .

وتبدو آثار حرص المقربين للميت على أداء عمليات التجهيز بأنفسهم فى الماضى فى حقهم وواجبهم اليوم فى الاشراف على هذه العمليات التى يضطلع بها المحترفون . ويعتمد هذا الحق على المعتقد الذى لا زال

سائدا عند الشعب ومؤداه أن الميت كالحى تماما يشعر ويرى كل شىء وان كان بروحه فقط . ولهذا السبب يحرص الناس حرصا شديدا على معاملة الجثة برفق ورقة .

ثانيا : اتضحت فى هذا البحث لأول مرة بعض معالم الفروق الاقليمية على الرغم من أنه لا يمكن القول بأن مادة هذا البحث قد شملت مصر بأكملها كما أنه لم يكن من المتيسر فى أن أتتبع كل جزء تفصيلى فى المنطقة كلها . ونحن نعلم طبعا أن المصادر المملوكية ومصادر أخرى أحدث منها بكثير لم تهتم بذلك اطلاقا .

وهكذا اتضح أن عادات الموت فى صعيد مصر قد حافظت على الشكل التقليدى أطول من الوجه البحرى . من هذا على سبيل المثال أنه لا يسمح للنساء فى الصعيد بالاشتراك فى الجنازة أو حضور الدفن . كما لا يحق لهن المبيت عند القبر ، على حين أن النساء فى بعض مناطق الوجه البحرى تستطيع قضاء عدة ليال عند القبر . وقد يرتبط الوضع بالظاهرة التى مؤداها أن قبور الصعيد لا تعرف الغرف الجانبية للزوار ، بينما توجد هذه الغرف فى الوجه البحرى . وتقيم النساء فى هذه الغرف عادة . وهناك شواهد أخرى على هذا الاتجاه نذكر منها على سبيل المثال ترك شعر الجسم الخاص بالعذارى فى الوجه البحرى دون ازالة ، وقيام النساء بخياطة الكفن فى الوجه البحرى أيضا . ربما ترجع هذه الفروق وغيرها الى كون المرأة فى الصعيد أكثر تخلفا بصفة عامة من المرأة فى الوجه البحرى .

ويتضح أحد الفروق الاقليمية المشابهة فيما يتصل بغسل الجثة . فلا زال الشائع فى الصعيد فقط ألا يستخدم فى الغسل سوى مياه الآبار (أى لا تستخدم مياه أنابيب الشرب) . ويجب بعد الغسل القاء هذا الماء

فى نفس الآبار • ويلاحظ أيضا ــ فى نفس الاتجاه ــ أن الوجه البحرى فقط هو الذى يعرف مسألة اعلان الوفاة بقرع الطبلة بايقاع معين • وهى طريقة للاعلان لم ترد عليها شواهد الا فى العصر الحـــديث • وأخـيرا فالصعيد فقط هو الذى يعرف أشكالا مختلفة من العـادات القبطيـــة والاسلامية ، فنرى رجال الدين القبطى يشاركون فى الدفن الاسلامى • كما يزور المسلمون حفلات الدفن عند الأقباط •

ونحب أن ننوه هنا بأن مثل هذه الفروق بين الصعيد والوجه البحرى قد اتضحت وأشير اليها فى بعض مجالات الحياة الأخرى • وربما يرجع القدر الأكبر منها الى أن الصعيد قد حفظ ــ فى ظروف كثيرة ــ من تأثير العوامل الخارجية •

ولا شك أن دراسة الفروق الاقليمية فى العـــادات المصرية ــ بل والحياة الشعبية المصرية على الاطلاق ــ من أهـداف البحوث الملحة فى الوقت الحاضر ، فهى الخطوة الأساسية والأولى فى ســبيل استخراج وتحديد معالم المناطق الثقافية فى مصر •

ثالثا : نلاحظ منـــذ أوائل القرن العشرين أن التناقض بين الريف والمدينة ــ الذى يتضح فى مصر كلها بنفس الطريقة ــ قد بدأ يطغى على الفروق الاقليمية القديمة • ويتوقف مدى وضوح هـــذا التناقض على ضخامة المدينة ودرجة عمرانها ، والظروف الاجتماعية لمواطنيها • ويبدو هذا الفرق أوضح ما يكون اذا ما قارنا العاصمة القاهرة بالمناطق الريفية•

ويمكن بصفة عامة ملاحظة السمات التالية : أن الاتجاه نحو اخراج المساعدة ودفع الأجر من النطاق الشخصى الى المعـاملة الموضـوعية لم يحدث حتى الآن الا فى المدن فقط تقريبا • وقد وردت بالنسبة للقاهرة شواهد من العصر المملوكى على وجود حمالين محترفين لحمل النعش •

ودلت الدراسة الميدانية على أن هذا التخصص الاحترافى يكاد لا يوجد اليوم الا فى المدن فقط ، ولا زال شيئا استثنائيا فى الريف .

كما أن الصفة العامة للحياة المدنية ، وهى التعامل النقدى ، تبدو واضحة فى عادات الموت أيضا . ويتلقى المساعدون الكثيرون فى المدن أجورهم نقدا عادة ، على حين لا زال القدر الأعظم منهم فى الريف يتلقى هذا الأجر عينا ، كما أن المواد الحديثة قد استخدمت فى المدينة لأول مرة.

ومن الأمثلة الأولى على ذلك استخدام الصابون فى غسل الميت . ويرجع أول شاهد على ذلك الى أوائل القرن التاسع عشر ، وهو من القاهرة أيضا . ومنذ ذلك التاريخ أخذ الغسل بالصابون ينتشر تدريجيا من المدن الى الريف . وأخذ النوع القديم من الغسل ــ بواسطة التوابل (المواد العطرية كالتوابل والسدر ... الخ) الى الدرجة الثانية . حيث لا يستخدم اليوم الا فى مرة الغسل الأخيرة .

تستخدم اليوم بكثرة فى المدن طرق الاعلان الحديثة عن الوفاة كالاعلانات المطبوعة التى توزع على الناس فى الشارع واعلانات الوفيات فى الصحف والبرق والتليفون . ولم يعد استخدامها قاصرا على المتيسرين فقط ، الذين كانوا قد استخدموها لأول مرة .

وسرعان ما انتشرت هذه الوسائل الفنية .. ذلك أن الوقت فى مصر بين وقوع الوفاة والدفن لا يتجاوز اليوم . لذلك لا يمكن أن تنفع الخطابات الشخصية ولا اعلانات الوفاة التى ترسل بالبريد للاعلان عن الوفاة بشكل فعال .

وقد اتضحت سمات تغير جديد فيما يختص بالجنازة . فعلى حين كان المعزون فى الماضى يشيعون الميت من البيت الذى توفى فيه الى

المسجد ، ثم يرافقونه من هناك الى القبر سيرا على الأقدام دائما • نجد اليوم ظاهرة تتكرر كثيرا فى المدن الكبرى ، ألا وهى انتهاء الجنازة عند المسجد • وأصبحت الجثة تنقل الى القبر بالسيارة بعد انتهاء صلاة الجنازة فى المسجد ، وينتقل بعض المشيعين الى الجبانة الواقعة ـ عادة ـ خارج المدينة بالسيارات الخاصة أو سيارات الأجرة •

وترجع مثل هذه القيود الى ظروف المرور الصعبة فى المدن الكبرى وافتقار انسان اليوم الى الوقت ، والى أن الصلات الشخصية فى المدينة أضعف منها فى الريف •

رابعا : تتضح الفروق الاجتماعية ـ التى ليست ظاهرة فى الريف بنفس وضوح ظهورها فى المدينة ـ فى التغير الذى يطرأ على شكل العادة • أما المضمون والتتابع فانهما يظلان على حاليهما • وترجع الفروق التى تنعكس على شكل الممارسة الاجتماعية ـ من ناحية ـ فى الامكانيات المالية الكبيرة للطبقات العليا ، وفى سرعة استخدام الأساليب الفنية من ناحية أخرى • وهى تتضح ـ على سبيل المثال ـ فى نوع الخشبة وقماش ولون وزينة الغطاء الذى يوضع على الخشبة •

وهناك شواهد كثيرة ـ منذ أوائل القرن التاسع عشر ـ على استخدام القطن بل والحرير فى صنع الأكفنة • التى تخيطها الأسرة لفقيدها • وتتفاوت نوعية الكفن وسعره تبعا للظروف المالية لأسرة المتوفى ، ابتداء من الطبقات العليا حتى أفقر الفقراء الذين لا يستطيعون أصلا دفع نفقات كفن جديد • فيدفنون ميتهم فى أقمشة مستعملة •

ونلاحظ فى الريف منذ الماضى وحتى اليوم أن عدد القرى التى يجوبها المنادى لاعلان حالة الوفاة يخضع لمدى أهمية المتوفى • فكلما ازدادت أهمية الميت كلما كثر عدد القرى التى يجب عليه أن يجوبها •

ثم يرجع عدد آخر من الفروق الاجتماعية الى تمسك الطبقـــات الفقيرة بالتراث فى عادات الموت بدرجة أقوى من الأغنياء ، الذين تحولت الصراحة عندهم الى أسلوب حياة • من هذا مثــلا أن النواح والعـويل كنوع من أنواع الاعلان عن الوفاة لم يعد معروفا الا فى الأحياء الفقيرة فى المدن • على حين أصبح المتيسرون يستخدمون الأساليب الفنية المختلفة لأداء نفس الغرض •

فكان الأغنياء هم الذين يبدأون دائما باستخدام اعلانات الوفيات فى الصحف والبرقيات والمكالمات التليفونية • بينما تأخر استخدام الفئات الأدنى الى ما بعد • ويشبه هذا استخدام عربات نقل الموتى لقطع المسافة من المسجد الى القبر •

خامسا : اتضح أن العادات التى يقع عبء تنفيــذها على النساء تتصف بميل الى الثبات أكثر من تلك التى يقوم الرجال بممارستها •

ولا شك أن من أسباب ذلك التى يجب أن نأخذها فى الاعتبار الفرق بين الجنسين فى ظروف التعليم • ولن يمكن بالطبع التعــرف على تأثير دخول المرأة تدريجيا الى ميدان الحياة العملية الا فى المستقبل • كما ترجع هذه الظاهرة أيضا الى شدة مساهمة المرأة ، والتى يمكن اظهارها •

سادسا : لم يمكن العثور على أمثلة المعــادات التى هاجمها الدين الرسمى فى العصر المملوكى ، واختفت أو تغيرت بعــد ذلك بفعل هــذا الهجــوم •

ويمكننا أن نعرض هنا لنماذج قليلة من تلك العــــادات التى كان الدين يحاربها • كان للمرأة فى الجاهلية حق الاشـــــتراك فى الجنازة ، ولكنها لم تكن ملزمة بذلك • وعلى الرغم من أن الاسلام جاء وحظر عليها بشدة أن تتبع الجنازة ، الا أن هذه القاعدة كانت تخــرق دائما ،

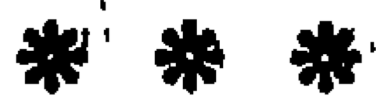
كما تدل ذلك الشواهد الكثيرة . ويشبه ذلك أيضا الوضع بالنسبة للصراخ والعويل .

فعلى الرغم من كل التحذيرات والتحريات التى رددها رجال الدين الدين الا أن النساء كانت ـ ولا تزال حتى اليوم فى بعض المناطق ـ تمزق ملابسها وتلطم خدودها ... الخ . وعلى حين يبدو من اليسير علينا أن نفهم سر الحفاظ على بعض العادات التى تمارسها بعيدا عن أعين الناس ـ رغم التحذيرات والتحريمات المتكررة ـ مثل ازالة شعر جسم الميت . يتضح لنا مدى تمسك الناس بالقديم حتى فى كل العادات الظاهرة ، أيضا مثل الحفاظ على المشية البطيئة للجنازة على مدى هذه القرون الطويلة . وقد حاول الاسلام عبثا أن يفرض مشية أسرع للجنازة.

وقد حرص الشعب على اللجوء الى النبى ـ وعلى غير أساس فى معظم الأحيان ـ لتبرير مسلكه ، وللتوفيق بين عاداته المتوارثة وبين عقيدته . ويبدو هذا التناقض أوضح ما يكون عندما يحاول الناس تبرير ميلهم الى الاسراف فى صنع الكفن ـ الذى توجد عليه شواهد منذ فجر الاسلام ـ باختلاق أحاديث نبوية .

كذلك اتضح من البحث أن حجج وأهداف الهجوم على بعض العادات والممارسات الاجتماعية لم تتعرض لتغيير يذكر على مدى القرون الطويلة .

يدلنا على ذلك المقارنة بين كتاب ابن الحاج الذى يرجع الى القرن الرابع عشر وكتاب محمد عبد السلام الذى لم تنقض على ظهوره عشر سنوات بعد . على أن هذا لا يدل أبدا على أن عامة الشعب واعية بهذا التناقض . وانما هى تعتمد فى ممارستها لكل عادة ـ حتى اليوم ـ على اتباع ـ مزعوم ـ للنبى ، وصحابته ، وللعلماء والصالحين الأولين .



سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منها :

الكتاب الأول :
ميادين علم الاجتماع
اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمود عوده ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثانى :
نظرية علم الاجتماع
تأليف نيقولا تيماشيف ترجمة الدكاترة محمود عوده ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٨ .

الكتاب الثالث :
أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى
تأليف الدكتور محمود عودة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ .

الكتاب الرابع :
تمهيد فى علم الاجتماع
تأليف بوتومور ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعه الثالثة ، ١٩٧٨ .

الكتاب الخامس :
مجتمع المصنع
تأليف الدكتور محمد على محمد .

الكتاب السادس :
الصفوة والمجتمع
تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ .

الكتاب السابع :
الطبقات فى المجتمع الحديث
تأليف بوتومور وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، ١٩٧٢ .

الكتاب الثامن : **علم الاجتماع الفرنسى المعاصر**	تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .
الكتاب التاسع : **قراءات معاصرة فى علم الاجتماع**	للدكتورين علياء شكرى ومحمد على محمد ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
الكتاب العاشر : **دراسات فى التنمية الاجتماعية**	تأليف الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، دار المعارف ،الطبعة الثالثة ، ١٩٧٧ .
الكتاب الحادى عشر : **مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية**	تأليف جون ركس ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، ١٩٧٣ .
الكتاب الثانى عشر : **دراسات فى التغير الاجتماعى**	للدكاترة محمد على محمد والسيد الحسينى وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
الكتاب الثالث عشر : **دراسة علم الاجتماع**	اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٧٥ .
الكتاب الرابع عشر : **دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى**	للدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥ .
الكتاب الخامس عشر : **مقدمة فى علم الاجتماع**	تأليف اليكس انكلز ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨ .

الكتاب السادس عشر : **مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى** تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

الكتاب السابع عشر : **علم الفولكلور . الجزء الأول** تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ .

الكتاب الثامن عشر : **النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم** تأليف الدكتور السيد محمد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٧٧

الكتاب التاسع عشر : **مصادر دراسة الفولكلور العربى** اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٨ .

الكتاب العشرون : **الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية** اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، القاهرة ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٨ .

الكتاب الحادى والعشرون : **علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث** تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب الثانى والعشرون : **علم الفولكلور . الجزء الثانى (دراسة المعتقدات الشعبية)** تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثالث والعشرون : **بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى . دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة السعودية** تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ .

الكتاب الرابع والعشرون : **التراث الشعبي المصرى فى المكتبة الاوربية**
تأليف الدكتورة علياء شكري ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الخامس والعشرون : **الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة**
تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السادس والعشرون : **دراسات معاصرة فى علم الاجتماع**
تأليف الدكتور علياء شكرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السابع والعشرين : **عادات الطعام فى الوطن العربى**
تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثامن والعشرون : **الفلاحون والدولة**
تأليف الدكتور محمود عودة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

* * *

ايداع رقم ١٩٧٩/٢٢١٤ دولى رقم ٩٧٧/٧٣٠٢-١٣-٤

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية تليفون ٩٠٥٢٩٦

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية تليفون : ٩٠٥٢٩٦